الصرة الزرقاء

قصص مترجمة

ترجمة

عمر أبو القاسم الككلي

مجلس الثقافة العام

الصـــرة الـزرقـــاء

إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصـــر الدعيـــسي

علـــي الفـــلاح

هليـــل البيجـــو

جـــابر نـــور ســـلطان

محمـــد عبـــدالله الترهـــوني

ســـالم أحمـــد الأوجلـــي

الصـــرة الـزرقـــاء

قصص مترجمة

تـرجـمـة

عمر أبو القاسم الككلي

النـاشـر

مـجـلـس الـثـقـافـة الـعـام

اسـم الكتاب: الصرة الزرقـاء - قصص مترجمة

اسـم المؤلف: عمر أبو القاسم الككلي

سنة النشر: 2010 م

رقم الإيداع: 381 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)

الترقيم الدولي: 978 - 9959 - 38 - 851 - 3

تصميم الغلاف: علي العباني

لوحة الغلاف: آمال العيادي

التنفيذ الفني: دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

ملحوظـة

باستثناء قصة " قصائد حب " التي لــم تنشر ترجمتها من قبل ، فإن ترجمات بقية القصص نــشرت جميعهــا فـــي صحيفة " العرب " التي تــصدر فـــي لندن.

صيف الجواد الأبيض الجميل

وليم ساروريان (*)

ذات يوم من تلك الأيام البعيدة الطيبة هناك، عندما كنت في التاسعة وكان العالم مليئا بكل أنواع العظمة التي يمكن تخيلها، وكانت الحياة ما تزال حلما غامضا وبهيجا، جاء إلى بيتي مراد ابن عمي، الذي كان يعتبر مجنونا من قبل جميع الذين يعرفونه فيما عداي، عند الرابعة صباحا وأيقظني بالنقر على نافذة غرفتي.

آرام، قال.

قفزت من السرير ونظرت عبر النافذة.

لم أصدق ما رأيت.

لم يحل الصباح بعد، ولكن الوقت كان صيفا، ومع انبلاج النهار منذ دقائق قرب تلك المنطقة من العالم، كان يوجد من الضوء ما يكفي لأن يجعلني أعرف بأنني لم أكن أحلم.

(*) William Saroyan 1908 ـ 1981 كاتب قصة أمريكي شهير من أصل أرمني.

كان مراد ابن عمي جالسا فوق جواد أبيض جميل.

أخرجت رأسي من النافذة وحككت عينيَّ.

نعم، قال بالأرمينية. إنه جواد. إنك لست في حلم. أسرع إن كنت تريد أن تركب.

أعرف أن مرادا ابن عمي يستمتع بوجوده حيا أكثر من أي شخص آخر سقط، في أي وقت، في العالم عن طريق الخطأ. ولكن هذا كان يفوق ما أستطيع تصديقه.

ففي المحل الأول، كانت ذكرياتي الباكرة ذكريات حول الجياد مثلما كانت تشوقاتي الباكرة تشوقات لركوبها.

كان هذا الجزء الرائع.

وفي المحل الثاني، نحن فقراء.

كان هذا هو الجزء الذي منعني من أن أصدق ما رأيت.

كنا فقراء. ليس لدينا مال. قبيلتنا كلها يضربها الفقر. جميع فروع عائلة غاروغلانيان كانت تعيش فقرا هو الأكثر إذهالا وهزلية في العالم. لم يستطع أحد، بمن في ذلك الأفراد المسنون في العائلة، أن يعرف من أين كنا نحصل على المال الكافي لتمكيننا من إدخال الطعام إلى بطوننا. وعلى الرغم من

ذلك كنا مشهورين، وهو الأكثر أهمية، باستقامتنا. كنا مشهورين باستقامتنا على مدى ما يقارب أحد عشر قرنا، حتى عندما كنا العائلة الأكثر ثراء فيما أحببنا أن نعتقد أنه العالم. كنا فخورين أولا، مستقيمين ثانيا، ثم أننا كنا نؤمن بالحق والباطل. لم يكن الواحد منا ليستغل أي أحد في موقف ضعف في العالم، ناهيك عن السرقة.

وبالتالي، فعلى الرغم من أنني كنت أرى الجواد، بالغ المهابة، وعلى الرغم من أنني كنت أشمه، رائحته محببة جدا، وعلى الرغم من أنني كنت أسمعه وهو يتنفس، بشكل مؤثر جدا، إلا أنني لم أستطع أن أصدق أن الجواد له أية علاقة بابن عمي مراد أو بي أو بأي فرد آخر من عائلتي، النائمين منهم والمستيقظين؛ لأنني كنت أعلم أن ابن عمي مراد لا يستطيع شراء جواد، وما دام لا يستطيع شراءه فلابد أنه قد سرقه، وكنت أرفض أن أصدق أنه قد سرقه.

لا يمكن لأحد من عائلة غاروغلانيان أن يكون لصا.

حدقت في ابن عمي أولا، ثم في الجواد. كان ثمة جمود ورع ودعابة لديهما كليهما، وهو ما أبهجني، من ناحية، وأخافني، من ناحية أخرى.

مراد، قلت، من أين سرقت هذا الجواد؟

اقفزمن النافذة، قال، إذا كنت تريد جولة.

صحيح إذن. لقد سرق الجواد. ما في ذلك ريب. لقد جاء إليَّ كي يدعوني للقيام بجولة، ولي أن أقبل أو أرفض، حسب اختياري.

حسنا، يبدو لي أن سرقة جواد لركوبه فترة قصيرة ليس كسرقة أي شيء آخر، مثل النقود. وحسب علمي قد لا تكون هذه سرقة إطلاقا. فإذا كنتَ مهووسا بالخيل مثل هوسي أنا وابن عمي مراد بها، لا تعد هذه سرقة. لن تصير سرقة إلا إذا عرضنا الجواد للبيع، الأمر الذي أعرف، بالطبع، أننا لن نفعله.

انتظرني حتى ألبس شيئا، قلت.

حسنا، قال. لكن بسرعة.

قفزت من النافذة إلى الباحة ووثبت فوق الجواد خلف ابن عمي مراد.

كنا نسكن تلك السنة على تخوم البلدة، في طريق الجوز. وراء منزلنا يقع الريف، مزارع كروم، بساتين، قنوات ري، والطرق الزراعية. في أقل من ثلاث دقائق صرنا في طريق

الزيتون، ومن ثم أخذ الجواد يخب. كان الهواء طازجا وعــذبا في التنفس. وكان الإحساس بالجواد وهو يجري رائعا. شــرع مراد ابن عمي، الذي يعتبر أكثر أفراد العائلة جنونــا، يغنــي، أعني شرع يزمجر.

لكل عائلة خط جنون في نسب ما فيها، وكان مراد ابــن عمي يعتبر خلفا طبيعيا في خط جنون في قبيلتنا. قبله كان عمنا خوسروف، الذي كان رجلا هائل الحجم ذا رأس قويــة بــشعر أسود وأكبر شارب في وادي سان خواكن ، كما كان ذا مــزاج شديد الاهتياج، سريع الاستثارة، نافد الصبر إلى حد أنه يقــاطع كلام أي أحد مزمجرا: لا ضرر في هذا. لا تبال بذلك.

ذلك يكفي، مهما كان الموضوع الذي يتكلم عنه الشخص. ذات مرة ركض ابنه أراك مجتازا ثمانية مبان ليصل إلى دكان الحلاقة، حيث كان أبوه يهذب شاربه، ليخبره بأن حريقا قد شب في منزلهم. استقام خوسروف في كرسيه وزمجر: لا ضرر في هذا. لا تبال بذلك، قلت لك.

اعتبر مراد ابن عمي خلفا طبيعيا لهذا الرجل، على الرغم من أن والد مراد كان زوراب الذي كان عاديا، ولا شيء غيــر ذلك. ذلك هو ما كان عليه الوضع في قبيلتنا. يمكن للرجــل أن

يكون أبا لجسد ابنه، دون أن يعني ذلك ضرورة كونه أبا لعقله. فتوزيع أنواع العقل المختلفة في قبيلتنا كان منذ البداية نزويا ومنحرفا.

تجولنا راكبين وكان مراد ابن عمي يغني؛ لأن الجميع يعرفون بأننا ما زلنا في وطننا القديم [1] الذي، على الأقل حسب جيراننا، ننتمي إليه. تركنا الجواد يجري قدر رغبته في الجري.

في النهاية قال مراد ابن عمي، انزل. أريد أن أركب وحدي.

هل ستتركني أركب وحدي؟ قلت.

ذلك شأن الجواد، قال ابن عمي. انزل.

الجواد سيسمح لي بالركوب، قلت.

سنرى، قال. لا تنس أن لي طريقة في التفاهم مع الجياد.

حسنا، قلت. أيا تكن طريقتك في التفاهم مع الجياد، فلي مثلها.

دعنا نأمل ذلك، قال. من أجل سلامتك. انزل.

حسنا، قلت. ولكن تذكر أنه عليك أن تتركني أحاول أن

---

(1) يقصد أرمينيا.

أركب وحدي.

نزلت وركل مراد ابن عمي الجـواد بعقبيـه صـارخا، وزير، اركض. شب الجواد على خلفيتيه، شخر، وانخرط فـي نوبة عدو كانت أروع ما رأيت. قاد مراد ابن عمي الجواد عبر حقل من العشب الجاف إلى قناة ري، عبر القناة فـوق ظهـر الجواد، ثم عاد، بعد خمس دقائق، يقطر من البلل.

بدأت الشمس ترتفع.

جاء دوري في الركوب الآن، قلت.

نزل مراد ابن عمي من على الجواد.

اركب، قال.

قفزت إلى ظهر الجواد، ولحظتها عرفت أفظـع خـوف يمكن تصوره. لم يتحرك الجواد.

اركل الجواد على جنبيه، قال مراد ابن عمـي. مـا الـذي تنتظرَه؟ علينا إعادته قبل أن ينهض كل من في العالم وينتشروا.

ركلت الجواد على جنبيه. شب مرة أخرى وشخر. ثم أخذ يركض. لم أعرف ماذا أفعل. وبدلا من أن يركض الجواد عبر الحقل باتجاه القناة، ركض عبر الطريق باتجـاه حقـل كـروم

دكران هالابيان وأخذ يقفز من فوق أشجار العنب. قفز الجــواد سبع شجرات عنب قبل أن أقع. وواصل ركضه.

جاء مراد ابن عمي راكضا عبر الطريق.

لست قلقا عليك، صرخ. علينا الإمساك بــذلك الجــواد. اذهب أنت من هناك وأذهب أنا من هنا. إذا تمكنت منـــه كـــن لطيفا. سأكون قريبا.

واصلت عبر الطريق وذهب مراد ابن عمي خلال الحقل باتجاه قناة الري.

استغرق نصف ساعة حتى يجد الجواد ويعود به.

حسنا، قال. اقفز. العالم كله مستيقظ الآن.

ماذا سنفعل؟ قلت.

نعم، قال. إما أن نعيده أو نخفيه حتى صباح الغد.

لم يبد عليه القلق وأدركت أنه سيخفيه ولن يعيده. لـــيس الآن، على أية حال.

أين ستخفيه؟قلت.

أعرف مكانا، قال.

كم من الوقت مر منذ أن سرقت هذا الجواد؟ قلت.

خطر لي فجأة أنه يقوم بهذه الجولات الصباحية راكبا الجواد منذ أيام، وجاء إليَّ هذا الصباح فقط لعلمه بمدى تشوقي لأن أركب جوادا.

من أتى على ذكر سرقة الجواد؟ قال.

مهما يكن، قلت، منذ متى بدأت تركب الجواد كل صباح؟

ليس قبل هذا الصباح، قال.

هل تقول الحقيقة؟ قلت.

طبعا لا، قال، ولكن إذا ما اكتشفنا، فهذا ما ستقوله. لا أريد أن نكون كاذبين كلينا. كل ما تعرفه هو أننا ابتدأنا التجول راكبين الجواد هذا الصباح.

حسنا، قلت.

قاد الجواد بهدوء إلى حظيرة مهجورة في حقل كروم كانت ذات يوم مفخرة مُزارع اسمه فتفاجيان. كان ثمة بعض الشوفان والبرسيم بالحظيرة.

سرنا نحو المنزل.

لم يكن سهلا، قال، جعل الجواد يتصرف بشكل جيد. ففي البداية كان يميل إلى الجموح ولكن، كما قلت لك، لي طريقة في التفاهم مع الجياد. أستطيع أن أجعله يفعل كل ما أرغب أن يفعله. الجياد تفهمني.

كيف تفعل ذلك؟ قلت.

أتفاهم مع الجياد، قال.

أجل، ولكن أي نوع من التفاهم؟ قلت.

نوع بسيط ونزيه، قال.

حسنا، قلت، أتمنى أن أصل إلى تفاهم مثل هذا مع الجياد.

ما زلت طفلا صغيرا، قال، عندما تبلغ الثالثة عشر سوف تعرف كيف تفعل ذلك.

ذهبت إلى المنزل وتناولت إفطاري بشغف.

في ذلك الأصيل جاء عمي خوسروف إلى منزلنا لتناول القهوة وتدخين السغائر. جلس في الردهة يرتشف ويدخن ويتذكر البلد الأصلي. ثم وصل زائر آخر، مزارع يدعى جون بايرو، وهو آشوري دفعته الوحدة إلى تعلم الأرمينية. أحضرت أمي القهوة والتبغ للزائر المستوحد، فصنع لفافة وارتشف

ودخن، ثم، في النهاية، تنهد قائلا: جوادي الأبيض، الذي سرق الشهر الماضي، ما زال مفقودا. لا أفهم هذا.

اهتاج عمي خوسروف اهتياجا شديدا وأخذ يصرخ: لا ضرر في هذا. ما هي خسارة جواد، ألم نخسر جميعا وطننا؟ ما هذا البكاء على جواد.

من السهل عليك، كمديني، قول ذلك، قال جون بايرو، ولكن ماذا بشأن سرِيتي؟[1] ما فائدتها بدون جواد.؟

لا تبال بذلك. زمجر عمي خوسروف.

سرت عشرة أميال كي أصل إلى هنا، قال جون بايرو.

لديك ساقان، صاح عمي خوسروف.

ساقي اليسرى تؤلمني، قال المزارع.

لا تبال بذلك، زمجر عمي خوسروف.

ذلك الجواد كلفني ستين دولارا، قال المزارع.

أنا أبصق على المال، قال عمي خوسروف.

---

(1)surrey عربة خفيفة بأربع عجلات وكرسيين.

نهض وسار منتصب القامة مغادرا المنزل صافقا الباب الهزاز.

أخذت أمي تشرح:

قلبه طيب، قالت. إنه فقط يحن إلى الوطن وهو بهذا الحجم.

ذهب المزارع فركضت إلى منزل مراد ابن عمي.

كان جالسا تحت شجرة خوخ، يحاول جبر جناح مكسور لفرخ طائر أبوالحناء. كان يكلم الطائر.

ماذا هناك؟ قال.

المزارع، جون بايرون، قلت. لقد زارنا في المنزل. يريد جواده. إنه عندك منذ شهر. أريد منك أن تعدني بألا تعيده قبل أن أتعلم الركوب.

ستحتاج إلى سنة لتتعلم الركوب، قال مراد ابن عمي.

يمكننا الاحتفاظ بالجواد لسنة، قلت.

هب مراد ابن عمي علىٰ قدميه.

ماذا؟ زمجر. هل تدعو فردا من عائلة غاروغلانيان إلى

السرقة؟ الجواد سيعود إلى مالكه الحقيقي.

متى؟ قلت.

خلال ستة أشهر على الأكثر، قال.

طوح بالطائر في الهواء. بذل الطائر جهده، سقط مرتين تقريبا، ولكنه في النهاية طار مبتعدا، عاليا، وفي استقامة.

في الصباح الباكر من كل يوم وعلى مدى أسبوعين، نُخرج، مراد ابن عمي وأنا، الجواد من الحظيرة التي بمزرعة الكروم المهجورة حيث كنا نخفيه ونركبه، وفي كل صباح، وعندما يحين دوري، يقفز الجواد من فوق أشجار العنب والشجيرات، فيسقطني ويهرب. ومع ذلك كنت آمل أنني، مع الوقت، سأتعلم الركوب كما يركب مراد ابن عمي.

ذات صباح، ونحن في طريقنا إلى مزرعة كروم فيتفاجيان المهجورة، تلاقينا مع المزارع جون بايرو وهو في طريقه إلى البلدة.

دعني أنا أتكلم، قال مراد ابن عمي. لي طريقة في التفاهم مع المزارعين.

صباح الخير، جون بايرو، قال مراد ابن عمي للمزارع.

تفحص المزارع الجواد بانتباه.

صباح الخير، ابني صديقَيَّ، قال. ما اسم جوادكما؟

قلبي، قال مراد ابن عمي بالأرمينية.

اسم لطيف، قال جون بايرو، لجواد لطيف. يمكنني أن أقسم بأنه نفس الجواد الذي سرق مني منذ عدة أسابيع. هل يمكنني أن أتفحص فمه؟

طبعا، قال مراد.

نظر المزارع في فم الجواد.

نفس الأسنان سنا سنا، قال. كنت سأقسم بأنه جوادي لولا أنني أعرف أسرتيكما. سمعة عائلتكم في الاستقامة معروفة لي جيدا. ومع ذلك فالجواد توأم جوادي. رجل شكاك كان ليصدق عينيه بدلا من قلبه. يوم سعيد، صديقيَّ الصغيرين.

يوم سعيد، جون بايرو، قال مراد ابن عمي.

في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذنا الجواد إلى مزرعة كروم جون بايرو ووضعناه في الحظيرة. سارت معنا

الكلاب محيطة بنا دون أن تصدر صوتا.

الكلاب، همست لمراد ابن عمي. توقعت أنها ستنبح.

ستفعل ذلك مع شخص آخر، قال. لي طريقة في التفــاهم مع الكلاب.

طوق مراد ابن عمي الجواد بيديه، ألصق أنفه على أنف الجواد، ربت عليه، ثم ابتعدنا.

في ذلك الأصيل جاء جون بايرو إلى منزلنا في ســريته وفرَّج أمي على الجواد الذي كان قد سرق وأعيد.

إنني حيران، قال. الجواد أقوى مما كان عليــه. مزاجــه أفضل كذلك. الحمد لله.

أخذ عمي خوسروف، الذي كان بالردهة، فــي الاهتيــاج فصاح، هدوءا يا رجل، هدوءا. جوادك وقد عاد إليك. لا تبــال بذلك.

****

صبح في وعاء الليل

حنيف قريشي (*)

كانت تثلج.

دخل البيت، نظر إلى ساعته، علم أنه تأخر، فأسرع نحو حانة اعتادها تقع في نهاية الشارع. دفع الباب، فوثب إليه كلب ألزاسي (1) مربوط في سلسلة وهو ينبح. طارد طفلان، أحدهما به رضوض بالغة، واحدهما الآخر عبر الأرضية المبتلة بذوب الثلج، دائسين على أقدام الكبار. كان صوت جهاز الأغاني عاليا وكذلك صوت التلفزيون وأصوات الشاربين. لم يأت إلى هنا منذ أشهر، ومع ذلك رأى نفس الناس.

كان يتراجع مغادرا عندما صرخ المناول (2):

– هِي، ألن. أينك، يا صاحبي؟

(*) كاتب بريطاني من مواليد 1954، باكستاني الأب و إنغليزي الأم، يكتب السيناريو السنمائي و المسرحية و الرواية و القصة.

(1) نوع من الكلاب الضخمة تستخدم في الحراسة.

(2) آثرنا استخدام هذه الكلمة ترجمة لكلمة barman.

وأخذ يصب له قدحا.

جلس ألن إلى البار، أشعل سيغارة وشرب نصف قدحه. إذا أكمل قدحه بسرعة فلربما يشرب قدحا آخر. ليس معه نقود، ولكن لماذا يحتاج النقود الليلة؟ آخر مرة حضر فيها مسرحية مدرسية وترتيلا كنسيا بمناسبة عيد الميلاد كانت عندما كان عمره أربعة عشر عاما، وكان والد أعز أصدقائه ثملا إلى درجة أنه لم ينتبه إلى أن ربطة عنقه قد انغمرت في النبيذ الأحمر وأنها ما زالت تقطر. أشار الصبية إليه ضاحكين وظل ابنه محرجا.

هز ألن رأسه للمناول الذي وضع قدحا ثانيا إلى جانب الأول. ما زال ابن ألن صغيرا جدا عن الشعور بالحرج، في الواقع كان مايكي قد بدأ التعلق بأبيه إلى حد العبادة.

يحتاج ألن إلى تهدئة نفسه. كانت مِلاني، عشيقته الحالية التي يعيش معها منذ سنة، قد لحقت به إلى الشارع عندما غادر الشقة جاذبة إياه من ذراعه، مترجية إياه ألا يذهب. قال لها مرارا بأنه قد وعد ابنه بحضور مسرحية ميلاد المسيح.

- سيكون كل الآباء هناك.

كان مايكي قد قال.

- وكذلك هذا الأب.

كان ألن قد قال.

ترك ألن ملاني، بعد صراخ كثير، واقفة تحت الثلج. يعلم الله الحالة التي ستكون عليها عندما يعود إلى البيت، إذا ما بقيت هناك أصلا. عمل ألن في المسرح، ولكن ليس كممثل. اليوم أسند إليه دور المجرم، وهو دور لم يكن مستعدا لتمثيله.

أكمل ألن قدحيه ونهض ليغادر. ستكون هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها هو وزوجته وابنهما معا، كأسرة، منذ أن تركهما، قبل ثمانية عشر شهرا.

لعل خوفه قد انتقل إلى ملاني. ومهما يكن من أمر، فهو ليس متأكدا من أن" الخوف" هي الكلمة الصائبة. طوال الطريق وهو يحاول أن يحدد الشعور. ليس هو التهيب أيضا. اتضح له الأمر الآن وهويقترب من البيت. إنه الحزن. كتلة، من الحزن، مسبوكة، غير قابلة للانحلال، تستقر في صدره.

كان الصبي يجلس على كرسي قرب النافذة. تقافز صائحا عندما رأى أباه:

- أبي، أبي، أبي!.

ناقرا على الزجاج المضبب.

مر أسبوع منذ أن رأى ألن مايكي، واعتاد أن يبحث عن التغيرات التي طرأت عليه. ولكنه يشعر بمدى غرابة أن يجد نفسه يزور ابنه كما لو كان يمر لتناول فنجان شاي مع قريب. كان أكثر شيء يحبه هو اصطحاب مايكي إلى المقاهي. أحيانا ينسل الصبي من مقعده ويركض بالقرب منه ليعرض إلى أي علو يستطيع القفز. لكنهما غالبا ما كانا يجلسان ويتبادلان الحديث مثل صديقين، حيث يسأل مايكي أكثر الأسئلة صعوبة.

- جئت متأخرا.

قالت آني على الباب.

- كنت تشرب.

كانت ترتعش، وعيناها مفتوحتان على سعتهما لا تطرفان. كان معتادا على حالات الانفعال هذه، نوبات الهياج المفاجئة التي تحدث لها خلال اليوم، وغالبا عندما تريد أن تطلب شيئا.

اجتازها ألن منسلا.

- شجرة عيد ميلاد جميلة.

قال.

قرفص فاندفع مايكي إلى ذراعيه. كان يرتدي سروالا من الترتان وكنزة منسوجة باليد. ناول ألن قبعة صوفية ذات لون أحمر غامق. ذهبت آني لإحضار معطفها. جذب ألن القبعة على وجه مايكي، ثم رفعه إلى أعلى، وهو يتملص منه ويصيح، ودفن وجهه في بطنه.

لم يحب ألن أبدا هذا الشارع ولا الحي ولا البيت، وكان هذا يخلف له نوعا من الإحساس بالذنب. حين يأتي للزيارة يشعر بأن عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني، يدخل إلى السرير، يغمض عينيه ويستأنف حياته القديمة، كما لو أن ذلك كان من واجبه أو مصيره. ما زالت آني تلومه على مغادرته، ولكن ألن لم يستطع أن يستوعب لماذا لم تر أن ذلك كان لمصلحتهما معا.

- قبّلا.

قال مايكي عندما انضمت إليهما آني.

- قبلا بعضيكما.

- عفوا؟

- قبل أمي.

نظر ألن إلى زوجته.

ضعفت، استوى وجهها مع ذقنها لأول مرة منذ سنوات. يبدو أنها تتبع حمية، تجيع نفسها. كان وجهها مغطى بمرهم أو مسحوق أبيض. شفتاها كانتا حمراوين. لم يسمح لها أبدا بوضع طلاء الشفاه، لأنه لم يكن يحبه على وجهه. صارت تلبس أفضل الآن، ربما بنقوده. يعلم بأنها لم تكن، عادة، تبيت بالبيت. كانت أمها تبقى مع مايكي ولا تعلم - أو لا تقول - متى ستعود.

نجح هو وآني في أن يضغطا شفاههما على بعضها للحظة. أطلق عطرها ومضة كهربائية لذكريات لا إرادية، فارتعش. حاول أن يتذكر آخر مرة لمس فيها أحدهما الآخر. لا بد وأنها تعود إلى حوالي شهرين قبل مغادرته. يتذكر أنه كان يحس آنذاك بأنها ستكون المرة الأخيرة.

حين خرجوا كانت قد أظلمت. أمسك مايكي بيديهما فأخذا يؤرجحانه بينهما. وعندما انخرط في الغناء شعر ألن بارتياح.

خارج المدرسة كان أولياء الأمور المتأنقون يترجلون من سياراتهم ويمرون تحت الثلج عبر البوابة. لاحظ ألن، متفاجئا،

شدة سعادة الأطفال وسلاسة ضحكاتهم، في حين كان أولياء الأمور لا يتبادلون سوى المجاملات الضرورية. هل هو شخص شديد الاكتئاب؟ عشيقته قالت إنه كذلك.

- إذا كنت كذلك، فبسببك.

كانت تلك إجابته. إنه يشعر بالكآبة، بالتأكيد. ربما بسبب العمر.

بالداخل، كان المكان دافئا ومتألقا ، وحتى المدرسات كن يبتسمن. ضحك ألن لنفسه وهو يتخيل ما قد يظنه الآخرون وهم يرونه مع آني. كم أصبح من غير المعتاد، هذه الأيام، أن ترى زوجا وزوجة معا. تبادل معها بعض عبارات الود حرصا على المظهر الاجتماعي.

أديت المسرحية من قبل الأطفال الذين بين سن ثماني وتسع سنوات، مع أطفال أصغر في أدوار الرعاة وكذلك الأشجار والنجوم. السماء المرسومة المعلقة بين يدي مكنستين قصيرتين كان يمسك بها طفلان صغيران، وكان للملائكة أجنحة من الورق المقوى وملابس صنعت من ستائر شبكية. سيكون مايكي في السنة القادمة كبيرا بدرجة تؤهله للمشاركة.

منذ بضعة أسابيع استشارت المدرسة ألن حول كيفية إنجاز المسرحية. كان ألن مديرا لفرقة مسرحية صغيرة متجولة، أحب الحميمية الجياشة التي يخلقها الممثلون فيما بينهم، وما زال يحب الإثارة التي يخلقها " العرض "، الصلات المباشرة بين زملائه على الركح وأولئك الذين تركوا بيوتهم من أجل الفرجة الخالصة. يوجد نوع من التهيب الحيوي يوحدهم جميعا، وهو ما جعل من المسرح مختلفا عن السينما. ماديا كان عمله سيء المردود، بالطبع. بعض الممثلين الذين عمل معهم ظهروا على التلفزيون، وتزوج المخرج امرأة غنية. ليس لألن دخل آخر. عشيقته ملاني كانت ممثلة. هي حامل الآن وقريبا لن تكون قادرة على العمل.

عندما ابتدأت المسرحية فتش ألن جيبه. لقد جلب معه منديلا، منديلا مصنوعا من قماش راق منح له، على غير المتوقع، من قبل آني منذ عدة سنوات. لم يخرج حاملا في جيبه منديلا منذ آخر يوم له في المدرسة. ولكنه كان يخشى، طيلة ما بعد الظهيرة، من أن تجعله أصوات الأطفال ينهار، ولكي يرفع من معنوياته أخذ يفكر في أبيه وهو يغني في عيد الميلاد في الكنيسة ـ المرة الوحيدة التي ذهب فيها إلى هناك ـ رافعا صوته بأعلى ما يستطيع، غير مكترث بأن غناءه كان نشازا. إنهم

يحتفلون، قال أبوه، ولا يقومون بتسجيلات لاسطوانات دويتش.

أولياء الأمور هللوا وضحكوا خلال عرض المسرحية، والأطفال الأصغر سنا، مثل ابن ألن، تصايحوا مبتهجين.

قارن ألن نفسه مع الأشخاص الذين يعرفهم هناك. في الباب حياه رجل قائلا:

- يمكنني أن أدعوك إلى شراب، ولكن غير مسموح لي.

لم يستطع ألن تذكر من هو الرجل إلى أن ذكره بأنه سبق له وأن أصلح له سيارته مرتين، لأنه أصبح نحيلا ومنهكا وكان رأسه حليقا.

- لكنك على الأقل تبدو على ما يرام، إنك تبدو على ما يرام.

قال الرجل، بينما كان ألن يبتعد متضايقا. الآن فقط أدرك إلى أي مدى يمكن أن يكون الرجل مريضا.

كانت هناك امرأة تجلس في الصف المجاور. كان ألن قد أُخبر من قبل أحد معارفه في بداية هذه السنة بأنها كانت قد ألقت بنفسها من النافذة عارية ليتحطم وجهها وتتكسر ضلوعها، قبل أن يتم نقلها إلى المستشفى، مقيدة بسترة المجانين. امرأة أخرى، تجلس بعيدا في نفس الصف، تجاهلته، أو لعلها لم تره.

لقد كانت عادة ما تسير معه في الحديقة، بينما أطفالهما يلعبون. أخبرته بأنها ستهجر زوجها.

لقد كان قرننا مهلكا، ولكن هنا، في هذا الركن المريح من الأرض، بسبب قدر من الحظ، نجا معظمهم. لهذا السبب غنى، متعجبا في نفس الوقت، لماذا هم خالون من البهجة إلى هذا الحد.

لم تحمل ملاني إلا منذ مدة قصيرة، غير أن جسدها بدأ يتغير. أخذت تفقد بنوتتها، وصارت تحس، بغض النظر عن خصرها الممتليء، بالثقل، مدعية أنها أصبحت مضطرة إلى السير "مترنحة ". إنها لا تشتغل الآن، لذا لا توجد مشكلة في عودتها إلى السرير في الصباح. عندما لا يكونان متخاصمين يجلس معها حين يتناول إفطاره.

إنها مرتبطة بموعد في اليوم التالي، من أجل عملية إجهاض. سوف يمر لأخذها بعد غد. لقد تورط في عمليتي إجهاض أخريين منذ زمن بعيد. تجنب الأولى بالذهاب للعيش بعيدا مع امرأة أخرى. ولم يعد يتذكر من الثانية سوى كيف كانت المرأة ترتمي على الأرض باكية بعد العملية. يتذكر نفسه جالسا في الحجرة بعيدا عنها مغمض العينين يعد تنازليا من الألف. انقطعت العلاقة بعد ذلك مباشرة. حياته مع ملاني

ستنتهي هي أيضا. سيكون الاستمرار عبثا. لماذا يُعتبر استمرار العلاقات مهما؟ بحلول ليلة الغد سيكون أمله قد تحطم. لم يعد بمستطاعه التنقل من امرأة إلى أخرى.

أصبحت خصوماتهما مرة، ولم تعد تصالحاتهما سائغة. أغلق الشقة في وجهها مرة. طوحت هي بصورة كانت قد أعطتها له زوجته. رمى هو ببعض أشيائها إلى الشارع. ظلا يضربان بعضيهما لعدة أسابيع، ويخرجان إلى الدنيا كما لو أنهما كانا خارجين من حريق، بشرتهما مسودة، وأعينهما جاحظة، لا يدريان ما الذي جرى. هل سيظلان معا إلى الأبد، أم إلى الصباح فقط؟

أدرك ألن الآن، وهو يسترق النظر إلى زوجته من فوق رأس الصبي الذي ربط بينهما إلى الأبد، أنه لن يقوم بهذه الغلطة ثانية.

كان هو وملاني، عندما يكونان رائقي المزاج، يتحدثان إلى الطفلة التي في بطنها ويقترحان لها الأسماء. تحدثا عن رغبتهما في الحصول على طفل في السنوات القليلة القادمة. ولكن الطفل ليس ثلاجة يمكنك أخذها من السوق متى ما أردت، أو متى ما استطعت. صار للطفلة التي في بطنها وجه.

عندما سار ثلاثتهم مبتعدين عن المدرسة، انتبه ألن إلى وجود عربة لحمل المشتريات، مهملة أمام أحد الأسواق. رفع مايكي فورا، وضعه فيها وجرى بها على جانب الطريق. صياح الصبي المبتهج الجاثم في العربة المقرقعة، كلما انزلقت في المنعطفات أو فوق المطبات، وصراخ آني وهي تركض خلفهما محاولة مواكبتهما، اخترق ظلام المغرب.

سرعان ما بلغا البيت متضاحكين، لاهثين ودافئين. أغلقت آني النوافذ من فورها وأشعلت أضواء شجرة عيد الميلاد. تغيرت الغرفة عن آخر مرة كان فيها هنا. صارت تحتوي على أشيائها هي فقط. لم يُترك بها شيء يخصه.

صبت لألن كأسا من البراندي. جرع مايكي عصيره. قالت آني إنه يمكنه أخذ إصبع شيكولاتة من الشجرة شريطة أن يشركهما فيه. عندما أخذوا يتناقشون حول المسرحية لاحظ ألن أن ابنه كان متحفظا ومتقلبا، كما لو أنه لم يحسم مع أي من والديه يقف، لإحساسه بأنه من غير الممكن تفضيل أحدهما دون إزاحة الآخر.

أخيرا نهض ألن كي يغادر.

- أوه، لقد نسيت.

قالت آني.

- لقد اشتريت فطائر لحم مفروم، وزبدة براندي [1]. لا أعرف لماذا شغلت نفسي بذلك، ولكن هذا ما فعلته. مازلت تحب هذه الأشياء، أليس كذلك؟ سأضعها في صحن واحد كي تشترك فيها أنت ومايكي. هل هذا ملائم؟

ذهبت لتسخينها. كان ألن قد وعد ملاني بأنه لن يتأخر. عليه أن يذهب إليها. يا للخيال من آلة مرعبة. إذا كان الوضع سيئا بينهما الليلة، فلربما قاما غدا بشيء يتعذر العدول عنه. كان متخوفا من أنها ربما تكون قد حسمت أمرها.

- تبدو متعجلا.

قالت آني عندما عادت.

قال:

- سأنهي شرابي وأتناول فطيرة، ثم أمضي.

- هل ستأتي يوم عيد الميلاد؟

هز رأسه. قالت:

---

(1) صلصة كثيفة، حلوة ودسمة تحضر من البراندي والزبدة والسكر.

- ولا حتى لساعة؟ إنها لا تحتمل فراقك، أهْ؟

- تعرفين الأمور.

نظرت إليه بغيظ:

- كيف لا تستطيع قضاء بعض الوقت مع ابنك؟

لم يقل إن ملاني ترغب في أن يكون معهـا يـوم عيـد الميلاد، وإلا فإنها ستذهب.

كان مايكي يتابعهما صامتا. قالت:

- هذا وقت طويل مع هذه المرأة. بالنسبة إليك.

- أمورنا جيدة، نعم. سيكون لنا طفل، أيضا.

- أجل.

قالت بعد برهة.

- أنا مسرور جدا.

قال.

أخبرت ملاني عددا من أصدقائها بأنها حامل، كانت تعلن ذلك باستمرار على الهاتف. آني أول شخص يخبره هو.

- يمكنك الانتظار.

قال:

- من أجل ماذا؟ آسف، لا أستطيع الانتظار. تعلمين كيف هي الأمور.

- لماذا تكرر ذلك؟

- هذا واقع. هذا هو وضعك. تعايشي معه.

قالت:

- سأفعل. أشكرك.

ثم قالت:

- أنت لا ترغب في رؤية مايكي كثيرا، إذن.

- بالعكس. سأراه.

- لماذا تراه؟

قال:

- ولماذا لا أراه؟

- أنت هجرتنا. أنا لديَّ هو فقط، أما هي فلديها كل شيء.

– من؟

– عشيقتك.

قال:

– اسمعي. سوف أراك فيما بعد.

نهض وذهب إلى الردهة.

عند الباب تمسك الصبي بذيل معطف ألن.

– لتبق هنا دوما وإلى الأبد، آمين.

قبله ألن.

– سوف أعود قريبا.

– نم في سرير أمي.

قال مايكي.

– تستطيع أن تقوم أنت بذلك، بدلا مني.

دس مايكي قطعة شيكولاتة في يده.

– في حالة ما إذا جعت وأنا نائم.

ثم قال:

ـ أخاطبك عندما لاتكون هنا. أخاطبك عبر الأرضية.

ـ وأنا أسمعك.

قال ألن.

كان ابنه في النافذة يلوح ويهتف. كان يمكنه تبين زوجته واقفة بآخر الغرفة تتابعه، وهو يبتعد.

غادر البيت وذهب إلى الحانة. في الحانة طلب جعة وشرابا آخر. لم يتذكر أنه ليس معه نقود إلا حين وضع أمامه المناول ما طلبه. اعتذر، ورغم أن المناول بدأ في قول شيء ما، إلا أن ألن استدار وخرج.

بردت الدنيا الآن. كان كل شيء يتجمد، معدن السيارات، نسغ النبات، والأرض ذاتها. مشى عبر شوارع مألوفة، جعلها الثلج لا تبدو كذلك. كانت عدة بيوت مظلمة، والناس يستعدون للذهاب بعيدا. وكلما ازداد تكاثف الثلج كلما ران على المدينة صمت غريب، منقطع النظير. أسرع في مشيته محركا يديه داخل معطفه إلى أن دفيء. فكر في الرجل المقترب من الموت الذي التقاه في باب المدرسة، وفي الشيء البغيض الذي أصابه، بحيث إنه لم يتعرف إليه. رغب في أن يجد الرجل ليقول له كلنا نتغير ونتبدل، يوميا،

هذا ما هنالك، هذا كل ما هنالك. بالتأكيد، لم يعتقد ألن إنـــه فهـــم أي شيء عن نفسه أكثر من أنه قد تبدل. كان ذلك أملا.

كانت الدنيا، من وجهة نظر معينة، رمادا. تستطيع أيضا تحويلها إلى غبار بـــالإحراق المتواصـــل للأمـــل، والـــشهية، والرغبة. ولكن كي تعيش عليك، بمعنى ما، الإيمان بالمستقبل. لا يمكنك الاستمرار في الرجوع إلى المكان القذر نفسه.

صعد الدرج إلى البيت جريا. كان النور مـــضاء. كـــان يعرف أن الأمور ستكون على ما يرام إذا ما وجـــدها مرتديـــة العباءة التي كان قد جلبها لها.

كانت في المطبخ تسخن الكـــيش [1] وتحـــضر الـــسلطة. نظرت إليه بدون عداء. لم تتكلم هي، ولا هو أيضا. ظل يراقبها عازما على عدم المضي إليها. كان واثقا من لو أنه انتزع رغبته فيها من نفسه فسينجو. وكان يدرك، في نفس الوقت، أنه بـــدون الرغبة لا يوجد شيء.

اكتشف وهو يجلس هناك أنه لم يسبق له أبدا أن لاحظ كم يمكن للحياة أن تكون شديدة الإيجاع. وأدرك كذلك أنه لا يمكن

---

(1) كعكة مفتوحة ذات حشوة سكرية.

لأي كمية من الشراب، أو المخدرات، أو التأمل، أن تجعل الأمور أفضل، لمدة طويلة. تذكر جملة لسقراط كان قد تعلمها في الجامعة: " لا يمكن للإنسان الفاضل تحمل الشر، لا أثناء الحياة ولا بعد الموت.". علق فتغنشتاين [1] على هذا القول، عن الشعور " بالطمأنينة المطلقة ". سيبحث عن ذلك. لربما تحصل على نصيب من هذا، نصيب نهائي من " الطمأنينة الداخلية ".

ارتديا ملابس النوم وذهبا، أخيرا، إلى مكانه المفضل، سريرهما. حل عباءتها ووضع يده على بطنها مداعبا. سرعان ما استجابت للمساته ودخلت بين أحضانه. ثم داعبته قليلا، قبل أن تبدل وضعها وتخلد إلى النوم.

أخذ يفكر في ابنه النائم، كما اعتاد أن يفعل في هذا الوقت، متسائلا ما إذا كان مايكي قد استيقظ وأخذ يتحدث إليه " عبر الأرضية ". رغب في أن يذهب ويقبل ابنه قبلة ما قبل النوم، كما يفعل غيره من الآباء. قد يصير له طفل آخر، وسيكون وضعه مختلفا. طاف ببصره عبر الحجرة. لا يوجد مكان كاف لخزانة ملابس أخرى. ملابسهما مكومة على طرف

---

(1) Ludwig Josef Johann Wittgenstein (1899 _ 1951) فيلسوف وعالم منطق بريطاني(نمساوي المولد) وأحد مؤسسي الفلسفة الوضعية المنطقية.

السرير. توجد، فوق كرسي بالقرب منه مضاءة بمصباح مائل، نسخة من " الآمال العظام " [1] وزجاجة من زيت للتدليك مغطاة برمل مدهن، ونظارته الخاصة بالقراءة، وقدح ببقايا نبيـــذ، ثـــم دفتر ملاحظات.

حياته وعقله كانا مزدحمين إلى درجة يبدو معها الجلوس في السرير لكتابة يومياته، أو حتى القراءة، ترفا غريبا، ادعـــاء طمأنينة مستحيلة. ولكن، من جانب آخر، بدا هذا النـــوع مـــن الوحشة شديد الشبه بانتظار شيء سيبدأ. لقـــد رغـــب فـــي أن يتعرض لاضطراب، ولقد كان له ذلك.

يعرف أن مشاعر الاستياء قد تغلغلت فيهما وأنها ما تنفك تنمو. ولكنهما، هو وملاني، كانا خائفين أكثر منهما قاسيين. لقد كانا، بطريقتهما الخرقاء، يخاصم أحدهما الآخـــر دفاعـــا عـــن نفسيهما. الحب يمكن أن يقوض في دقيقة، مثلما تفعـــل العـــصا لشبكة العنكبوت. ولكن الحب يكون ضمن خليط، لا يوجد نقيـــا أبدا. يدرك أنه يوجد بينهما ما يكفي من الحب واللطف، وأنه لا يمكن للحب أن يتبدد.

* * * *

---

(1) عنوان رواية لتشارلز ديكنز.

ب . وردزورث

في. إس. نايبول (*)

يأتي ثلاثة شحاذين، في مواعيد محددة، يوميا إلى البيوت الكريمة في شارع ميغيل. فعند حوالي العاشرة يجيء هندي مرتديا الدوطي وسترة بيضاء، فنصب علبة أرز في الخرج المعلق على ظهره. في الحادية عشرة تجيء عجوز وهي تدخن غليونا خزفيا وتنال سنتا. في الثانية يسأل رجل أعمى يقوده طفل عن البنس الذي يعطاه يوميا.

أحيانا يأتينا متشرد. ذات يوم جاءنا رجل وقال إنه جائع. أعطيناه وجبة. طلب سيغارة ولم يذهب حتى أشعلناها له. ذلك الرجل لم يعد أبدا.

أغرب زائر جاء حوالي الرابعة من بعد ظهيرة أحد الأيام. كنت قد عدت من المدرسة وارتديت ملابس البيت. قال الرجل:

(*) في. إس. نايبول Sir Vidiadhar Surajprasad Naipaul (م. 1932). أديب من الترينيداد ذو أصول هندية براهمية. يحمل الجنسية الإنجليزية و يعيش في بريطانيا منذ سنة 1950. حائز على جائزة نوبل للآداب سنة 2001.

- هل أستطيع دخول جنينة بيتكم، يا بني؟

كان رجلا ضئيلا وكان يرتدي ملابسه بعناية. كان يرتدي قبعة، قميصا أبيض وسروالا أسود. سألته:

- ماذا تريد؟

قال:

- أريد أن أرى نحلكم.

كانت لدينا أربع شجيرات من فصيلة الغرو-غرو وكانت تعج بنحل غير مرغوب في وجوده. صعدت الدرج راكضا وصحت:

- أمي، يوجد رجل أمام البيت يقول إنه يرغب في رؤية النحل.

جاءت أمي، نظرت إلى الرجل وسألت بطريقة غير ودية:

- ماذا تريد؟

قال الرجل:

- أريد أن أرى نحلكم.

كانت إنغليزيته سليمة جدا، وهو أمر غير مألوف،

واستطعت أن أتبين أن أمي كانت قلقة. قالت لي:

- ابق هنا وراقبه وهو يرى النحل.

قال الرجل:

- أشكرك أيتها السيدة. لقد قمت بعمل خير اليوم.

تكلم بتمهل وعناية كما لو كان الكلام يكلفه مالا. راقبنا، هذا الرجل وأنا، النحل لمدة حوالي ساعة مقرفصين قرب شجرات النخيل. قال الرجل:

- أحب مراقبة النحل. هل تحب مراقبة النحل، يا بني؟

قلت:

- ليس لديَّ وقت.

هز رأسه بأسى. قال:

- ذلك ما أقوم به. أنا أراقب فقط. أستطيع مراقبة النمل لمدة أيام. هل سبق لك أن راقبت النمل؟ والعقارب؟ وأم أربع وأربعين. والكونغوريز؟ [1]. هل راقبت كل هذا؟

هززت رأسي. قلت:

---

(1) congorees يبدو أنه اسم محلي لنوع من الحشرات.

ـ ماذا تعمل، أيها السيد؟

نهض وقال:

ـ أنا شاعر.

قلت:

ـ شاعر جيد؟

قال:

ـ الأعظم في العالم.

ـ ما اسمك، أيها السيد؟

ـ ب. وردزورث.

ـ ب. كتلك التي في بل [1]؟

ـ بلاك [2]. بلاك وردزورث. وايـت [3] وردزورث أخـي. نشترك في نفس الطبائع. يمكن أن أبكي وأنا أراقب زهرة صغيرة مثل زهرة نجمة الصباح.

---

(1).Bill.

(2) black أسود.

(3) White أبيض.

قلت:

ـ أنت تبكي؟

ـ لم العجب، يا بني؟ لم العجب؟ ستعرف عندما تكبر. أنت أيضا شاعر، أنت تعرف. وعندما تكون شاعرا يمكن أن تبكي لكل شيء.

لم أستطع أن أضحك. قال:

ـ هل تحب أمك؟

ـ عندما لا تضربني.

أخرج من جيبه الخلفي ورقة مطبوعة وقال:

ـ في هذه الورقة أعظم قصيدة عن الأمهات وسأبيعك إياها بسعر مغر. أربعة سنتات.

ذهبت إلى الداخل وقلت:

ـ أمي، هل تريدين شراء شعر بأربعة سنتات؟

قالت أمي:

ـ قل لذلك الرجل اللعين أن يجر ذيله بعيدا عن جنينتي. سمعت؟

قلت لـــ ب. وردزورث:

ـ قالت أمي إنها لا تملك أربعة سنتات.

قال ب. وردزورث:

ـ تلك مأساة الشاعر.

ثم أعاد الورقة إلى جيبه. لم يبد مكترثا. قلت:

ـ إنه لأمر مسل أن تتجول بائعا الشعر علـــى هـــذا النحـــو. الكالبسونيون [1] فقط يفعلون ذلك. كثيرون يشترون؟

قال:

ـ ما من أحد اشترى نسخة.

ـ إذن لماذا تداوم على التجوال؟

قال:

ـ بهذه الطريقة أراقب عدة أشياء، وآمل أن أقابل شعراء.

قلت:

---

(1) calypsonians الشعراء الذين يغنون الكاليبسوات calypsoes، وهي نوع من الغناء سائد في جزر الهند الغربية يتم ارتجالها في العادة، أوزانها أفريقية وتتناول مواضيع راهنة.

- هل تعتقد فعلا أنني شاعر؟

- أنت جيد مثلي.

وعندما ذهب وردزورث تمنيت أن أقابله ثانية.

بينما كنت عائدا من المدرسة ظهيرة أحد الأيام، بعد ذلك بأسبوع، التقيته على ناصية شارع ميغيل. قال:

- كنت أنتظرك منذ فترة طويلة.

قلت:

- ألم تبع أي شعر حتى الآن؟

هز رأسه. قال:

- توجد في جنينتي أفضل شجرة مانغو في بورت أوف اسبين. وثمار المانغو الآن ناضجة وحمراء وريانة ولقد انتظرتك هنا لأقول لك ذلك ولأدعوك كي تأتي وتأكل بعض ثمار المانغو التي عندي.

كان يسكن في شارع ألبرتو في كوخ من حجرة واحدة أقيم في منتصف قطعة الأرض. بدت الجنينة بكاملها خضراء. وكانت هناك شجرة مانغو كبيرة. كانت هناك شجرة جوز هند

وشجرة برقوق. بدا المشهد جزءا من البراري، كما لو أنه لم يكن في المدينة أبدا، إذ لا تمكنك رؤية تلك المباني الأسمنتية على الشارع.

كان محقا. كانت ثمار المانغو لذيذة وريانة، أكلت حوالي ست منها، فسال عصير المانغو على ذراعيَّ حتى المرفقين ومن فمي حتى ذقني وتلطخ قميصي.

قالت أمي عندما عدت إلى البيت:

ـ أين كنت؟ تعتقد أنك صرت رجلا الآن ويمكنك الذهاب إلى أي مكان؟ اذهب وأحضر لي عصا.

ضربتني بقسوة، فخرجت من البيت مقسما ألا أعود إليه ثانية. ذهبت إلى بيت ب. وردزورث. كنت مغتاظا غيظا شديدا، وكان أنفي ينزف. قال ب. وردزورث:

ـ كف عن البكاء. سنذهب في جولة.

توقفت عن البكاء، ولكنني ظللت ألهث. ذهبنا في جولة. تمشينا نازلين مع شارع سانت كلير حتى سافانا ووصلنا حتى ميدان السباق. قال وردزورث:

ـ لنستلق على العشب الآن وننظر إلى السماء. وأريدك أن

تفكر في هذه النجوم، كم هي بعيدة عنا.

قمت بما طلب مني، وتبينت ما قصده. لم أشعر بشيء، ولكنني لم أشعر، في نفس الوقت، بمثل هذه العظمة والروعة طيلة حياتي. نسيت كل غيظي وكل دموعي وكل الضربات. وعندما قلت إني صرت أفضل، أخذ يعلمني بأسماء النجوم، وأتذكر، على وجه الخصوص، كوكبة أوريون الصياد [1] ولست أدري لماذا. وأستطيع حتى الآن أن أميز أوريون، ولكن نسيت البقية.

إثرها لمع ضوء في وجهينا ورأينا شرطيا، فنهضنا من فوق العشب. قال الشرطي:

- ماذا تفعلان هنا؟

قال ب. وردزورث:

- لقد ظللت أسأل نفسي السؤال ذاته طيلة أربعين سنة.

صرنا، ب. وردزورث وأنا، صديقين. قال لي:

- ينبغي ألا تخبر أحدا عني وعن شجرة المانغو وشجرة جوز

---

(1) Orion، عملاق صياد تحول، بعد موته، إلى كوكبة نجمية (أسطورة إغريقية).

الهند وشجرة البرقوق. ينبغي أن تعتبر ذلك سرا. إذا أخبرت أحدا فسأعلم، لأنني شاعر.

أعطيته كلمتي، والتزمت بها.

أحببت حجرته الصغيرة. لم تكن أكثر أثاثا من حجرة الضيوف لدى جورج، ولكنها كانت أنظف وأكثر نقاء. غير أنها بدت مستوحدة. سألته ذات يوم:

- سيد وردزورث، لماذا تحتفظ بكل هذا الشجر في جنينتك؟ ألا يجعل هذا المكان رطبا؟

قال:

- استمع. سأحكي لك قصة. ذات مرة تقابل فتى وفتاة ووقعا في الغرام. أحبا بعضيهما إلى درجة أنهما تزوجا. كلاهما كان شاعرا. أحب هو الكلمات، وأحبت هي العشب والأزهار والأشجار. عاشا سعيدين في حجرة وحيدة، ثم قالت الفتاة الشاعرة ذات يوم للفتى الشاعر: سيكون لدينا شاعر آخر في الأسرة. لكن هذا الشاعر لم يولد، لأن الفتاة ماتت ومات معها الشاعر الصغير بداخلها. وصار زوج الفتاة شديد الحزن وقرر ألا يلمس أي شيء في جنينة

الفتاة. وهكذا بقيت الجنينة وازدادت نموا وبكارة.

نظرت إلى ب. وردزورث، فبدا لي، بعد أن حكى لي هذه القصة، قد شاخ أكثر. فهمت قصته.

قمنا معا بجولات طويلة. ذهبنا إلى مختلف أنواع الحدائق، تسلقنا تل المستشار عند الأصيل وراقبنا الظلام وهو يسقط على بورت أوف اسبين، ثم شاهدنا الأضواء تسري في المدينة وعلى السفن في الميناء.

قام بكل شيء كما لو كان يقوم به للمرة الأولى في حياته. قام بكل شيء كما لو كان يقوم بطقس كنسي. أحيانا كان يقول لي:

- ما رأيك في تناول بعض الجيلاطي؟

و عندما أقول" نعم" يصير شديد الجدية ويقول:

- والآن، أي مقهى سنقوم بتشريفه؟

كما لو كان ذلك أمرا بالغ الأهمية. يستغرق بعض الوقت في التفكير في الأمر ويقول في النهاية:

- أعتقد أنني سأذهب وأتفاوض على الصفقة مع ذلك المحل.

صار العالم أكثر إثارة.

ذات يوم، بينما كنت في جنينته، قال لي:

ـ هذا أمر بيني وبينك فقط، تذكر. أنا أكتب قصيدة.

ـ أوه.

أصبت بخيبة أمل. قال:

ـ لكنها من نوع مختلف من القصائد. هذه أعظم قصيدة في العالم.

صفرت. قال:

ـ أشتغل عليها منذ أكثر من خمس سنين. سوف أنجزها خلال حوالي اثنتين وعشرين سنة من الآن. هذا إذا ما حافظت على الكتابة بالمعدل الحالي.

ـ أنت تكتب كثيرا إذن؟

قال:

ـ لم أعد كذلك. أنا أكتب سطرا واحدا فقط في الشهر. بعد أن أتأكد أنه سطر جيد.

سألته:

- ماذا كان السطر الجيد الخاص بالشهر الماضي؟

نظر أعلى، إلى السماء، وقال:

- " الماضي سحيق."

قلت:

- إنه سطر جميل.

ب. وردزورث قال:

- أملي أن أقطر تجاربي طيلة الشهر في سطر شعري مفرد. وهكذا سأنجز، خلال اثنتين وعشرين سنة، قصيدة تخاطب الإنسانية كافة.

امتلأت دهشة.

استمرت جولاتنا. تمشينا بحذاء السور البحري في دوكسايت ذات يوم، وقلت:

- سيد وردزورث، إذا ما ألقيت بهذا الدبوس إلى الماء، فهل تعتقد أنه سيطفو؟

قال:

- هذا عالم غريب. ألق دبوسك، ودعنا نرى ما سيحدث.

غرق الدبوس. قلت:

ـ ما حال القصيدة هذا الشهر؟

لكنه لم يطلعني على أي سطر آخر. فقط قال:

ـ أوه، تأتي، أنت تعرف. إنها تأتي.

أو نجلس على السور البحري ونراقب البواخر وهي تدخل الميناء.

ولكنني لم أعد أسمع أي شيء عن أعظم قصيدة في العالم.

أحسست أنه يطعن في السن.

ـ كيف تعيش، سيد وردزورث؟

سألته ذات يوم. قال:

ـ تعني كيف أحصل على المال؟

عندما هززت رأسي ضحك بطريقة مراوغة. قال:

ـ أغني كاليبسوات في موسم الكاليبسو.

ـ وهذا يكفيك طوال السنة.

- إنه يكفي.

- لكنك ستكون أغنى رجل في العالم عندما تكتب القصيدة الأعظم؟

لم يرد.

عندما ذهبت لأراه في بيته الصغير ذات يوم وجدته مستلقيا على سريره الفردي. بدا طاعنا في السن وشديد الضعف إلى درجة جعلتني أوشك على البكاء. قال:

- القصيدة لا تسير على ما يرام.

لم يكن ينظر إليَّ. كان ينظر عبر النافذة إلى شجرة جوز الهند، وكان يتكلم كما لو لم أكن موجودا. قال:

- لما كنت في العشرين كنت أشعر بالعنفوان في داخلي.

وعندها صار بإمكاني أن أرى، بأم عينيَّ، وجهه يصير أكثر شيخوخة وإرهاقا. قال:

- لكن ذلك.. ذلك كان منذ زمن طويل مضى.

لحظتها شعرت بذلك على نحو جارح، كما لو كنت صفعت من قبل أمي. بإمكاني رؤية ذلك بوضوح على وجهه.

كان جليا لكل من يريد أن يرى. الموت على وجهه المــنكمش. نظر إليَّ ورأى دموعي فجلس. قال:

- تعال.

ذهبت وجلست على ركبتيه. نظر في عينيَّ، ثم قال:

- أنت أيضا يمكنك أن ترى ذلك. آمنت دائما بأنك تمتلك عين شاعر.

لم يبد حزينا أبدا. وذلك جعلني أنفجر باكيا بصوت عال. جذبني إلى صدره النحيل وقال:

- هل تريدني أن أحكي لك قصة مسلية؟

وابتسم لي مشجعا. لكنني لم أستطع الإجابة. قال:

- أريدك أن تعدني بأنك ستذهب، بعد أن أكمل القصة، ولــن تعود إلى رؤيتي أبدا. هل تعدني؟

هززت رأسي. قال:

- طيب. حسنا، استمع. تلك القصة التي حكيتها لك عن الفتى الشاعر والفتاة الشاعرة، هل تتذكرها؟ لم تكن حقيقة. كانت شيئا ألفته. كل ذلك الكلام عن الشعر والقصيدة الأعظم في

العالم ليس حقيقة أيضا. أليس هذا أكثـــر الأشـــياء التـــي سمعتها تسلية ؟

لكن صوته انقطع.

تركت الكوخ وركضت إلى البيت باكيا، مثل شاعر، لكل شيء أراه.

تمشيت مع شارع ألبرتو بعد ذلك بسنة، ولكنني لم أجد أي أثر لبيت الشاعر. لم يختف هكذا. لقد هدم، وحل محله بناء من دورين. شجرة المانغو وشجرة البرقوق وشجرة جـــوز الهنـــد أزيلت جميعا، وكان الآجر والأسمنت في كل مكان.

تماما، كما لو أن ب. وردزورث لم يوجد قط.

* * * *

قتـــل الفيـــل

جورج أورويل (*)

كنت، في مولميان، ببورما السفلى، مبغوضا من قبل عدد كبير من الأهالي- وهي المرة الأولى في حياتي التي أكون فيها على درجة من الأهمية تؤهلني لأن يحدث لي هذا. كنت ضابط شرطة في إحدى مناطق البلدة حيث كانت المشاعر المعادية للأوروبيين مريرة على نحو مجاني ومثير للرثاء. لم يكن لدى أحد الاستعداد لإثارة شغب، ولكن إذا ما حدث وأن دخلت امرأة

(*) George Orwell (1903 – 1950) و اسمه الحقيقي Eric Arthur Blair أديب إنغليزي شهير، ولد في البنغال وعمل في " الشرطة الهندية الإمبراطورية" في بورما حوالي ست سنوات، ثم استقال منها هروبا من الإمبريالية و" سيطرة الإنسان على الإنسان " وعاد إلى أوروبا ليعيش في ضنك. شارك في الحرب الأهلية الأسبانية إلى جانب الجمهوريين وعاد محبطا و مصابا بجرح في حلقه سبب له عاهة مستديمة حدت من قدرته على الكلام. مات بسبب السل. له عدة روايات وكتابات مختلفة (عن : THE OXFORD REFERENCE DICTIONARY). اشتهر في العالم العربي(لأسباب سياسية فيما يبدو) بروايتيه" 1984" و" مزرعة الحيوانات " اللتين يهجو فيهما الشيوعية.

أوروبية السوق وحدها فسيكون من المتوقع أن يبصق أحـــدهم عصير التامول على ثيابها. وكوني ضابط شرطة جعلني هـــدفا واضحا وعرضة للمضايقة، كلما كان ذلـــك مأمونـــا. فعنـــدما أوقعني بورمي رشيق أرضا في مباراة كرة قدم وأشـــاح حكـــم المباراة (بورمي هو أيضا) بوجهه إلى الناحية الأخرى انفجر الحشد بضحك متشف. حدث هذا أكثر من مرة. وفـــي النهايـــة أخذت وجوه الشبان الصفراء المكشرة الذين يلاقونني في كـــل مكان وصيحات الإهانات التي تطلق خلفي، حين تكون المسافة آمنة، تنال من أعصابي. كان الرهبان البوذيون الـــشبان أســـوأ الجميع. يوجد منهم بضعة آلاف في البلدة ويبدو أنه لم يكن لأحد منهم من شغل سوى الوقوف عند زوايا الطرقات والتهكم علـــى الأوروبيين.

هذا كله مربك ومثير للحنق. لأنني كنـــت، آنـــذاك، قـــد توصلت إلى قناعة مفادها أن الإمبريالية شر وأن خيـــر البـــر التعجيل بالاستقالة من وظيفتي وتركها. فمن الناحيـــة النظريـــة كنت ـ سرا، بطبيعة الحال ـ إلى جانب البورميين كليا ومضادا تماما لقامعيهم، الذين هم البريطانيون. وبالنسبة للوظيفـــة التـــي أمارسها فقد كرهتها كرها مريرا يفوق قدرتي على إيـــضاحه. ففي وظيفة من هذا النوع ترى عمل الإمبراطورية القذر عـــن

كثب. السجناءَ البائسين يتكومون في أقفاص الزنازين العفنة، الوجوه المرتاعة الشاحبة للمحكومين بمدد طويلة، أكفال الرجال المليئة بالندوب بفعل ضربهم بعصي البامبو. كل هذا أوقعني تحت وطأة إحساس بذنب لا يغتفر. ولكن ما من بديل أفضل. فأنا شاب ضعيف التعليم وعليَّ التفكير في مشاكلي في كتمان تام فرض على كل إنغليزي في الشرق. لم أكن على علم بأن الإمبراطورية البريطانية تحتضر، ناهيك عن علمي بأنها أفضل بكثير من تلك الإمبراطوريات اليافعة التي ستخلفها. كل ما كنت أعلمه هو أنني محشور بين بغضي للإمبراطورية التي أخدمها وغضبي من الوحوش الصغيرة الشريرة الطوية التي تحاول جعل عملي مستحيلا. فبجزء من عقلي كنت أنظر إلى الحكم البريطاني كطغيان لا يقهر، كشيء راسخ، باق إلى أبد الآبدين، رغما عن إرادة الشعوب المقهورة، وبجزء آخر كنت أعتقد أن أعظم متعة في الدنيا هي تلك الناتجة عن إنفاذ حربة بندقية في أحشاء راهب بوذي. مثل هذه المشاعر هي نواتج إضافية طبيعية للإمبريالية. اسأل[عن ذلك][1] أي مسؤول إنغليزي في الهند، إذا ما تمكنت من الانفراد به خارج أوقات العمل.

---

(1) كل ما بين الأقواس المربعة [ ] إضافة من المترجم لزيادة إيضاح المعنى.

وذات يوم حدث ما أدى، بطريقة غير مباشرة، إلى حالة استنارة. لقد كان حدثا تافها في حد ذاته، ولكنه مكنني، أكثر من أي وقت مضى، من إلقاء نظرة نافذة على الطبيعة الحقيقية للإمبريالية ، على الدوافع الحقيقية التي تتصرف على أساسها الحكومات المستبدة. ففي الصباح الباكر من أحد الأيام خاطبني هاتفيا نائب المفتش في مركز شرطة في الطرف الآخر من البلدة قائلا إن فيلا يعيث في السوق. فهل أتفضل بالمجيء وأقوم بتصرف ما بالخصوص؟ لم أكن أعرف ما الذي أستطيع فعله، ولكنني رغبت في مشاهدة ما يجري، فامتطيت حصانا وانطلقت. أخذت بندقيتي القديمة من طراز ونشستر44.، التي كانت صغيرة جدا بالنسبة إلى مهمة قتل فيل، لكنني خمنت بأن الضجة قد تكون مفيدة كعنصر إخافة. في الطريق استوقفني العديد من البورميين ليخبروني بأفعال الفيل. لم يكن، بطبيعة الحال، فيلا بريا، بل كان فيلا مروضا يمر بحالة " هيجان ". كان قد ربط بالسلاسل، مثلما هو متبع مع الأفيال المروضة عندما تحين فترة " هياجها "، ولكنه حطم البارحة سلاسله وفر. كان سائسه، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه التعامل معه عندما يكون في هذه الحالة، قد خرج في طلبه، ولكنه اتبع الطريق الخاطيء، وهو الآن على مسيرة اثنتي عشرة ساعة، وعند

الصباح عاود الفيل الظهور في البلدة فجأة. لم يكن السكان البورميون يمتلكون سلاحا وكانوا عاجزين تماما في مواجهته. لقد حطم للتو كوخ بامبو تابعا لأحد الأشخاص، قتل بقرة وهاجم مصطبة فاكهة والتهم كل المعروض منها، كما اعترض أيضا شاحنة صغيرة لنقل القمامة تابعة للبلدية فقام بقلبها، بعد أن قفز سائقها منها موليا الأدبار، وأحدث بها أضرارا.

كان نائب المفتش البورمي وبعض أفراد الشرطة الهنود ينتظرونني في الحي الذي شوهد فيه الفيل. كان حيا بالغ البؤس، متاهة من أكواخ البامبو الرثة المسقوفة بجريد النخل تغطي سفح التلة. أذكر أنه كان صباحا مكفهرا غائما أمطاره في بدايات الهطول. ابتدأنا بسؤال الناس حول الاتجاه الذي ذهب فيه الفيل وكالعادة، فشلنا في الحصول على أية معلومات محددة. تلك هي العادة دائما في الشرق: عن بعد تبدو الحادثة واضحة بما فيه الكفاية، ولكنها تأخذ في الغموض تدريجيا، كلما اقتربت من مسرح وقوعها. حدد البعض اتجاها معينا لذهاب الفيل، وأشار البعض إلى اتجاه آخر، في حين أعلن البعض بأنهم لم يسمعوا بوجود أي فيل. كنت على وشك الاعتقاد بأن الحكاية كلها مجرد حزمة من الأكاذيب حين تناهت إلى أسماعنا صرخات من مسافة قريبة. كان ثمة صرخة طليقة عالية

" ابتعد، أيها الطفل!. ابتعد حالا!." وجاءت امرأة عجوز إلى زاوية الكوخ حاملة بيدها سوطا تهش به في عنف حشدا من الأطفال العراة. تبعها مزيد من النساء يطرقعن بألسنتهن مستعجبات. يبدو أنه كان ثمة شيء ما لم يكن ينبغي للأطفال رؤيته. التففت حول الكوخ فرأيت جسد رجل ميت مطروحا في الوحل. كان كادحا بائسا [1] هنديا، درافيديا [2] أسود شبه عار، ويبدو أنه لم يمض على موته سوى بضع دقائق. قال الأهالي إن الفيل فاجأه بجانب الكوخ فأمسكه بخرطومه، وضع خفه على ظهره ثم داسه. كانت الفترة موسم أمطار وكانت الأرض رخوة فحفر وجهه فيها أخدودا بعمق قدم وطول أكثر من مترين. كان منكفئا على بطنه وذراعاه متصالبتان مع جسده ووجهه يميل إلى أحد جانبيه ميلانا حادا ومغطى بالوحل، عيناه مفتوحتان على سعتهما، الأسنان مكشوفة ومطبقة على بعضها معطية تعبيرا عن كرب لا يطاق. (بالمناسبة، لا تقل لي إن الموتى يبدون

---

(1) تحمل الكلمة المستخدمة في الأصل وهي: coolie مدلولا تحقيريا ويبدو أنها مأخوذة من اسم قبيلة هندية. ومعناها حسب قاموس (Webster's Ninth New Colligiate Dictionary) "عامل غير ماهر أو حمال عادة في أو من الشرق الأقصى يستأجر مقابل أجر منخفض أو مجرد ما يقيم الأود." لذا اخترنا ترجمتها على هذا النحو.

(2) نسبة إلى مجموعة بشرية هندية كبيرة العدد.

وادعين. فمعظم الجثث التي شاهدتها كانـــت تبـــدو شـــريرة).
احتكاك خف الحيوان الهائل [بجسد الرجل] سلخ جلدة ظهـــره بدقة تشابه تلك التي يسلخ بها المرء فرو أرنب. فـــور رؤيتـــي الرجل الميت أرسلت مبعوثا إلى منزل صديق قريب ليـــستعير منه بندقية يمكن بها قتل فيل. كنت قد أعدت الحصان خشية أن يجمح بي خوفا ويطوحني حين يشتم رائحة الفيل.

بعد بضع دقائق عاد المبعوث بالبندقية وخمس خراطيش، وفي نفس الوقت وصل بعض البورميين فأخبرونا أن الفيل فـــي أحد حقول الأرز تحت التل، على بعد بضع مئات من الأمتـــار فقط. وبمجرد أن شرعت في التقدم خرج سكان الحي، عن بكرة أبيهم، بالمعنى الحرفي للجملة، من أكـــواخهم وتبعـــوني. رأوا البندقية فأخذوا يصيحون جميعا في حماسة بأنني سأقتل الفيل. لم يبدوا اهتماما كبيرا بالفيل وهو يهدم بيوتهم، ولكن الأمر اختلف الآن وهو على وشك أن يُقتل. كان ذلك مسليا لهم إلى حد مـــا، مثلما يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إلى حشد من الإنغليز، إلـــى جانب أنهم كانوا يرغبون في الحصول على اللحم. جعلني ذلك أشعر بقلق غامض. فلم يكن في نيتي قتل الفيل- أرســـلت فـــي طلب البندقية للدفاع عن نفسي إذا اقتضى الأمر- ودائما يعتريك اضطراب حين تكون متبوعا من قبل حشد. سرت نازلا التلـــة،

أبدو كمغفل، وأشعر أنني كذلك فعلا، والبندقية معلقة بكتفي وجيش متنام من الأهالي يجرجر أقدامه في أعقابي. عند قدم التلة، حين تبتعد عن الأكواخ، توجد طريق ذات سياج معدني وخلفها فضلات خاثرة [انسابت] من حقول الأرز المترامية على آلاف الأمتار، مازالت لم تحرث ولكنها مخضلة بفعل أمطار بداية الموسم ومرقطة بمساحات من الأعشاب الخشنة. كان الفيل يقف على بعد ثمانية أمتار من الطريق، جانبه الأيسر في مواجهتنا، وغير منتبه لاقتراب الحشد. كان ينتزع حزما من العشب ويضربها على ركبتيه لتنظيفها ثم يحشرها في فمه.

توقفت على الطريق. بمجرد أن رأيت الفيل أدركت، تمام الإدراك، بأنه ينبغي ألا أقتله. إنه لأمر خطير أن تقتل فيلا شغيلا[1] – هذا يماثل تحطيم آلة ثمينة هائلة الحجم– ومن الجلي أنه على المرء عدم القيام بهذا الفعل إذا كان تجنبه ممكنا. لم يكن الفيل، وهو يأكل في دعة، يبدو، على هذه المسافة، أكثر خطورة من بقرة. اعتقدت، آنذاك، ومازلت أعتقد الآن، أن نوبة " هياجه " كانت آخذة في الخمود، وهكذا فسيأخذ في التجوال دون أن يسبب أذى، إلى أن يعود السائس ويمسكه. أكثر من ذلك، لا رغبة لي

(1) معروف أن الأفيال تؤدي، بمعنى ما، وظيفة الشاحنات والجرارات والرافعات.

على الإطلاق في أن أقتله. لذا قررت أن أراقبه قليلا للتأكد من أنه لن يعود إلى حالة التوحش، ثم أذهب إلى البيت.

ولكنني في تلك اللحظة ألقيت نظرة على الحشد الذي تبعني. لقد كان حشدا هائلا، ألفان على الأقل، ويتنامى مع كل لحظة. وقد سد الطريق لمسافة طويلة. نظرت إلى بحر الوجوه الصفراء فوق ملابس مزخرفة على نحو أخرق- الوجوه المبتهجة بهذه الواقعة المسلية والمتحمسة لها، الواثقة كلها من أن الفيل سيقتل. كانوا يتطلعون إليَّ مثلما يمكن أن يتطلعوا إلى ساحر على وشك القيام بخدعة. لم يكونوا يحبونني، ولكنني كنت في تلك اللحظة، بسبب حيازتي بندقية، جديرا بأن يُتطلع إلي. وفجأة أدركت أنه علي، في جميع الأحوال، أن أقتل الفيل. فالأهالي يتوقعون مني ذلك، وعلي أن أفعله. كان بإمكاني الشعور بألفي إرادة تدفعني قدما، على نحو لا تمكن مقاومته. وحدث في تلك اللحظة، وأنا أقف والبندقية بين يدي، أن أبصرت الخواء لأول مرة ، لامعقولية سيطرة الرجل الأبيض في الشرق. أنا هنا، رجل أبيض حاملا سلاحه، يقف في مقدمة حشد من السكان المحليين العزل- ظاهريا الممثل الرئيسي في المسرحية، ولكن واقعيا كنت مجرد دمية مضحكة تدفع أماما وخلفا وفق إرادة هذه الوجوه الصفراء من خلفي. أدركت في هذه اللحظة أن الرجل الأبيض

حين يتحول إلى مستبد فإنه لا يدمر سوى حريته هو نفسه. إنه يصبح دمية عرض كبيرة جوفاء، يتحول إلى صورة تقليدية [محلية] للصاحب [1]. لأن من مهام حكمه إنفاق حياته في محاولة إبهار " السكان المحليين " وبذا يكون عليه في أية أزمة أن يفعل ما يتوقعه منه " السكان الأصليون ". إنه يرتدي قناعا، ووجهه ينمو ليلائم هذا القناع. علي أن أقتل الفيل. لقد ألزمت نفسي بفعل ذلك حين أرسلت في طلب البندقية. على الصاحب التصرف كصاحب، عليه أن يبدو حازما، أن يعرف ما يريد ويقوم بأشياء محددة. أن أقطع كل هذه الطريق، والبندقية في يدي، مع ألفي شخص يسيرون في إثري، ثم أجر قدمي مبتعدا في وهن، دون أن أفعل شيئا ـ كلا، ذلك كان مستحيلا. سيهزأ الحشد بي. وحياتي بكاملها، حياة كل رجل أبيض في الشرق، كانت نضالا مديدا لتجنب التعرض للهزء.

لكنني لم أكن أرغب في أن أقتل الفيل. تابعته وهو يضرب حزمة العشب على ركبتيه، بعناية الجدات التي تملكها الأفيال. بدا لي أن قتله فعل إجرامي. لم أكن في تلك السن شديد الحساسية

(1) صيغة احترام بمعنى" سيد" يخاطب بها الهنود الأ شخاص الأوروبيين ذوي المكانة الاجتماعية أو المناصب الرسمية.

إزاء قتل الحيوانات، ولكن لم يسبق لي أن قتلت فيلا ولا رغبت في ذلك. (على نحو ما يبدو قتل الحيوانات الضخمة أسوأ). إضافة إلى أنه ينبغي أخذ مالك الحيوان في الاعتبار. فالفيل حيا يساوي مئة جنيه على الأقل، أما وهو ميت فلن يساوي أكثر من قيمة نابيه، خمسة جنيهات، على الأرجح. إلا أنه عليَّ التصرف بسرعة. استدرت ناحية بعض البورميين ممن كانوا هناك عند وصولنا وبدوا لي أصحاب خبرة، وسألتهم كيف كان الفيل يتصرف. جميعهم قالوا نفس الشيء: لن يكترث بك إذا ما تركته وشأنه، ولكنه قد يهاجمك إذا ما اقتربت منه. كان ما يتوجب عليَّ فعله في تمام الجلاء بالنسبة لي. عليَّ التقدم من الفيل إلى مسافة، لنقل، خمسة وعشرين مترا، وأختبر سلوكه. فإذا ما هاجمني أطلق عليه النار، وإذا لم يعرني انتباها فسيكون من الأمن تركه إلى حين عودة السائس. ولكنني كنت أدرك أيضا أنني لن أقوم بهذا. فأنا رام سيء بالبندقية وكانت الأرض وحلا رخوا يثوخ المرء فيه مع كل خطوة. وإذن، إذا ما هاجمني الفيل وأخطأته فستكون فرصتي [للنجاة] كفرصة ضفدعة [واقعة] تحت مدحلة بخارية. ولكنني لم أكن، حتى في تلك اللحظة، أفكر في جلدتي أنا نفسي، وإنما في الوجوه الشاخصة من خلفي. لأنني لم أكن في تلك اللحظة، وذلك الحشد يراقبني، خائفا بالمعنى المعتاد

للكلمة، مثلما يمكن أن أكون لو كنت وحدي. ينبغي على الرجل الأبيض ألا يظهر أمام" السكان الأصليين" بمظهر الخائف، وهكذا فهو، عموما، لا يخاف. الفكرة الوحيدة التي كانت في ذهني هي أنه إذا ما حدث خطأ ما فإن هؤلاء الألفي بورمي سيشاهدونني وأنا أُطارد، أُمسك، أُداس وأُقلص إلى جثة مكشرة كذلك الهندي أعلى التلة. وإذا ما حدث ذلك فإنه من المحتمل جدا أن البعض منهم سيضحكون. ذلك لن يكون.

ثمة بديل واحد فقط. أدخلت الخرطوشة في مخزن البندقية وانبطحت على الطريق كي أتمكن من الاستهداف بشكل أفضل. سكن الحشد سكونا تاما وندت عن الحلوق الهائلة العدد آهة سعادة خفيضة وعميقة كتلك التي تند عن جمهور يرى، بعد طول انتظار، ستارة المسرح وهي ترتفع. سيشاهدون، في نهاية المطاف، نصيبهم من التسلية. كانت البندقية بندقية ألمانية جميلة بشعرة استهداف متعامدة. لم أكن أعلم حينها أنه لإطلاق النار على فيل على المرء استهداف قطع خط وهمي يصل بين فتحتي الأذنين. علي، بناء عليه، طالما أن الفيل يولينا أحد جانبيه، استهداف فتحة الأذن مباشرة، إلا أنني، عمليا، استهدفت [نقطة تقع] أمامها بعدة إنشات، لاعتقادي بوقوع الدماغ هناك.

لم أسمع، حين جذبت الزناد، الدوي أو أشعر بالارتطامة-

لا يحصل ذلك حين تستقر الطلقة في هدفها- وإنما سمعت صخب التهليل المستعر الصادر عن الحشد. في تلك اللحظة، في برهة وجيزة، يشعر المرء، وحتى قبل أن تبلغ الطلقة محلها، بأن تغيرا رهيبا غامضا قد طرأ على الفيل. لم يستثر ولم يسقط، وإنما تغير كل عصب في جسده. بدا أنه قد صعق فجأة، تقلص، شاخ إلى حد كبير، كما لو أن التأثير المخيف للرصاصة قد شله دون أن يوقعه. في نهاية المطاف، بعد ما بدا أنه وقت مديد - قد يكون خمس ثوان، أجرؤ على القول - تراخى باركا على ركبتيه واللعاب يسيل من فمه. كان يبدو كما لو أنه قد داهمته شيخوخة بالغة. يمكن للمرء تخيل أنه قد بلغ من العمر آلاف السنين. أطلقت النار مجددا على نفس النقطة. عند الطلقة الثانية لم يسقط بل تحامل على قدميه في بطء يائس ووقف متشامخا في عناء، برجلين منهكتين ورأس مطأطئة. أطلقت النار للمرة الثالثة. كانت تلك هي الطلقة التي قضت عليه. كان يمكن رؤية وجعها يُرعش كامل جسده، وأنها تزيح آخر بقايا القوة من رجليه. ولكنه بدا للحظة، وهو يسقط، كما لو أنه ينهض، لأنه عندما كانت خلفيتاه تنهاران وراءه بدا كما لو أنه يتعالى كجلمود هائل يسقط من علٍ، وخرطومه يتجه إلى السماء كالشجرة. صرخ، للمرة الأولى والوحيدة. ثم هوى، وبطنه باتجاهي، محدثا صدمة بدا أنها هزت

الأرض حتى في المكان الذي كنت أنبطح فيه.

نهضت. كان البورميون قد بدأوا في التسابق حولي عبر الوحل. كان واضحا أن الفيل لن ينهض ثانية أبدا، ولكنه لم يكن قد مات. كان يتنفس في انتظام بالغ بلهثات طويلة مخرخرة، وأعلى جانبه يرتفع وينخفض على نحو مؤلم. فمه مفتوح على سعته – يمكنني النظر إلى عمق بعيد في كهوف حلقه ذي اللون الوردي الفاتح. انتظرته وقتا طويلا كي يموت، إلا أن تنفسه لم يضعف. وفي النهاية أطلقت طلقتي الباقيتين على النقطة التي اعتقدت أن قلبه يقع بها. انبجس الدم الخاثر منه كالحرير الأحمر، ولكنه، رغم ذلك، لم يمت، ولا اهتز جسده عندما اخترقته الرصاصتان، وتواصلت دون انقطاع أنفاسه المعناة. كان يحتضر، ببطء شديد وكرب عظيم، ولكن في دنيا نائية عني حيث حتى رصاصة أخرى لا يمكنها أن تسبب له مزيدا من الأذى. شعرت أنه عليَّ وضع نهاية لذلك الصخب البغيض. بدا لي أمرا بغيضا رؤية الحيوان العظيم" يستلقي" هناك، عاجزا عن الحركة وعاجزا عن الموت، وليس بإمكاني حتى أن أجهز عليه. بعثت في طلب بندقيتي الصغيرة وأرسلت عليه وابلا من الطلقات الواحدة تلو الأخرى في قلبه وحلقه. لم يبد أنها أحدثت أثرا. تواصل اللهاث المعنى منتظما كدقات الساعة.

أخيرا لم أعد أحتمل الموقف فغادرت. سمعت فيما بعد أنه استغرق نصف ساعة ليموت. كان البورميون يحضرون الداهات [1] والسلال حتى قبل أن أغادر، وأعلمت بأنهم، بعيد الظهر تقريبا، كانوا قد جردوا جسده من اللحم حتى العظام.

بطبيعة الحال، جرت بعد ذلك نقاشات لا تنتهي حول قتل الفيل. كان المالك ثائرا، ولكنه كان مجرد هندي ولا يمكنه فعل شيء. علاوة على أنني قد قمت، من الناحية القانونية، بالعمل السليم القاضي بأن الفيل الهائج ينبغي أن يقتل، كما الكلب المسعور، إذا ما فشل مالكه في السيطرة عليه. كانت الآراء منقسمة بين الأوروبيين. الرجال الكبار قالوا بأنني كنت على صواب، أما الرجال الأصغر فقد قالوا إنه من العار قتل فيل لقتله كادحا بائسا، لأن الفيل أثمن من أي كادح بائس كورنغهي[2] لعين. فيما بعد سررت كثيرا لأن الكادح البائس قد قتل، لأنه وضعني في موضع سليم قانونيا وأعطاني مبررا كافيا لقتل الفيل. وكنت عادة ما أتساءل عما إذا كان أي أحد قد انتبه إلى أنني قد فعلت ذلك، فقط، لتجنب أن أبدو أخرق.

* * * *

---

(1) dahs سكاكين كبيرة.

(2) يبدو أنها نسبة إلى مكان أو مجموعة بشرية.

لقاءات المحطة

جورج هارار (*)

طوال أكثر من سنة، تبادل وولتر ماسون والمرأة وحيدة الأذن الإيماء برأسيهما عند الساعة 5:22، أو حواليها، عند العصر، حين دخول قطار وسترن لوكال محطة لنكلن. عندما يكون هو نازلا درجات السلم المعدني، ممسكا حقيبته، تكون هي واقفة في نهاية الصف القصير المنتظم من الركاب المنتظرين دورهم في الركوب قرب المنصة الخشبية. قد تضع صحيفة فوق رأسها، إذا ما كان هناك مطر، أو ثلج، خفيف. أحيانا ترفع رأسها نحو السماء فاتحة فمها قليلا، كما لو أنها ظمأى. حين يكون المطر قويا، تمسك بمظلة صفراء صغيرة، بينما ينتظر الآخرون تحت ظُلل المتاجر القريبة. كانت دائما تحمل حقيبة مشتريات مكتظة، ولكن دون أن ينتأ من أعلاها شيء يشي بما هو داخلها.

(*) George Harrar كاتب قصة و روائي أمريكي. و العنوان الأصلي للقصة : " The 5 : 22 ".

كانت سمراء البشرة، لعلها من حوض البحـــر الأبـــيض المتوسط، أو شرق أوسطية. لكنها كانت تلـــبس مـــا يمكـــن أن ترتديه أية امرأة أمريكية: قميصا وتنورة، أو بنطلونا وكنـــزة. ودائما كانت تغطي رأسها بوشاح ملفوف بعناية كما لو حـــول، فيما بدا لوولتر، باقة زهر أو كائن حي.

كان الوشاح يغطي، بالطبع، الأذن اليمنى المفقودة، مثلما افترض وولتر أن يكون القصد منه. لم يكن ليعلم بوجود التشوه لو لم تزح نفثة الريح تلك، التي هبت عصر أحد الأيام، الوشاح من على رأسها. أسقطت حقيبة يدها وحقيبة المشتريات لتتدارك الوشاح الحريري الناعم وتربطه تحت ذقنها. ثم رفعت رأســـها ورأت حملقته الفظة. كان أمرا سيئا ذلك الذي بدر عنـــه، أدرك هذا، فحول بصره. ما الذي شده إلى التحديق بها في تلك الثواني التي رفرف فيها الوشاح القرمزي في الهواء كاشفا عن نـــدوب جراح ثخينة مكان أذن لم تعد موجودة؟ عندما لم تظهر المـــرأة على الرصيف الاثنين التالي، لم يفكر وولتر في الأمر كثيـــرا. فلقد تغيبت أياما أخرى خلال السنة الماضية، يتذكر يومين بشكل مؤكد. لكنهما حدثا أثناء العواصف الثلجية، خطر له ذلك وهـــو يعبر أرض موقف السيارات الوسخ المخدد، وليس في مثل هذه الأيام الربيعية الدافئة على نحوغير مسبوق. فتح باب ســـيارته

ليتيح لها امتصاص هواء هذا اليوم الدافيء. عندها عن له: ربما لم تظهر اليوم لأنه انتبه إلى أذنها المفقــودة. ســر وولتــر أن يستنتج أن هذه المرأة بالغة الحياء. لقد كان يتسم بالحيــاء هــو نفسه. فهو لم يتزوج رغم بلوغه السابعة والأربعين، الأمر الذي يدل، بحد ذاته، على فتور حس المبادرة لديه. لقد أسلم نفسه بكل طيب خاطر إلى لقاءات عشوائية رتبت له، بعد مجهودات وفيرة العدد، من قبل نساء متزوجات بالمؤسسة. لكنها ظلت لقــاءات المرة الواحدة أو، بالأحرى، لقاء وحيدا لشخصين يسعيان وراء شيء آخر، غير الذي وجداه.

عم كان يبحث؟ حيازة قدر من عذوبة المزاج كانت على رأس قائمته، ثم عقلية مرنة (ولكن ليست تلك غير القادرة على التمسك برأي قاطع) وربما إحساس بتفاهة النوع البشري فــي جملة الكون. القدرة على إضفاء النظام على العالم سيكون، هو أيضا، أمرا مفيدا في الزوجة. اضــطراره إلــى تــدوين هــذه المميزات لتكون عونا لزميلاته فــي العمــل الــساعيات إلــى تزويجه، تَكَشَّف عن أنه عديم النفع بالمرة. ذلك أنهن كن يردن منه أن يحدد رغباته بالنسبة إلى الطــول والــوزن، والمهنــة، والحالة الاجتماعية، والتزامات ما بعد الزواج الــسابق، مثــل الأطفال. استغرب عدم تفكيره في هذه الجوانب على الإطــلاق،

ولكن هذا ما حدث. لم يكترث بالقوام، المهنـــة، أو الالتزامـــات القانونية، وكان يعتقد أن المرأة، هي الأخرى، لن تكترث لعـــدم مطابقة مواصفات جسده لمواصفات الرشاقة، بالمعنى الرياضي، أونه كان يشتغل في مستوى لا يتفق وما يحوزه من شـــهادات، وأنه ظل أعزب، وعلى نحو يثير الـــشكوك، طـــوال ســـنوات نضجه. لم يحاول أن يداري بياض شعره أو يرتـــدي الملابـــس المفصلة لكبح جماح شهيته. لم يكن معتزا بوضعه، ولكنه كـــان مرتاحا معه. ولكن لو كانت لديه أذن واحدة فقط، تساءل، فمـــا الذي كان سيفعله بدون وشاح يخفي السر البشع؟

عندما لم تظهر المرأة يوم الثلاثاء، استنتج وولتر، ببعض اليقين، أنها قد أخذت أسبوع إجازة. كل يوم يصل فيه القطـــار على تمام الـــ: 5:22 ولا تكون هي هناك يزيـــد مـــن تـــدعيم استنتاجه. يوم الخميس هطل على المنطقة مطر بـــارد ، مثلمـــا تنزل الستائر الخيطية، فوجد وولتر نفسه يرثي لحـــال المـــرأة التي ربما يكون هذا الطقس القاسي قد عكرعطلتها. لعلها تحب القراءة، وإذن فستكون على قدر كاف من السعادة بمكوثها بـــين الجدران. عندما تصفح صحيفة نيو يورك تايمز ريفيـــو ذلـــك الأحد، تخيلها تقضي عطلتها في قراءة مجموعة مـــن الكتـــب، ربما كتاب حول الأطعمة الغريبة مثـــل" الطـــبخ البنغـــالي"، أو

مجموعة قصص قصيرة مدغدغة مثل" نساء في أَسِرَّتهن". تصورها وولتر، متمهلا، مكان المرأة التي على غلاف ذلك الكتاب، بشعرها المنسرح على المخدة، وأحد نهديها يبزغ من وراء الشرشف.

يوم الاثنين التالي، نهض وولتر، مدفوعا بتوقعاته، من على مقعده المعتاد، وأسرع عبر الممر، حتى قبل أن يبدأ القطار في كبح سرعته، رويدا رويدا، وهو يدخل محطة لنكلن. وصل الباب الثقيل المنزلق في اللحظة التي شرع فيها مل، المحصل، في فتحه من الجانب الآخر صائحا:" المحطة القادمة لنكلن. لنكلن المحطة القادمة."

حشر وولتر نفسه إلى جانبه ليتمكن من الرؤية، خارج المقطورة المفتوحة، بشكل أفضل." أين الحريق؟". تساءل مل.

" أوه، لا يوجد حريق، يا مل". أجاب وولتر مع هزة خفيفة من كتفيه. " إني فقط... أتوقع شخصا ما."

غمز له مل، فشعر وولتر ببعض الحرج. زحف القطار مجتازا علامة التقاطع على طريق كونكورد، فأطل وولتر من المقطورة متفحصا حشدا صغيرا ينتظر متأهبا للركوب. لم تكن من بينهم المرأة وحيدة الأذن.

" انتبه لنفسك "، قال مل بمجرد أن خطا وولتر باتجاه الرصيف، فأعادت إليه هذه الكلمات ثقته في أن هناك، دائما، من يهتم لسلامته. سار عبر موقف السيارات ببطء، مسترقا النظر من فوق كتفيه، ليتأكد من أن المرأة لم تأت راكضة، بعد أن تأخرت في أحد متاجر المحطة. بعد ذلك بدقائق قليلة ذهب القطارُ بدونها.

لماذا هو محبط إلى هذا الحد؟ ليس هو الانجذاب الجنسي، قرر وولتر، اللهم إلا إذا كان انجذابا شديد الخفاء لا يستطيع تبينه. إنه، بصراحة، لا يجدها جذابة على نحو متميز. ظن أنها في مرحلة أخرى من العمر كانت ستعتبر امرأة عادية. لكنه لا يحب العاديات، الوجوه المكتنزة، العيون الواسعة، الوجنات العريضة العظام. قد تعتبر من قبل رجل آخر، خمن، غامضة، و من ثم، مثيرة للاهتمام. لكن وولتر لا يحب الغموض. فالسؤال البسيط:" ماذا لو؟" يمكن أن يفضي إلى أماكن مزعجة كثيرة.

كان واضحا أنه غير منجذب إلى هذه المرأة جنسيا، وكان الدليل على ذلك دامغا: لم يكلمها أبدا. مؤكد لو أنه كان مدفوعا بوقود خفي من الرغبة لتدبر أمر القيام بخطوة صغيرة على

طريق التحامم: تحية مقتضبة، ابتسامة، وربما حتى " استمتعي بيومك ". لا، ليس تلك الجملة المهينة. من هو حتى يصدر لهذه المرأة الأوامر؟ " أتمنى لك يوما جميلا جدا " سيكون ذلك لائقا تماما. وإذن فهناك عدد لا يحصى من الكلمات التي يمكن أن يقولها المرء وهو عابر. قد لا تسمعها كلها. قد تسيء الفهم. من الأفضل عدم المخاطرة بمحاولة فتح محادثة في المحطة، ولكن، أسهل من ذلك، يمكن مواصلة الجلوس، ذات يوم، على مقعد القطار، في منتصف المقطورة تماما، مكانها المعتاد، حيث يتغير اتجاه صفوف الكراسي فتصبح متوجهة إلى الأمام بعد أن كانت متوجهة إلى الخلف. ستنسل إلى المقعد الواسع دون حتى أن تنتبه إلى وجوده هناك.

انتاب القلق وولتر عندما بدأ الأسبوع الثاني لغياب المرأة ينصرم. خاصية التركيز على العمل، التي كانت، عادة، من بين أوضح مناقبه، خذلته عدة مرات، إلى حد أن زميلا باحثا تجرأ ذات مرة فنخسه في كتفه متسائلا: " حلم يقظة، يا وولتر؟ ". " كلا "، رد في أدب،" كنت أفكر". لقد كان، بالتأكيد، يفكر في لماذا يختار شخص أن يأخذ إجازة في، من بين كل الشهور، نهاية مارس المعروفة بكونها فترة الأوحال في هذه الأنحاء. هناك، بالطبع احتمالات أخرى. قد تكون لجأت إلى بعض الجزر

ذات الطقس الأكثر دفئا. لعل المرأة وحيدة الأذن عـــادت إلـــى المكان الذي جاءت منه، أو أنها انتقلت إلى مكان ما جديد. قد لا تأخذ رحلة الـــ: 5:22 مرة أخرى أبدا.

بحلول يوم الخميس، قرر وولتر الاستفسار مبتدئا من مل. فهذا المحصل يعرف بعض الأشياء عن ركابه، لأنه كان مـــن عادته تبادل الأخبار، بتحفظ، جيئة وذهابا عبر القطار. فعلـــى سبيل المثال، جعل مل المرأة العازبة التي بالمقطورة تعـــرف، من خلال إيماءة من رأسه وبضع كلمـــات منتقـــاة بعنايـــة، أن جيمس، المستشار في شؤون الاستثمار، قد افتتح للتو مـــشروعا كبيرا وأنه أصبح متاحا. ومن ناحية أخرى، لم تعد كِلِي الـــشابة ذات العينين البنيتين الحزينتين وبشكل مؤكـــد " قـــادرة علـــى الإبصار، وربما لن تستطيعه أبدا " فقد فقدت مـــؤخرا عـــشيقها الذي عرفته منذ ثلاث سنوات وكذلك سيارتها الـــ هوندا سِفِك، وهما حادثان جعلاها تبكي لبضعة أيام ، الأمر الذي تطلب من مل أن يحمل معه محارم ورقية.

تناهى إلى سمع وولتر وصفه بنبرة تدل على التقدير بأنه " أستاذ...معهد مساسوشتس للتكنولوجيا لم يسبق له أن تزوج ". لم يكن ذلك دقيقا. لقد اشتغل باحثا رفيع الدرجة ليدير تجـــارب

حول تصور آلات جديدة، وهو أمر كان اختصاصيا فيه. وجد وولتر العمل مع عدد قليل من المهندسين الآخرين ومساعديهم أمرا مُرضيا. وأرضاه أكثر الاعتكاف كل مساء في شقته بالضاحية ليعمل، بغير إزعاج، على كتابه المخصص للتصاميم الغريبة. كان يشرف على إتمام مجموعته من" الأدوات المستحيلة"، من مثل إبريق شاي ذي مقبض ومصب على نفس الجهة. كان يحلو له تخيل أدوات لا يمكن لها أن تؤدي وظيفتها. غالبا ما كان يستمع إلى المذياع على الموجة القصيرة، وكان اضطراب الأصوات القادمة من بعيد يبدو له كما لو كان ناتجا عن أسرة مهاجرة كبيرة تعيش على الجهة الأخرى من الجدار. يتخيل أحيانا، عادة قبيل أحد لقاءاته المرتبة، وجود امرأة بشقته، زوجة. يتساءل: ما الذي تقوم به في هذه اللحظة، ما الذي ستقوم به هناك؟

عندما نظر وولتر من مقعده، والنقود في يديه، ليسأل مل عن المرأة المفقودة، صدم برؤيته محصلا آخر. " إلى أين؟ " سأل الرجل. لم يتحدث مل بهذه النبرة الصارمة مطلقا. كان دائما يسأل: " وأين هو اتجاهك؟ ". أو: " إلى أين يمكنني أن أوصلك اليوم؟ "

مد وولتر الثلاثة دولارات إلى إدوارد، كما تقول الشارة المعلقة على صدر الرجل، قائلا بجفاء : " لنكلن ".

" هذه للنكلن ".

" أين مل؟ ". سأل وولتر وهو يستطلع من فوق المقاعد. " يعمل في المقدمة؟ ".

" مل؟ لا أعرفه."

" لقد كان محصلا هنا لعدة سنوات ".

مد إدوارد التذكرة. " حسنا، هذا هو السبب إذن. أنا صرت محصلا اليوم فقط ".

" تقصد أنك حللت محل مل؟"

هز إدوارد رأسه. " ليس تماما. لا علم لي بأي شيء بخصوص مل. أعتقد أنه من زمن يسبق زمني."

زمنك؟ فكر وولتر. أنت عملت على هذا القطار يوما واحدا فقط. لم تمتلك " زمنا " بعد. تحرك إدوارد عبر القطار، وكان وولتر يسمعه يقول، بعد كل بضعة صفوف " إلى أين؟ ".

يوجد، إضافة إلى مل، آخرون يمكن سؤالهم عن المرأة

وحيدة الأذن. عدة أشخاص كانوا يقفون معها في المحطة بانتظام، منتظرين دورهم في الصعود. قد تكون تحدثت معهم.

قضى وولتر العشرين دقيقة إلى لنكلن يخطط لما ينبغي أن يقوله في ثوان قصيرة عندما يكون هو نازلا من القطار والآخرون صاعدين." من فضلك." قد يبدأ هكذا." أريد فقط أن أسأل هل اتفق أن علمت أي شيء عن المرأة وحيدة ...". لا يمكنه، بالتأكيد، الإشارة إلى الأذن."... المرأة التي ترتدي الأوشحة المزركشة والتي تأتي إلى هنا يوميا تقريبا؟ ". جرب وولتر سؤاله في سرعات ونبرات مختلفة، بينما كان القطار يدخل لنكلن مخففا سرعته. عندما تحرك عبر الممر باتجاه الباب لم يميز أحدا. سرعان ما تحرك قطار الوسترن لوكال.

لأن 28 مارس كان يوم الجمعة الحزينة، فلم تكن أمام وولتر فرصة لمواصلة تحقيقه إلا الاثنين التالي. في ذلك اليوم ركب، حسب المعتاد، من كامبردج، اتخذ مجلسه في نهاية المقطورة منتظرا قدوم المحصل. هذه المرة سيكون ملحاحا في السؤال عن مل. ثم سيتوقف في لنكلن عند متاجر المحطة ليسأل عن المرأة. من المؤكد أنها قامت بشراء بعض الأشياء هناك، صحيفة أو حلوى النعناع، وربما حتى دواء من الصيدلية. سيتم تذكرها.

وصل إدوارد مهمهما." إلى أين؟" سأل دون أن تتم نظرته عن أي شعور بسابق معرفة.

" لنكلن." قال وولتر بصوت محمل بنبرة: ينبغي أن تكون قد صرت تعرف ذلك بنفسك الآن. لقد عرف مل ذلك من اليوم التالي.

" لا توقف في لنكلن." [1] قال إدوارد.

أربكت الكلمات والنبرة وولتر. هل كان المحصل يقدم نصيحة بعدم التوقف في لنكلن أم معلومات جديدة ؟" ماذا تعني؟ " سأل وولتر." القطار الذي يغادر محطة كامبردج يتوقف دائما في لنكلن."

" لا علم لي بشأن دائما." قال إدوارد." أنا أعرف بشأن اليوم فقط. واليوم هذا القطار لا يتوقف في لنكلن. المهندس نفسه أخبرني. والآن إلى أي مكان آخر تريد أن تذهب؟"

" لا أريد أن أذهب إلى أي مكان آخر. أنا أعيش في لنكلن وأنا أنزل هناك منذ سنتين."

---

(1) في الأصل: Don't stop at Lincoln وهي، هكذا، يمكن أن يفهم منها النصح، أو الأمر، بعدم النزول هناك، أو إعلام بأن القطار لا يتوقف هناك.

" أدركت مشكلتك." قال إدوارد." لهذا السبب على النـــاس أن يسألوا دائما عندما يركبون عن أين سيتوقف القطار. ذلـــك يمنع حدوث متاعب عديدة من هذا النوع."

دخل القطار محطة ويفرلي، فأسرع إدوارد ليشرف على فتح الأبواب. حين عاد قال:" إلى أين؟"

هل هذه لعبة من نوع ما يلعبها هذا المحـصل الغريـــب؟ تساءل وولتر. لكن لا يبدو على إدوارد أنه قادر على المـضي في مزحة من هذا النوع. بل يبدو عليه أنه رجل مجبول علـــى الغباء، وعليه قال وولتر:" سأثبت لك أن هذا القطار يتوقف في لنكلن. دعني أرى الجدول."

بحث إدوارد في جيب صدر ســـترته، ثـــم عـــادت يـــده فارغة." آسف. ليس معي."

بلغ وولتر تلك النقطة التي اعتادت أمه أن تسميها" بقايـــا عقلها". لكن هو لم يبق من عقله ما يمكنه، على الأقـــل، مـــن التعامل مع إدوارد. وقف وولتر ليستنجد بالوجوه المألوفة فـــي القطار. كان ثمة عدد من الناس في هذه المقطورة أكثـــر ممـــا تعود أن يراه من قبل، ولكنه لم يتعرف على أحد منهم. ارتمـــى على كرسيه." دعني أنزل في المحطة القادمة. ما زالـــت هـــي

كونكورد، أليس كذلك؟"." طبعا ما زالت". قال إدوارد متناولا الثلاثة دولارات." عليك أن تزيد خمسين سنتا."

نزل وولتر من القطار في محطة كونكورد ووقف على الرصيف وحيدا. كانت سيارته في لنكلن، على مبعدة عدة أميال. لا توجد سيارة أجرة في مرمى النظر. هناك بعض السيارات العابرة ولكنه لم يتصور نفسه يؤشر بإبهامه مرتديا ربطة عنق وسترة. سيمشي. وبما أن أقصر الطرق بين المحطات هو، بدون شك، خط السكة الحديدية فسيسير بحذاء القضبان.

خالجه، حين شرع بالسير، شعور بالمغامرة. ضوء النهار المتخافت لم يضايقه. لم يسبق له أبدا أن خاف من الظلام. أخذ يبتعد مسرعا، سائرا بين القضيبين ومادا خطواته، بحيث تتنزل قدماه على العوارض الخشبية. بعد فترة قطع وتيرة سيره بالمشي فوق أحد القضيبين، وفوجيء بمدى قدرته على حفظ توازنه. كان يلتفت وراءه بين الفينة والأخرى، على الرغم من أنه كان متأكدا من أنه سيسمع قدوم القطار قبل فترة ملائمة من اضطراره إلى القفز جانبا. في مرحلة معينة برك وألصق أذنه على القضيب البارد ليستشعر الذبذبات التي يصنعها القطار عند اقترابه، لكنه لم يحس بشيء.

ذهبت المرأة، ذهب مل، ذهبت محطة لنكلن ما الذي سيختفي من حياته أيضا؟ نزل وولتر من السلم الطويل إلى الرصيف في محطة كامبردج يوم الثلاثاء. لعل القطار نفسه لن يأتي اليوم. ثم غدا ستزول المحطة ذاتها. ضحك لهذه الخيالات الطائشة. إنها خيالات ملائمة لقصة من الخيال العلمي المجنح، وليس لحياة فعلية لمهندس ميكانيكي.

وصل القطار في موعده. صعد إليه وولتر إثر بضعة ركاب غرباء. كانت المقطورة قد امتلأت بركاب الضواحي. جال وولتر ببصره في الممر ولمح مقعدا خاليا في منتصف المقطورة، حيث يتبدل وضع صفوف الكراسي فتصبح متجهة للخلف بدلا من اتجاهها إلى الأمام. تحرك القطار بمجرد أن لامس وولتر مقعده.

" إلى أين يمكنني أن أوصلك اليوم، يا صديقي؟"

قفز وولتر، بالمعنى الحرفي للكلمة، استجابة للصوت. استدار، فلمح مل في نهاية المقطورة يخرم التذاكر. ناداه وولتر، لكن المحصل كان منشغلا فلم يرفع رأسه. تنقل القطار من محطة إلى أخرى، وكان مل يشق طريقه مقتربا في بطء. عندما وصل إلى وولتر قال:" أهلا، أستاذ، كيف يسير الأمر مع كتابك؟"

" مل". قال وولتر متلعثما." أين كنت؟"

انحنى المحصل القديم على الكرسي لوهلة." مجرد دورة تدريب قصيرة على أمور السلامة، يعطونها لنـــا كــل بــضع سنوات. كما تعرف، يتحطم قطار فـــي الغــرب [1] فيزجــون بالجميع في قاعات دروس الطواريء. لماذا، ماذا كنت تعتقد؟"

" لا أعرف. فقط، لأنك غبت فجأة."

" هكذا تعمل مصلحة السكة الحديدية. لا يُعلمون أي أحــد بشكل مسبق". خرم مل التذكرة الخضراء." لنكلن، كما أعتقد."

" لنكلن؟". قال وولتر." لا. لقد قدمت من كونكورد هــذا الصباح. لم تعودوا تتوقفون في لنكلن. ألم يخبروك؟"

ضحك مل وسحب ورقة من جيب صدر سترته." هذا هو جدول الرحلات الجديد صدر اليوم". تتبعت سبابته الغليظة عمود التوقيت ثم توقفت عند الـــ5:22 " ها هي". قال." لنكلن."

" ولكن أمس القطار لم يتوقف هناك. جعلني إدوارد أمشي حتى كونكورد."

---

(1) المقصود الغرب الأمريكي.

هز مل رأسه كما لو أنه لم يؤخذ بالمفاجأة." يتحتم علينا إلغاء التوقف في لنكلن في الرحلة التي تسبق هذه، رحلة الـ :4:50 لتوفير بعض الوقت من أجل الوصول إلى سبرنغفيلد. لا بد أن المهندس الذي كان بالأمس قد اختلطت عليه المواقيت."

أرضى هذا الشرح وولتر. لقد أخطأ إدوارد." ليكن، عليَّ اليوم الذهاب إلى كونكورد، حيث توجد سيارتي."

" هل سبق لك أن لاحظت"، قال مل مادا التذكرة،" كيف أن الناس يعودون دائما إلى حيث جاؤوا؟ ألن يكون العالم أكثر جاذبية لو أن الناس ينتهون، أحيانا، نائين عن المكان الذي انطلقوا منه ؟"

نفض وولتر رأسه ليبعد هذا التفكير الأخرق. ولكن لماذا على كل يوم أن يكون دائرة مكتملة ؟ لماذا ليس بإمكان المرء سلوك طريق فرعي، يبتعد قليلا، ثم يعود، إذا احتاج الأمر؟

بمجرد اقتراب القطار من لنكلن نهض بضعة أشخاص، فاندهش وولتر كيف علموا أن القطار سيتوقف هنا اليوم ولم يعلم هو. تابعهم وهم يسيرون في موقف السيارات نحو سياراتهم. لما تحرك القطار أحس بشخص يجلس على حافة

المقعد الذي يجلس هو عليه. حين التفت مستطلعا رأى المـرأة وحيدة الأذن.

" آسفة على التطفل". قالت." ولكن القطار مزدحم اليوم."

" لا، هذا حسن. المكان متسع". قال ساحبا نفسه باتجاه النافذة كي لا تجفل المرأة. تنفس وولتر الرائحة المسكرة المنبعثة عن عطر رهيف. أحس بالمقعد اللدائني يتحرك من تحته منذ أن اتخذت المرأة مكانها فيه. قال:" جيد أن أراك ثانية."

أومأت برأسها مسرورة ووضعت حقيبة المشتريات الكبيرة على الأرضية بينهما. كان فم الحقيبة منفتحا وكان يمكنه أن يرى داخلها بدلة بيضاء ، من النوع الذي قد ترتديه الممرضات. ثم امتدت يدها الناحلة إلى عقدة تحت ذقنها وأخذت تحل وشاحا برتقاليا براقا. ما الذي ستفعله؟ أشاح وولتر ببصره بعيدا كي لا يحدق في الندوب. ولكنه رأى انعكاس الوشاح الحريري على نافذة القطار وهو يسقط من على رأسها. طوت الوشاح برقة ووضعته في حجرها.

التفت إليها. على الجانب الأيمن من رأسها كانت توجد أذن موردة صغيرة حسنة التكوين، لها استدارة ناعمة في أعلاها وشحمة رشيقة في أسفلها. بدت له الأذن فاتنة، كما لو أنها

خيطت هناك بأيد دقيقة.

دست بضع خصلات هائمة من شعرها الأسود القصير خلف الأذن. ابتسم لهذه الإيماءة، وتمنى لو أن لديه شيئا جديدا ورائعا يخصه، كي يعرضه عليها. ردت له الابتسامة." أليست هذه محطتك؟"

سره أنها عرفته. نظر خلال النافذة المعتمة إلى أضواء محطة لنكلن وهي تنسحب مسرعة.

" كلا". قال." اليوم أنا ذاهب أبعد."

* * * *

في أمـريكـــا

آماندا نغوزي آديتشيي (*)

أنت صدقت بأن كل شخص في أمريكـــا يمتلــك ســيارة ومسدسا. أعمامك وأخوالك وعماتك وخالاتك وأبناؤهم وبنـــاتهم صدقوا ذلك أيضا. قالوا لك، مباشرة بعد أن فـــزت بالتأشـــيرة الأمريكية عن طريق القرعة: " سيكون لـــديك، خــلال شـــهر، سيارة كبيرة. وسيكون لديك، حالا، منزل كبير. لكن إيـــاك أن تقتني مسدسا مثل أولئك الأمريكيين."

تجمعوا في مسكن بمدينة الأكواخ في لاغــوس واقفـــين بجانب جدران الزنك المثبتة بالمسامير، لأن الكراسي لم تكـــن كافية، للتوديع بأصوات عالية وليهمسوا لك بمـــا يريـــدونك أن ترسليه لهم. كانت الأشياء التي يطلبونهـــا، مقارنـــة بـــالمنزل والسيارة الكبيرين (وربما المسدس)، أشياء صغرى - حقائب يدوية وأحذية وكمية من الفيتامينات. أنت قلت: حاضر، لـــيس ثمة مشكلة.

(*) Amanda أو Chimamanda Ngozi Adichie قصاصة وروائية نيجيرية من مواليد 1977 مقيمة في أمريكا.

قال لك عمك الذي في أمريكا بأنه يمكنك العيش لديه إلى أن تقفي على رجليك. أخذك من المطار واشترى لك سجقا كبيرا مع خردل أصفر أصابك بالغثيان. المدخل إلى أمريكا، قال ضاحكا. كان يعيش في مدينة بيضاء صغيرة في ميني، في منزل بني منذ ثلاثين سنة قرب بحيرة. أخبرك بأن الشركة التي يعمل لديها منحته بضعة آلاف إضافية وسلعا لأنهم كانوا تواقين إلى أن يظهروا بصورة مغايرة. وضعوا اسمه في كافة كتيبات الشركة، بما فيها تلك التي لا علاقة لها بالهندسة. ضحك وقال إن الوظيفة جيدة، تستحق العيش في مدينة بيضاء كلها حتى ولو اضطرت زوجته إلى أن تقود سيارتها لمدة ساعة بحثا عن مزين يتعامل مع شعر السوداوات . النباهة أن يفهم المرء أمريكا، أن يعرف أن أمريكا هات وخذ. تتخلين عن الكثير ولكنك تنالين الكثير أيضا.

دللك على كيفية التقدم بطلب إلى وظيفة صرافة في محطة للغاز في الشارع الرئيسي، كما أنه سجلك في المعهد الأهلي [1] بالمنطقة حيث وجدت البنات مستغربات من شعرك. هل ينتصب

(1) community college معهد (أو كلية) تكون الدراسة فيه لمدة سنتين، ولا يوجد به قسم داخلي، كما يكون عادة مدعوما من الحكومة.

أم ينسدل عندما تحلين الضفائر؟ ينتصب كله؟ كيف؟ لماذا؟ هل تستعملين مشطا؟

ابتسمت في إحراج وهن يسألن هذه الأسئلة. قال لك عمك بأنه عليك أن تتوقعي ذلك؛ ما كان يصفه بأنه خليط من الجهل والعجرفة. وأخبرك بما قاله الجيران بعد بضعة أشهر من حلوله بمنزله من أن السناجب قد صارت تختفي. ذلك لأنهم قد سمعوا بأن الأفارقة يأكلون كافة أنواع الحيوانات البرية.

ضحكت مع عمك وأحسستِ، وأنت في منزله، كأنك في مسكنك، أخذت زوجته تناديك " نونّي " - أختي- وصار طفلاه اللذان في سن المدرسة يناديانك عمتي. كانوا يتكلمون الإغبو ويأكلون الغاري في الغداء كما يحدث في الوطن. إلى أن أتى عمك إلى السرداب المكتظ حيث تنامين مع الصناديق القديمة والعجلات والكتب وجذب، متأوها، نهديك كما لو كان ينتزع ثمرة مانغو من شجرة. لم يكن عمك فعلا، كان في الواقع أحد الأقارب غير المباشرين لزوج عمتك، لا يمت إليك بصلة الدم.

وبينما كنت أنت تحزمين حقيبتك في تلك الليلة كان هو يجلس على سريرك - فالمنزل منزله على أية حال - ثم ضحك وقال بأنه ليس لك مكان تذهبين إليه. إذا سايرته سيؤدي

لك خدمات عديدة. النساء الحاذقات يفعلن ذلك طوال الوقت. النساء الحاصلات على وظائف مرتفعة الأجر في لاغوس، كيف تظنين أنهن حصلن عليها؟ وحتى النساء في نيويورك؟

حبست نفسك في الحمام وفي الصباح التالي غادرت سائرة عبر طريق متعرج تشمين صغار السمك في البحيرة. رأيته يجتازك بسيارته دون أن يزمر. كان ينزلك دائما في الشارع الرئيسي. تساءلت عما سيقوله لزوجته عن سبب مغادرتك. وتذكرت ما كان قد قاله من أن الحياة في أمريكا هات وخذ.

وصلت إلى كونكتيكت، بلدة صغيرة أخرى، لأنها كانت المحطة الأخيرة لحافلة بونانزا التي ركبتها. حافلات بونانزا كانت أرخص الحافلات. عمدت إلى مطعم قريب وقلت بأنك مستعدة للعمل بما يقل دولارين عن أجر بقية النادلات. خوان، مالك المطعم، ذو الشعر الأسود مثل الحبر ابتسم كاشفا عن سن صفراء لامعة. قال بأنه لم يسبق له أن استخدم امرأة من نيجيريا إلا أن جميع المهاجرين يعملون بجدية. هو يعلم، لأنه كان هناك. دفع لك أجرا يقل دولارا، ولكن سرا. لم يكن يتقبل كل تلك الضرائب التي كانوا يجعلونه يدفعها.

لم تتمكني من تحمل نفقات الدراسة لأنك صرت تدفعين

إيجار حجرة ضيقة ذات بساط مبقــع. إضـــافة إلـــى أن بلـــدة كونكتيكت الصغيرة ليس بها معهد أهلي والتسجيل في الجامعــة الحكومية مكلف جدا. وعليه ذهبت إلى المكتبة العامة وبحثـت عن برامج تعليمية في مواقع على الإنترنـــت وقــرأت بعــض الكتب. كنت أحيانا تجلسين على الفــراش الملـــيء بـــالنتوءات بسريرك المزدوج مفكرة في الوطن. فـــي أبويـــك وأعمامـــك وأخوالك وعماتك وخالاتك وأبنائهم وبناتهم وأصـــدقائك. فـــي أولئك الناس الذين لم يجنوا أي ربح من بيـــع ثمـــار المـــانغو والأكرا التي يطوفون منادين عليها، الذين تتفكــك مـــساكنهم- المكونة من ألواح زنكية مشدودة بغير إحكام بمـــسامير- فـــي المواسم المطيرة. الناس الذين جاءوا ليودعوك، ليبتهجوا بربحك في قرعة التأشيرة الأمريكية، وليعترفوا بحسدهم. الناس الـــذين أرسلوا أبناءهم إلى المدارس الثانوية حيث يمـــنح المدرســـون درجة"أ" حين يدس لهم أحدهم مغلفا بنيا.

لم تحتاجي مطلقا إلى أن تدفعي من أجل الحصول علـــى " أ "، لم تدسي أبدا مغلفا بنيا لمدرس في مدرسة ثانوية. ومـــع ذلك فإنك تختارين مغلفات بنية مستطيلة لإرسال نصف دخلـــك الشهري لأبويك. النقود التي يدفعها لك خوان كانت أخف مـــن التقدمات. لم تكتبي رسالة. لم يكن هناك شيء تمكن الكتابة عنه.

في الأسابيع الأولى رغبت في الكتابة، لأنه كانت لديك حكايات تريدين حكايتها. أردت أن تكتبي عن الانفتاح غير المتوقع الذي يتحلى به الناس في أمريكا، كيف حدثوك بحرارة عن أمهم التي تقاوم السرطان، عن زوجة أخيهم التي أنجبت طفلا خديجا [1]، عن أشياء ينبغي أن يكتمها الناس، ألا يبوحوا بها إلا للأقارب الذين يتمنون لهم الخير. أردت أن تكتبي عن كميات الطعام الكثيرة التي يخلفها الناس في صحونهم ثم يرمون بضعة دولارات كما لو أنها قربان أو كفارة عما أهدر من طعام. أردت أن تكتبي عن الطفلة التي أخذت تصرخ شادة شعرها الأشقر وبدلا من أن يرغمها أبواها على السكوت ظلا يحاولان ترضيتها ثم نهضوا جميعا مغادرين.

أردت أن تكتبي بأنه ليس كل أحد في أمريكا يمتلك منزلا وسيارة كبيرين، وأنك ما زلت غير متأكدة فيما يتعلق بالمسدسات، ربما لأنهم كانوا يخفونها في حقائبهم وجيوبهم.

لم تكوني ترغبين في الكتابة لأبويك فقط. وإنما لأصدقائك وأعمامك وأخوالك وعماتك وخالاتك وأبنائهم وبناتهم. ولكن لم يكن بمستطاعك تحمل أعباء الحقائب والأحذية وكميات

---

(1) الوليد الذي يولد قبل الأوان وعادة ما يكون غير مكتمل النضج.

الفيتامينات وتظلين، مع ذلك، قادرة على تسديد الإيجار، لذا لم تكتبي إلى أحد.

لم يعلم أحد بمكان وجودك لأنك لم تخبري أحدا. تشعرين أحيانا بأنك صرت لامحسوسة فتحاولين النفاذ عبر جدار حجرتك باتجاه المدخل وحين تصدمين الجدار يترك على ذراعيك رضوضا. سألك خوان، مرة، عما إذا كان هناك رجل يضربك لأنه يعرف كيف سيتدبر معه الأمر، فضحكت ضحكة غامضة. في الليل يلتف شيء ما حول عنقك، شيء دائما يكاد يخنقك قبل أن تستيقظي.

* * * *

اعتقد البعض أنك من جامايكا لأنهم كانوا يعتقدون أن كل من يتحدث بلكنة لا بد وأن يكون جامايكيا. والبعض الذين خمنوا أنك أفريقية سألوك عما إذا كنت تعرفين فلانا وعلانا من كينيا أو فلانا وعلانا من زمبابوي، لأنهم يعتقدون أن أفريقيا ريف يعرف فيه كل شخص كل شخص آخر.

لذا عندما سألك، في عتمة المطعم بعد سردك لقائمة الطعام المتوفر، من أي بلد في أفريقيا أنت، قلت نيجيريا متوقعة منه أن يسألك ما إذا كنت تعرفين صديقا كان قد تعرف عليه في

فيالق السلام في السينيغال أو بوتسوانا. ولكنه سـألك عمـا إذا كنت من الــ يوروبا أو الــ إغبو، لأن ملامحك لا تدل على أنك من الــ فولاني. فوجئت ـ خمنت أنه لابد وأن يكون أستاذا في مادة الأنثروبولوجيا، في الواقع كان يبدو أصغر من أن يكـون كذلك، ولكن من يجزم؟ إغبو، قلت. سألك عن اسمك وقال لـك أن أكونًا اسم جميل. لم يسألك، لحسن الحظ، عن معنـاه لأنـك كنت تتضايقين مما يقوله الناس، ذخر الأب؟ تعنين، كما لـو أن أباك سيبيعك في النهاية لزوج؟

كان قد زار غانا وكينيا وتنزانيا وقـرأ عـن كـل البلـدان الأفريقية الأخرى، عن تواريخها وتعقيداتها. استحثثت في نفـسك الشعور بالتعالي، لتظهريه عندما تحـضرين لـه طلباتـه، لأن البيض الذين يحبون أفريقيا كثيرا والذين يحبونها قليلا صـنوان ـ منانون.

ولكنه لم يتصرف تصرف من يعرف الكثير، لـم يهـز رأسه بطريقة استعلائية مثلما كان قد فعل أسـتاذ فـي المعهـد الأهلي ذات مرة وهو يتحدث عن أنغولا، ولم يبد أي مَنٍّ. جاء في اليوم التالي وجلس في نفس المنضدة ولما سألته إن كان يريد دجاجا سألك سؤالا ما عن لاغوس. جاء في اليوم الثاني وتحدث

وقتا طويلا - مكررا سؤاله لك حول ما إذا كنت لا توافقينه الاعتقاد بأن موبوتو وعيدي أمين متماثلان - وكان عليك أن تخبريه بأن هذا يتعارض مع تقاليد المطعم. لامس يدك عندما وضعت القهوة على المنضدة. في اليوم الثالث قلت لخوان إنك لن تخدمي تلك المنضدة مطلقا.

وجدته، بعد انتهائك من عملك، ينتظرك في الخارج مستندا إلى أحد الأعمدة، وطلب منك أن تذهبي معه إلى مكان ما لأن إيقاع اسمك يتناغم مع هاكونا ماتاتا وأن قاعة الملك الأسد هي القاعة السينمائية الوحيدة التي يفضلها. لم تكوني تعرفين شيئا عن الملك الأسد. نظرت إليه في الضوء الساطع ولاحظت أن لعينيه لون زيت الزيتون الباكور الراقي، ذهبي مخضر. كان زيت الزيتون الباكور الراقي الشيء الوحيد الذي استمتعت، حقيقة استمتعت، به في أمريكا.

كان طالبا في السنة النهائية في الجامعة الحكومية. أخبرك بعمره فسألته لماذا لم يتخرج حتى الآن. هذه أمريكا، رغم كل شيء. ليس كما في الوطن حيث عادة ما تقفل الجامعات ويضطر الطلبة إلى إضافة ثلاث سنوات لمدة الدراسة المعتادة ويدخل المحاضرون في الإضراب تلو الإضراب ومع ذلك لا

يتقاضون أجورهم. قال بأنه بقي بضع سنوات بعد إكماله الدراسة الثانوية دون أن يدخل الجامعة من أجل أن يكتشف نفسه ويسافر، في الغالب إلى أفريقيا وآسيا. سألته أين وجد نفسه في النهاية، فضحك. أنت لم تضحكي. أنت لم تعرفي أن الناس يمكنهم أن يختاروا ببساطة عدم الذهاب إلى الدراسة، أن الناس يمكنهم أن يملوا على الحياة. لقد تعودت على تقبل ما تمنحه الحياة، كتابة ما الحياة تمليه.

قلت، في الأيام الثلاثة التالية، لا للذهاب معه، لأنك لا ترين ذلك لائقا، لأنك لست مرتاحة للطريقة التي ينظر بها في عينيك، للسهولة التي تضحكين بها لما يقوله. ثم، في الليلة الرابعة، غمرك الخوف عندما لم تجديه واقفا بالباب في نهاية دوامك. تضرعت، لأول مرة، لوقت طويل وعندما أتى خلفك وقال أهلا، قلت نعم، ستذهبين معه، حتى قبل أن يطلب منك ذلك. كنت خائفة من أنه لن يطلب منك ذلك ثانية.

في اليوم التالي ذهب بك إلى تشانغ ووجدت مع كعكة البخت قصاصتي ورق. كلتاهما كانت بيضاء.

عرفت أنك صرت ترتاحين له عندما أخبرته عن السبب الفعلي وراء طلبك من خوان أن تخدمي منضدة بديلة -

المخاطرة. عندما شهدت " المخاطرة " في تلفزيون المطعم تدرجت محاباتك على النحو التالي: النساء الملونات، النساء البيض، الرجال السود، ثم، في النهاية، الرجال البيض، وهو ما يعني أنك لا تحابين الرجال البيض مطلقا. ضحك وأخبرك بأنه تعود على عدم المحاباة لأن أمه تحاضر في الدراسات المتعلقة بالمرأة.

وعرفت أنك اقتربت منه عندما أخبرته بأن أباك لم يكن في الواقع مدرسا في مدرسة بلاغوس، بل كان سائق سيارة أجرة. وحكيت له عن ذلك اليوم في لاغوس في سيارة أبيك ، كانت تمطر وكان كرسيك مبتلا بسبب ثقب أحدثه صدأ بسقف السيارة. كانت حركة المرور كثيفة، حركة المرور في لاغوس دائما كثيفة ومع المطر تتحول إلى فوضى. ليس هناك نظام صرف مياه فعال على الطرقات، فتعلق بعض السيارات في الحفر الموحلة وكان بعض أقاربك يسترزقون من تخليص مثل هذه السيارات. المطر ووحل الطريق جعلا أباك، حسب اعتقادك، يضغط على الكابح متأخرا ذلك اليوم. سمعت صوت الصدمة قبل أن تشعري بها. كانت السيارة التي صدمها أبوك كبيرة، أجنبية وذات لون أخضر غامق ومصابيح صفراء كعيون القطط. شرع أبوك في التضرع والتوسل قبل أن يخرج من السيارة وينطرح على الطريق موقفا

حركة المرور. آسف يا سيدي، آسف يا سيدي، لو تبيعني وتبيع أسرتي فلن تتحصل حتى على ثمن إطار من إطارات سيارتك. ظل يصرخ. آسف يا سيدي.

لم ينزل الرجل الضخم الجالس في مؤخر السيارة. نزل سائقه مستطلعا الضرر ناظرا، من زاوية عينيه، إلى قامة أبيك الممددة كما لو أن التضرع كان أغنية يخجل من إظهار إعجابه بها. في النهاية ترك أباك يذهب في حال سبيله. صرفه. تعالت أبواق السيارات الأخرى مع لعنات السائقين. بعد أن عاد أبوك إلى السيارة لم تنظري ناحيته، لأنه كان تماما مثل الخنزير الذي خوض في المستنقعات التي بجانب السوق. بدا أبوك كالخنزير. اللعنة.

بعد أن أخبرته بهذا زم شفتيه وأمسك بيدك قائلا إنه يتفهم. حررت يدك متضايقة لأنه يظن أن العالم يمتلىء، أو يجب أن يكون ممتلئا، بالناس من أمثاله. قلت له بأنه ليس هناك ما ينبغي تفهمه، فالأمور هي كما هي عليه.

* * * *

لم يكن يأكل اللحم، لأنه يرى أن الطريقة التي يقتلون بها الحيوانات غير صحية. قال إنهم يجعلون السم المتولد عن الخوف ينبعث في أجسام الحيوانات وهذا السم يصيب البشر بالتوجس.

قطع اللحم التي كنت تأكلينها في الوطن، لما أن يكون ثمة لحم، كانت بنصف حجم إصبعك. لكنك لم تخبريه بذلك. لم تخبريه كذلك بأن مكعبات الداوادا التي تضعها أمك في كل ما تطبخه، لأن الزعتر والتوابل مكلفة جدا، تحتوي على الـ إم. إس. إدجي [1]، أنها إم. إس. إدجي. قال بأن الـ إم. إس. إدجي تسبب السرطان، ولهذا السبب هو يفضل محل تشانغ لأنهم لا يستخدمون هذه المادة.

قال للنادل، ذات مرة في تشانغ، بأنه سبق له وأن عاش سنة في شنغهاي وأنه يتكلم شيئا من الماندارين. ابتسم النادل وأخبره عن أفضل أنواع الحساء ثم سأله: " لديك صديقة في شنغهاي ؟ ". فابتسم ولم يقل شيئا.

قبل أن يعتذر، نظر إليك نظرة خالية من التعبير فعرفت أنه لم يفهم.

* * * *

اشترى لك هدايا وعندما اعترضت على سعرها المرتفع قال بأن له وديعة وأن ليس في الأمر مشكلة. حيرتك هداياه. كرة بحجم قبضة اليد تشاهدين فيها، عندما تهزينها، الثلج يتساقط

(1) MSG غلوتاميت أحادي الصوديم monosodium glutamate .

على بيت صغير، أو راقصة من البلاستيك تدور حول نفسها في مسرح صغير. حجر متألق. وشاح ثمين مصبوغ يدويا في المكسيك لا يمكنك ارتداؤه بسبب لونه. اضطررت إلى أن تقولي له بأن الهدايا في العالم الثالث هي دائما من النوع المفيد. الحجر، مثلا، يمكن أن يكون مفيدا إذا ما كان ممكنا طحن الأشياء به أو ارتداؤه. ضحك مطولا وبقوة ولكنك لم تضحكي. أدركت أنه في نمط حياته يمكنه شراء هدايا لمجرد كونها هدايا لا أكثر ولا أقل، لا يمكن أن تكون مفيدة. عندما أخذ يشتري لك أحذية وملابس وكتبا طلبت منه التوقف عن ذلك، لم تكوني ترغبين في هدايا من أي نوع.

لم تقاومي. ليس بجدية. جادلت ثم قررت وضاجعت وتخللت بيديك كل شعر الآخر، شعره أصفر وناعم مثل خيوط أكواز الذرة الناضجة المتأرجحة، شعرك أسود ونافر مثل الدبابيس. شعرت بين أحضانه بالسكينة، نفس السكينة التي كنت تشعرين بها في الوطن في المسكن المصنوع من الزنك في مدينة الأكواخ.

عندما تتخذ بشرته لون الدُلاَّع [1] الناضج بسبب كثرة

(1) الاسم الذي يطلق على البطيخ الأحمر في أكثر من قطر من المغرب العربي، وهو فصيح، وتم تبنيه هنا لأننا ارتأينا أنه أكثر تلاؤما مع السياق.

تعرضه للشمس تقبلين أماكن في ظهره قبل دهنه،بتمهل، بالسائل المرطب. كان ذلك أكثر حميمية من ممارسة الجنس. شعرت أنك ارتبطت به، ومع ذلك فثمة تجربة لا يمكن أن تنعكس عليكما بنفس الشكل. تزداد بشرتك دكنة في الشمس، ولكنك كنت على درجة من الدكنة لا تجعلها تلتهب.

عثر على عنوان سوق أفريقي في دليل " صفحات هارتمان الصفراء " فأخذك إلى هناك. سأله مالك السوق، الذي كان غانيا، ما إذا كان أفريقيا، مثل الكينيين البيض أو الجنوب أفريقيين فضحك قائلا نعم، ولكنه كان في أفريقيا منذ وقت طويل مضى وأنه اشتاق إلى الطعام الذي كان يتناوله في طفولته. طبخت له. أحب أرز الدجولف ولكن بعد أن تناول الغاري وحساء الأونغبو تقيأ في حمامك. لم تهتمي، لأنه صار يمكنك الآن طهي حساء الأونغبو مع اللحم.

الشيء الذي كان يلتف حول رقبتك، الذي دائما يكاد يخنقك قبل النوم، أصبح يتراخى، يطلقك.

* * * *

تبينت، من ردة فعل الناس، أنك تشكلين نشازا - من الطريقة التي يبدو بها السخفاء شديدي السخافة واللطفاء شديدي

اللطف. العجائز البيضاوات اللائي يحدقن به مغمغمات، الرجال السود الذين يهــزون، مــشيرين نحــوك، رؤوســهم، النــساء السوداوات اللائي ينعين عليك مشفقات افتقارك إلى عزة النفس، إهانتك لنفسك. أو النساء السوداوات اللائي يبتسمن ابتــسامات تضامن مستسرة خاطفة، الرجال السود الذين يبذلون جهدا شاقا في التسامح معك، وهم يحيونه تحية شديدة الوضــوح، النــساء البيض اللائي كن يقلن، بابتهاج شديد وبصوت عال، كما لو كن يثبتن لأنفسهن تسامحهن: " يا لهما من ثنائي رائع ".

تمنيت لو أن بشرتك كانت أفتح كي لا يحدقوا فيك علــى هذا النحو، لكنك لم تخبريه بذلك. فكرت في أختك في الوطن، في بشرتها التي في لون العسل، وتمنيت لو أنك كنت مثلها. تمنيــت ذلك ثانية ليلة قابلت أبويه لأول مرة. لكنك لم تخبريه لأنه سيبدو رزينا ويمسك يدك قائلا بأن لون بشرتك اللامع هو أول ما جذبه. لم تشائي أن يمسك يدك قائلا بأنه يتفهم، لأنه، مرة أخرى، لــيس ثمة ما يحتاج إلى التفهم، فالأشياء هي كما هي عليه.

تمنيت لو أن بشرتك كانت فاتحة إلى درجة يحسبون فيها أنك بورتوريكية، لو أن بشرتك فاتحة بدرجة تكفي لأن تبــدي، في ضوء المطعم الهندي الشحيح حيث كنتما تتناولان من قصعة

واحدة السامبوسا صحبة أبويه، مثلهم تقريبا.

قالت لك أمه بأنها معجبة بضفائرك وسألتك عما إذا كانت أصدافا حقيقية تلك التي تخترقها ضفائرك ومن من الكاتبات قرأت. أما أبوه فسألك إلى أي مدى يشبه الطعام الهندي الطعام النيجيري وحاول استفزازك بأن طلب منك الدفع عندما جاءت قسيمة الحساب. نظرت نحوهم شاعرة بالامتنان لأنهم لم يتفحصوك كما لو كانوا يتفحصون تذكار صيد، نابا عاجيا.

أخبرتك أمه بأنه لم يسبق له أن حضر مع فتاة لمقابلتهم، باستثناء زميلته التي كانت معه في حفلة التخرج من المدرسة الثانوية، فابتسم ابتسامة جامدة وأمسك يدك. أخفى مفرش المائدة يديكما المتشابكتين. شد على يدك فأجبته بالشد على يده وتساءلت لماذا هو بهذه الصرامة، لماذا تغيم عيناه اللتان لهما لون زيت الزيتون الباكور عندما يكلم أبويه. حدثك عن خلافاته مع أبويه لاحقا، كيف أنهما يقسطان الحب مثلما يفعلان مع كعكة عيد الميلاد، كيف أنهما سيمنحانه قطعة أكبر لو أنه التحق بكلية القانون. حاولت أن تتفهمي. ولكنك، بدلا من ذلك، غضبت.

ازداد غضبك حين أخبرك بأنه رفض الذهاب معهما إلى

كندا لمدة أسبوع أو أسبوعين في كوخهم الصيفي في ريف كيوبك. لقد طلبا منه إحضارك. أراك صورا للكوخ وتعجبت لماذا يسمى هذا كوخا؛ إذ إن المباني التي بهذا الحجم الموجودة بجوار المنطقة التي تقيمين بها في وطنك هي مباني مصارف وكنائس. أوقعت الكأس فتشظت على الأرضية الخشبية الصلبة وسألك ما الخطأ فلم تقولي شيئا، على الرغم من أنك كنت ترين أنه هناك أخطاء كثيرة. كلماتك كانت خطأ.

بعدها، وأنت تستحمين، انهمرت بالبكاء مستشعرة المياه وهي تطغى على دموعك ولم تعرفي لماذا كنت تبكين.

* * * *

أخيرا، تلاشى الشيء الذي حول عنقك تلاشيا شبه كامل، كتبت إلى الوطن. رسالة قصيرة إلى أبويك وأخوتك وأخواتك، مدسوسة بين بضعة أوراق نقدية، ووضعت عنوانك. في غضون بضعة أيام فقط، تلقيت الرد من خلال ساعي بريد. كتبت أمك الرسالة بنفسها، عرفت ذلك من خلال الخط العنكبوتي والأخطاء الإملائية.

توفي أبوك. كبا على عجلة القيادة بسيارة الأجرة. منذ خمسة أشهر، كتبت أمك. استفادوا ببعض ما أرسلته إليهم من

نقود في تجهيز جنازة لائقة لــه. ذبحوا للمعزين عنزة، ودفنوه في تابوت حقيقي وليس مجرد ألواح من الخشب.

انكمشت في السرير، ألصقت ركبتيك على صدرك بقــوة وبكيت. احتضنتك وأنت تبكين، مسد شــعرك عارضــا عليــك الذهاب معك إلى وطنك، نيجيريا. قلت لا، إنــك بحاجــة إلــى الذهاب وحدك. سألك عما إذا كنت ستعودين فذكرته بأنه لــديك بطاقة خضراء وأنها ستسقط إذا لم تعودي خلال سنة. قال بأنك تعرفين ما الذي يقصده، هل ستعودين، تعودين؟

أشحت بعيدا دون أن تقولي شيئا، وعندما أقلك إلى المطار احتضنته بقوة، تشبثت بعضلات ظهره إلى أن شعرت بألم فــي ضلوعك. وقلت شكرا.

* * * *

كـــلاب المجـــوس

ليون روكي (*)

بمجرد أن فرغت من لوحتي الجديدة " كوخ أبيض بأبواب خضراء " مد كلب خطمه عبر الباب، شملني بنظرة انطوت على قدر من الاهتمام ثم، ودون أن يضيع مزيدا من الوقت، ركــض عابرا ممر كوخ اللوحة، تثاءب، وجثم من فــوره لينـــام قـــرب الدرجات الأمامية. كنت مسرورا لأنني لم أجعــل للكــوخ بابـــا مفتوحا، وإلا لكان الكلب، على الأرجح، قد اجتازه إلـــى الــداخل مباشرة. يمكنك أن ترى، عبر النافذة، أريكة حمراء، إلى هنـــاك كان سيتجه الكلب. كنت أفكر في وضع امرأة جميلة عارية فوق الأريكة، لا تتكيء تلك الاتكاءة الرخية التي يمكـــن أن تتوقعهـــا، ولكنها تجلس مستقيمة في يأس مضمومة الركبتين بشعر محمـــر مهتاج، وجهها في مواجهتنا بحيث يكون ما تراه هو قناع الموت العصبيُ على الاستيعاب الذي ترتديه النساء وهن يستعرضن آخر الملابس الفاخرة التي أطلقها محل أزياء مـــشهور. ولكـــن ذلـــك

(*) ليون روكي Leon Rooke قصاص وروائي كندي له عدة روايات ومجموعات قصصية. ترجمت أعماله إلى أكثر من لغة.

يستدعي إعادة رسم النافذة بحيث يتم تحويلها إلى زجـاج قـديم بخدوش واعتوارات أخرى كي أحصل على التشويه المرغـوب لوجه المرأة العارية. ليس كل أحد يرسم نساء عاريات هذه الأيام. رسام أقل شأنا لن تخطر بباله الأريكة والمرأة العارية وسيـضع، فقط، صحن فواكه فوق منضدة غير واضحة المعالم خلف النافذة، كما هو شأن الممارسات الحالية لمدرسة (المربع).

* * * *

أزحت جانبا خليطا من العلـب المعدنيـة والرسـومات وجلست على الكرسي الوحيد في مرسمي. تصر المـوديلات، عندما يكون لدي موديلات، على الجلوس على كرسـي، وقـد حدثت لي مناوشات لا تحصى مع أولئك النساء اللاتي كن يرين أنه مما يحط من الكرامة أن يرحن عجائز هن العاريـة علـى أرضيتي المتسخة. هذه آخر مرة تراني فيها كانت الجملة التـي كثيرا ما سمعتها. وهكذا أذعنت وحملت كرسيا زريا كـان قـد ألقى به أحدهم إلى الشارع. ثبت بالمسامير على الأرجل لوحا للجلوس وبذلك برهن على أنه كرسي عملي جدا بحيث لا يمكن القول إن الموديلات كن أكثر رضى بوجوده. ابحث لك عن ربة بيت بدينة تجلس لك مجانا كان الجملة التي كثيرا ما سـمعتها.

هؤلاء الموديلات يعلمن تماما كما أعلم أن ربات البيوت في الجوار متنوعات البنى والأحجام وأن العديد منهن جميلات من جميع النواحي مثل هؤلاء المحترفات. وعلى الرغم من أنني كنت أتجنب هذه المجادلات إلا أن النساء يغضبن، يهدأن، يغوين، يقمن بآلاف ردات الفعل التي يمكن لك أن تتصور أنهن يقمن بها، ولكن وجوههن تكون دائما أنانية، وهو تعبير لا أرغب شخصيا في أن أراه على وجه امرأة جميلة تتكىء اتكاءة رخية فوق أريكة. أفضل من ذلك وجود صحن فواكه عادي، إذا تطلب الأمر.

* * * *

ترشفت شراب الصودا الذي فقد غازاته ناظرا إلى الكلب ومقلبا الأفكار أعلاه التي كانت كركام أهيل ليشكل كومة في دماغي: شيء ما يتدحرج من الكومة ويكون هو ما تفكر فيه. لدي عشيقة ترغب في أن أتخذها موديلا، عزيزتي آنجوو، ثلاث سنوات ونحن ننام معا، ولكني لم أسمح لها بأن تكون موديلا لي إلا مرات نادرة. رفضت أن تعري أي شيء فيما عدا ذراعيها ورجليها من الركبتين فنازلا. " لدي معتقدات تعود إلى ما قبل التاريخ حول بعض المسائل " كان واحدا من التبريرات المتعددة

التي توردها. كان ما ترغب في أن تجسده هــو هيئــة أميــرة نمساوية ترتدي فرو القاقم، وهذا ضروري، كانت تقول، إذا ما كان سيقيض لي أن أعلق بمتحف يوفيزي أو اللــوفر. كانــت آنجوو، بصراحة، تمثل لي لغزا.

* * * *

رغم أن الكلب كان نائما إلا أن أذنيه كانتا ترتفعان كلمــا أحدثت صوتا.

* * * *

ارتديت نعلي وصعدت إلى الطابق العلوي لأدخل الغرفة الواسعة التي كانت مرسمي قبل أن يقرر أبي أن يأتي للإقامــة معي. ألقى بي خارج الغرفة الواسعة التي كانت مزودة بتــسع فتحات في السقف للإضاءة الطبيعية، حوالي اثنتي عشرة نافــذة طويلة على الطراز القديم، لقد كانت مرسما مثاليا.

* * * *

الرسامون يحبون الضوء كثيرا، قال أبي. لم ينتبه إلى أن توفر قدر ملائم من الضوء رفع من مستوى كثير من الأعمــال التي يشاهدها هذه الأيام. ستكون اللوحات أفضل بكثير لــو أن

الرسامين تخلوا عن كل هذه الخبطات القبيحة بالفرشاة، كان رأيه. صناع الثلاجات، قال، يخفون الأجزاء القبيحة.

* * * *

وجدته جالسا على كرسي مريح وضع قرب إحدى النوافذ، مرتديا رداء أخضر مزأبرا كان ردائي قبل أن يأتي للإقامة هنا. كان يدخن سيغاره المعتاد، كأس شرابه المعتاد في اليد الأخرى، قدماه في نعله لأن نعلي كان صغير الحجم جدا. عندما يكون في البيت يتخذ مجلسه دائما قرب تلك النافذة. إذا ما سألته لماذا يجلس هناك يقول بأنه يبحث عن زوجة جديدة. عشرات النساء يترددن على البناية المقابلة. في الدور الثاني كانت توجد قاعة تدريبات إحدى فرق الباليه، وفي الطابق الذي يليه توجد (أكاديمية تكوين النجوم) التي يملكها السيد يي حيث تتعلم الفتيات اللائي تم تنحيفهن بشكل قاس، واللائي استخدمْتُ العديد منهن بشكل عارض، كيف يجعلن وجوههن تبدو جامدة وكيف يمشين مشيتهن الغريبة ببيضة فوق رؤوسهن محركات أيديهن بجانب أردافهن كأجنحة الطيور الصغيرة المتكسرة. كانت القاعتان مغمورتين بالضوء وكان بإمكانك أن ترى كل ما يدور فيهما بما في ذلك النشاطات التي تدور في مكتب السيد يي

الذي يبدو أنه كان يمضّي هناك قدرا كبيرا من الوقت يعلم هؤلاء الموديلات كيف يضعن ساقا على أخرى وهن يترشفن في رقة فنجانا من الشاي.

* * * *

أخبرني أبي أن المبنى كان يعرف في الماضي بـ (بيت السُّمَع الثلاث). ذلك كان اسمه الفعلي، قال، ويمكنني إذا كنت راغبا في ذلك إلى هذا الحد التأكد من الأمر في مبنى البلدية، على الرغم من أنه في تلك الأيام كان القماش الجبني (*) الأسود المعلق بالأسلاك المستخدمة في الأسيجة يغطي بتجعداته جدران النوافذ وكانت القاعات قد قسمت إلى مكعبات صغيرة يحتوي كل واحد منها سريرا. إذا ما كان لا بد من مخدة فعليك إحضار مخدتك الخاصة، وإذا لم تكن معنيا بمن يكون رفيقك فإنه يمكنك قضاء ليلة كاملة مقابل دولارين، مع وضع حذائك في الخارج ملمعا بانتظار إطلالة الصباح، تلك كانت أياما، هكذا قال أبي، كانت النقود فيها تعني شيئا. إذا ما أردت تأكيدا لذلك، قال، فكل ما أحتاجه هو التنقيب في ذاكرتي، لأنني عندما كنت أرتدي سراويل تتوقف عند الركبة كان كثيرا

(*) قماش رقيق كان يستعمل للف الجبن.

ما يصطحبني معه في جولاته. لا بد أني نمت، في مناسبة أو أخرى، في كل سرير من تلك الاثنين وثلاثين سريرا، وليس دائما وحدي، قال، على الرغم من أنني كنت صغيرا جدا حينها بحيث إنني لم أكن منتبها لحسن حظي.

* * * *

كانت فرقة الباليه، في ثياب الرقص البيضاء أو السوداء، تقوم بتمارين الجمباز المعتادة، في حين كانت أكاديمية يي تبدو مغلقة الليلة، وقفت راقصة شابة أمام إحدى النوافذ على قدم واحدة واضعة يديها على وجهها ناظرة إلينا نظرة كئيبة.

" فيراتوشكا. " قال أبي. " إنها تحبني"

مرت إحدى عشرة سنة على وفاة أمي. فضلت شرب سم الفئران، أخبرني ذات مرة، على العيش معه. وحسب ما أعرفه، كانت هذه هي الحقيقة.

" أتممت لوحتك؟"

أجل، نعم،قلت، أجل، لا، أجل، على نحو ما، أجل، أولا هناك مسألة ما إذا كان علي أن أضع المرأة العارية على الأريكة، ثم هناك مسألة ما إذا ستكون متكئة، ثم رأيتها قادمة

من الحمام، شعرها مبتل، ثم جالسة مستقيمة على الأريكة، ثم، تلك كانت لا، هي لما تذهب لأخذ حمام، لعلها كانت بانتظار أن يقرع الجرس، كانت فقط تجلس على الأريكة في استقامة ناظرة إلينا عبر النافذة بهذا التعبير الحزين على وجهها.

" وهكذا قررت، يعني، اتفقت مع نفسي إلى هذا الحد أو ذاك على شطب فكرة المرأة العارية نهائيا، سأقوم فقط بتحسين الظلال التي على الأبواب، أضيف مقدارا صغيرا آخر من الضباب إلى التلال البعيدة - إلى ما هنالك، وتنتهي اللوحة."

تفحص أبي وجهي أثناء هذا الشرح المتلعثم، مقطبا في البداية، ثم مضيقا عينيه، وأخيرا بشفتين شاحبتين.

* * * *

يوميا كان يجد ذريعة ليقول لي بأنني أستخدم لغة أجنبية عندما أخاطبه. عندما كنت طفلا أبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات، وحتى أكثر، لم يواجه معي هذه المشاكل. صاحبته في جولاته، سر هو بصحبتي، وأعجب به كل أصدقائه لأن له مثل هذا الابن الألمعي الممتاز. ذهبت معه إلى المقاهي والملاهي أيضا، إلى قاعات الرقص والحمامات البخارية والأسواق المرتجلة، ولكن الأمور أخذت تسير من سيء إلى أسوأ من ذلك

اليوم الذي أخذني فيه لأول مرة إلى قاعة عرض رسومات، قاعة نابولي، كان ذلك ماضيا بعيدا، يتذكر كل شيء بخصوص هـذه الزيارة كما لو أنها حدثت بالأمس، ما فعلته هو الظهور بمظهـر الأحمق، كل تلك الأوهات والآهات، التوهان عند كل لحظة يدير لي فيها ظهره، لقد انحدرت سريعا منذ ذلك الوقت، وضعت تماما منذ اليوم الذي قررت فيه أن أصبح رساما؛ كان ذلك علامة نهاية أيامنا الجميلة، كأب وابن، عندها تخلى عني، تخلى عني نهائيـا. لن أشرف اسمه أبدا. أبوه لم يصحبه أبدا في جولاته، وعلـي أن أبعد عن ذهني أي تفكير في أني سأكون رجلا ناجحا.

* * * *

زد على ذلك وجود تلـك المـرأة، مـا اسـمها، تلـك الـ آنجوو، التي لاتعرف ولا كلمة إنجليزية، لم تساعد أبدا على تحسين الأمور، كان أمرا جيدا أن هذه المرأة المتفرنسة آنجـوو كانت ثرية إلى درجة لا تحتاج معها إلى مساعدة أحـد، أنهـا معروفة بإسهاماتها الخيرية، هو يقبل ذلـك بالنـسبة لامـرأة، جمالها، يمكن أن يحتمل ذلك أيضا، أحد أثوابها الذي ارتدته في إحدى حفلاتها الغريبة يتجاوز ثمنه مجموع دخله طوال حياتـه، كل ذلك جيد، ولكن عمليا سأكون أفضل بكثير إذا مـا تريثـت

وتزوجت امرأة ناضجة، مثل أمك، قال.

* * * *

مثل أمك. كانت أمك تنحرف عن الخط من حين لآخـــر- نعرف كلانا أنها كانت كذلك- ولكنها حافظت على رأسينا فوق الماء، تلك المرأة فعلت ذلك، كانت أفـــضل زوجـــة يمكـــن أن يحوزها رجل، وسوف أقبل قدميها حالا، لو أنها هنا.

* * * *

لا أتذكر كانت إجابتي المعتادة على هذه الانفجارات، وهو تعليق يغيظ أبي، على الرغم من أنني لا أدرك لماذا، سيما وأن ذاكرته هو شخصيا مخطئة تماما، هو وأمي لـــم يكونـــا أبـــدا متزوجين، أتذكر ذلك كثيراً. ذلك وتنورتها الحمراء، تنورتهـــا الحمراء البراقة التي صممتها وصنعتها بنفسها من مادة لماعة، غير معروفة حتى الآن، فردتي حذاء أحمر، هي شخصيا جالسة في استقامة على مقعد أمام مرآة غائمة في غرفة متهالكة تزين وجهها. السيدة إفيي ستهتم بك، لا تتأخر في الطابق العلوي يـــا فوفيَّ الصغير، أتذكرها تقول شيئا كهذا. أحبك، اعطني قبلـــة، يمكنك النوم في سريري الليلة، أعرف كم تحب ذلك.

* * * *

لكني لن أحكي لأبي عن تنورة أمي الحمـراء، الحـذاء، تحضيراتها التي لا تنتهي لقضاء أمسية في المدينة، المـسرح، ليلة في الخارج مع (راقصو إيلسينور)، أكثر مما سأدقق فـي تلك الجولات الأسطورية التي قيل بأننا قمنا بها هو وأنا لما أن كنت طفلا. أكثر ما أتذكره من هذه التمشيات كان الجري مـن أجل أن أظل مواكبا لـه، ليغيب في النهايه عن نظري عقبـاه وسط أعقاب كل أولئك الذين يطأون تلك الشوارع، وفي إحـدى المناسبات الاحتفالية أذكره مقرفصا بجانبي قـائلا لا تبـك يـا صغيري، عليك فقط أن تخبر هذا الـشرطي الطيـب بمكـان سكناك. كلا، وكذلك لن أستحضر مسألة سم الفئران، أو أيا مـا كان ما فعلته بنفسها خلال واحدة من تلك الأمسيات التي يدعي هو أننا ذهبنا فيها في واحدة من جولاته، رغم أنني أتذكر بجلاء واحدة من صديقاتها الراقصات وهي تجلسني في حجرها هامسة في أذني، حبيبي، لقد كانت منشغلة، فأنت كنت مفقودا لمدة ثلاثة أيام. يذهب الذهن مذاهب غريبة أثناء الليل؛ أنا واثقة من أنهـا استسلمت لفكرة أنك قد مت.

* * * *

" دعني أنظر إلى اللوحة. " قال أبي، " أعطك سِنتين " ثم

نهض قافزا وغادر الغرفة بنعله البيتي. في بعض الأيام لا يرتدي الملابس العادية مطلقا، ستراه يتحرك عبر الشارع في رداء الحمام الأخضر الذي كان لي ونعله البالي، يتوقف أحيانا ليتحدث مع الخباز، يتناول شرابا في إحدى المقاهي مع أحد أصدقائه القدامى، الجميع يعرفونه، ستعتقد أن له آلاف الأصدقاء، ربما كان الأمر كذلك، كما يقول هو، هذه منطقته القديمة، (البيت ذو السمع الثلاث) كان موئلا لزمرته مثلما كان الحال مع أي مكان آخر.

* * * *

هناك فيراتوشكا، الواقفة الآن على ساق واحدة. يمكنها أن تظل واقفة هكذا الليل بطوله لو شاءت. في العمل القادم، قالت لي الموديلات، سوف يكون هناك ست عشرة راقصة يقفن على ساق واحدة دون حراك طوال الفصل الأول: الفن الساكن، هكذا من المفترض أن يكون اسم العرض، وكلهم مبهورون بإمكانية ذلك، كانت آنجوو قد استثمرت في هذا المشروع بشكل كثيف، إذا كان ذلك يعنيك فبإمكانك تخيلي ببدلة السهرة السوداء في كرسي المقصورة ممسكا يدها.

* * * *

يعود أبي. يده ملفوفة وبقع من الدم تظهر على ملابسه.

* * * *

" أعتقد أنك ستثوب إلى رشدك في نهاية المطاف وتعتنق الواقعية." قال، " ولكن لا، ما أراه هو نفس التفاهات القديمة، كوخ آخر غريب بأبواب خضراء، بصراحة، أنا أضع اللوم على أمك لحشوها رأسك بأفكار غريبة. ولكنه تجسيد دقيق ذلك الذي رسمت به الكلب، هذا ما أراه، والآن سأتقدم لأرى ما إذا كانت اللوحة قد جفت وما إذا كانت الكلبة (*) لن تغرس في أنيابها."

* * * *

ثم خرج مغمغما باحثا عن اليود.

* * * *

تعبر الكلبة الآن الممر المفضي إلى الكوخ، تلتفت لتشملني بنظرها وأنا أدخل المرسم، أسكب ماء للشرب من الصنبور وأضع الإناء المعدني على الأرضية، تلغ الماء بكامله بسرعة، تهز ذيلها، ثم تقفز وتخمش باب الكوخ، يا لذلك العواء المستعطف الذي يمتليء به حلقها، أرسم بالطباشير بضعة خطوط سريعة

(*) تعاملنا في الكشف عن جنس الحيوان مثلما تم التعامل معه في القصة.

لأفتح بابا مؤقتا، تمرق الكلبة وتتجه مباشرة نحو الأريكة.

* * * *

أجلس لوقت طويل على كرسي الموديل الصلب ناظرا إلى الكلبة، أخمن أنه ما دام قد أتى كلب فهذا يعني أنـه قـد يتبعـه آخرون، وهو ما يقودني إلى شيء آخر كنت أقلبه الأيام الماضية، إصرار آنجوو على أن يتم بين الحين والآخر القيام بحفريات في الدماغ، أن يفرغ، لاحتمال اكتشاف عزاء مستديم لرحلته.

* * * *

وهكذا أعتقد أني سأقوم في نهاية المطاف برسـم امـرأة جميلة عارية. ستكون مضطجعة على الأريكة في استرخاء، هذه الكلبة اللطيفة بقربها، فردتا خف أحمر مقلوبتان على البساط، غطاء حريري يغطي مصباح الغرفة الوحيد. اليد التي تربت في شرود على الكلبة تعكس الضوء في أصفى حالاته. في العمق تظهر غائمة سلة تستخدم مهدا. يبدو عليها مشروع ابتسامة. سننظر إليها ونتأمل خواطرنا الجميلة.

* * * *

الـخـيـمـة

ليام أوفلاهرتي (*)

ضربت الخيمة عاصفة مفاجئة. صفعت أحجار البَرَد ببياضها المتألق قماش القنب الرث في صخب. اهتزت الخيمة ومالت إلى الأمام قليلا مؤرجحة حواشيها البالية. صر العمود بسبب قوة الشد، و ظهر في القنب فَتْقٌ مثل ندبة فضية، عند أعلى العمود. سرعان ما سالت المياه عبر الندبة مكونة بقعة داكنة.

كان غجري و زوجتاه يجلسون في الخيمة فوق كومة من القش، ناظرين، عبر المدخل، إلى الخارج، نحو السبخة المتلاطمة المترامية أمام الخيمة، وقمة الجبل المغطاة بالثلج الناهضة فوق سطح السبخة كسن المخروط،، على بعد حوالي ميلين. كان ثلاثتهم يدخنون السغائر في صمت. كان الوقت مغربا، و كانوا قد نصبوا خيمتهم، استعدادا للمبيت، في حفرة مفروشة بالحصى تقع على جانب الطريق الجبلي الواصل بين

(*) Liam O'Flaherty (1896 - 1984) أديب آيرلندي يكتب القصة و الرواية.

واديين صغيرين ضيقين. وكان حمارهم قد شُد إلى العربة المركونة بجانب الخيمة بطِوال.

عندما هبت العاصفة انتفض الغجري جالسا و نظر إلى العمود. حدق في الفتق الذي بالقنب لعدة لحظات ثم همز المرأتين مشيرا بأنفه إلى أعلى. نظرت المرأتان و لم يتكلم أحد. بعد دقيقة أو نحوها تنهد الغجري و تحامل للوقوف على قدميه. قال:

- سأرمي بضعة أكياس فوق.

التقط كيسين بنيين من كومة بطاطين و ملابس وضعت لتجف قرب موقد عند المدخل، و خرج. ظلت المرأتان تواصلان التدخين دون أن تتكلما أبدا. لكز الغجري الحمار ليبتعد من طريقه. كان الحيوان قد أقحم خلفيتيه في مدخل الخيمة إلى أقصى ما يمكن، للحصول على الدفء من الحطب المحترق في الموقد. انكمش الحمار جانبا مواصلا مضغ كمشة تبن كان الغجري قد سرقه من مكان في الجهة الأخرى من الجبل. تسلق الغجري الجرف الذي نصبت الخيمة تحته. كان الجرف مغطى بعشب كثيف و قد تحول الثلج الذي تساقط عليه بالأمس إلى كتل من الوحل.

كان أعلى الخيمة يرتفع فوق الجرف بمقدار ثمانية عشر

إنشا فقط، و فيما وراء الجرف كان يمتد طريق وعر ضيق، تشرف على جانبه البعيد غياض من أشجار الصنوبر مسيجة بأسلاك شائكة، و لكن قوة العاصفة كانت من العتو بحيث إنها نفذت من بين الأشجار ضاربة أعلى الخيمة بعنف، كما لو أن الخيمة كانت تنتصب مكشوفة في السبخة الفسيحة. كان على الغجري أن ينحني باتجاه الريح لتفادي أن تدفع به إلى الخلف. نظر في الريح بمنخارين مفتوحين على سعتهما.

" لن تدوم طويلا،". قال و هو يرمي الكيسين فوق الخيمة حيث يوجد الفتق، ثم أخرج من سترته مِخْيَطا كبيرا و أحدث فيهما بضع غرز.

كان على وشك القفز من الجرف، عندما صاح به، من على الطريق، شخص ما. رفع نظره فرأى رجلا يقترب برأس مندفعة إلى الأمام من أجل مقاومة الريح. عبس الغجري هازا كتفيه. انتظر حتى وصل إليه الرجل.

كان الغريب رجلا قوي البنية طويلا ذا وجه مستطيل بحنكين بارزين وعينين بنيتين متألقتين كبيرتين. كان يملك وجه مقاتل. عندما وصل إلى الغجري وقف منتصب القامة مضموم القدمين مسبول اليدين، كأنه جندي. كانت قيافته حسنة بشكل

واضح و كان وجهه نظيفا و متقن الحلاقة و يداه نظيفتين. كان ثمة شكل أزرق اللون لشيء ما موشوم على ظاهر يده اليمنى. نظر إلى الغجري نظرة واثقة بعينيه البنيتين المتألقتين. لبضع لحظات لم يتكلم أي منهما.

- مساء الخير.

قال الغريب.

هز الغجري رأسه دون أن يتكلم. كان يروز الغريب من فوق إلى تحت كما لو أنه كانت تخامره خشية من هذا الرجل الفتي قوي البنية، الشبيه إلى حد كبير بشرطي أو جندي أو شخص ذي سلطة. سلط نظره على حذاء الرجل بشكل خاص. كان الحذاء ما يزال نظيفا إلى حد كبير كما لو أنه كان يُلَمع بشكل مستمر، رغم وحل الطرقات و الثلج الذائب و البَرَد.

- مسافر؟

قال أخيرا. قال الغريب، على نحو يكاد يكون استفزازيا:

- نعم. آ! نعم، و أبحث عن مكان آوي إليه في هذا الليل.

رمق الغريب الخيمة بعناية ثم عاد بنظره إلى الغجري.

ـ ذاهب بعيدا؟

قال الغجري.

ـ لا أعرف.

قال الغريب ساخطا. ثم أضاف بما يشبه الصراخ:

ـ ما من مأوى ألجأ إليه، سوى هذه الطرقات اللعينة.

قال الغجري:

ـ حسنا يا أخي. تعالَ.

أومأ باتجاه الخيمة و قفز نحو الحفرة. تبعه الغريب نازلا في خطوات حذرة لتفادي تلطخ ملابسه.

حين دخل الخيمة وراء الغجري و رأى المرأتين بادر إلى نزع قبعته قائلا:

ـ مساء الخير.

أبعدت المرأتان سيغارتيهما من فميهما، ابتسمتا مـومئتين برأسيهما.

نظر الغريب فيما حوله بحذر ثم جلس علـى صـندوق بجانب المدخل قرب الموقد. وضع كفيه في منطقة الوهج ثـم

فركهما. سرعان ما انبعث من ثيابه بخار خفيف. ناوله الغجري سيغارة مغمغما:

- تدخن؟

تناول الغريب السيغارة. أشعلها، ثم نظر إليهم. ما من أحد منهم كان ينظر إليه، لذا عاينهم بدقة، ناظرا إلى كل شخص منهم في ريبة بعينيه البنيتين المتألقتين. كان الغجري يجلس قبالته على صندوق مائلا بجذعه إلى الخلف في ارتخاء، فبدا رجلا مليح القسمات نحيلا طويلا ذا رأس جميلة تستقر في رشاقة فوق عنق أسمر، و رموشه السوداء الكبيرة منسدلة على عينيه شبه المغمضتين، كالمرأة تماما. شخص ذو ملامح أنثوية بذلك الجمال الشهواني في الوضعية التي يتخذها جسده المرتخي لا يوجد سوى بين الاستقراطيين و الطبقة الشديدة الصغر ممن لا عمل لهم، المنعزلة عن سواد المجتمع، و مع ذلك تتعيش على حسابه. شاب ذو شفتين مطبقتين ممتعضتين و فخورتين و تعبير عجرفة في منخاريه المائلين إلى العرض. شخص صموت، ينفث دخان سيغارته من منخاريه و يرنو إلى توهج نار الحطب في نظرة حالمة. كانت المرأتان مثله تماما من حيث البنية، كانتا متسختين، قذرتين و شعثاوين، و لكن بنفس النظرة

الممتعضة المتعجرفة على وجهيهما الأسمرين. كانت إحداهما ذات شعر بني و عينين سوداوين. يظهر على وجهها تعبير صارم و تبدو شديدة التحفز. و كانت الأخرى ذات شعر ذهبي على رأس شديدة الصغر و حنك رشيق ينتأ بمستوى جبهتها، كانت باهرة الجمال رغم ثيابها الرثة و قذارة شعرها المتراكم على جمجمتها الضئيلة في كتل متشابكة غير ممشطة. تناسق و لطافة أطرافها و صدرها و عنقها الطويل ببقع النمش الدقيقة على البشرة البيضاء جعلت الغريب يشعر بالخوف منها، من جمالها و من حضورها في الخيمة.

قال في نفسه: " الغجر قوم سيئون."

- هل لديكم أي طعام هنا...أهْ...أيها الصديق؟

قال بفظاظة لفظت فيها شفتاه كل كلمة بشكل حازم كمن اعتاد على توجيه الأوامر إلى من هم أدنى منه. تردد قبل أن يضيف كلمة " صديق" لعدم ميل واضح لأن يضع نفسه في حالة تواصل إنساني مع الغجري.

هز الغجري رأسه و استدار إلى المرأة ذات الشعر البني.

- ربما بقي لديك بعض الحساء، يا كِتي.

قال في همس.

نهضت المرأة ذات الشعر البني فورا، التقطت آنيـــة مـــن الصفيح مسودة و وضعتها فوق الموقد. ظل الغريب يتابعها. قال:

- هذه الحياة عذاب، أهْ؟ معزول في جبل. اعتقدت أنني سأبيت في راوندوود الليلة. كم ميلا تبعد من هنا؟

- عشرة.

قال الغجري.

- رحماك، يا إلهي!

قال الغريب.

بعد ذلك ضحك، ثم أدخل يده في جيب صدريته و أخرج زجاجة وسكي سعة ربع لتر.

- هذا كل ما معي.

قال ناظرا إلى الزجاجة.

ما إن رأى الزجاجة حتى فتح الغجـري عينيـه علـى سعتهما. استوت المرأة ذات الشعر الذهبي جالسة و نظرت إلى الغريب بلهفة، فاتحة عينيها البنيتين على سعتهما مجيلة لـسانها

في فمها. استدارت المرأة ذات الشعر البني، التي كانت تفتش في الصندوق عن شيء ما، هي الأخرى، مستطلعة. غمز الغريب بإحدى عينيه و ابتسم.

ـ تفضلوا في أي وقت.

قال. ثم أضاف:

ـ اللعنة. هل لديكم نازع سدادات؟

أخرج الغجري سكينا من جيبه، جذب من جنبها نازع سدادات و ناولها للرجل. فتح الرجل الزجاجة.

ـ خذ.

قال، و هو يمد الزجاجة للغجري.

ـ مررها على الجميع. أعتقد أن المرأتين ستتناولان جرعة.

تناول الغجري الزجاجة و همس للمرأة ذات الشعر البني. سارعت بمناولته أقداحا من الصندوق.

ـ إنه لأمر مضحك.

قال الغريب.

ـ أن يكون المرء منهكا و جائعا و لديه وسكي، و لكن ليس

بإمكانه أن يجد طعاما. هذا الصباح قابلت رجلا في دبلن وكان يدرك تماما أنني منهك، ولكنه بدلا من أن يقدم لي وجبة، أو يمنحني بعض النقود، أعطاني هذه. ظلت معي طوال الطريق و لم أفتحها أبدا.

ألقى بعقب سيغارته من خلال المدخل.

- كنت أشرب طوال ثلاثة أسابيع. اللعنة.

قال.

- هل أنت من هذه الأنحاء؟

غمغم الغجري وهو يسكب الوسكي في أقداح من الصفيح.

- ماذا؟

قال الرجل، متكلما مرة أخرى في سخط ، كما لو أنه استنكر السؤال. بعدها أضاف:

- لا. لم يسبق لي أن كنت هنا طوال حياتي. ليس أمامي سوى الذهاب إلى المَبَرَّة أو التطواف عبر الطرقات. تحصلت على عمل في دبلن بالأمس. لكن العمال أضربوا عن العمل عندما اكتشفوا أنني لست عضوا في النقابة. شكرا. في صحتكم.

قالت المرأتان:

- في صحتك، يا سيدي.

حرك الغجري رأسه ، و هو يقرب قدحه من شفتيه ويتذوقه. تجرع الغريب قدحه دفعة واحدة. ثم صاح:

- ها. اشربا، أيتها المرأتان. إنه نوع جيد.

غمز لهما، فابتسمتا و ترشفتا حصتهما من الوسكي.

- اسمي كارني. ماذا يسمونك أنت.

قال الغريب للغجري.

- بايرني. جو بايرني.

قال الغجري. قال كارني:

- امْمْ! وِكْلُزْ مليئة بالبايرنيين. غجري، فيما أظن؟

- نعم.

غمغم الغجري، نافثا سحابة من دخان سيغارته عبر شفتيه المزمومتين. هز كارني كتفيه. بعدها قال:

- هذا أيضا جيد. لا شيء أفضل من غيره. خذني أنا مثلا.

رئيس عرفاء في الجيش قبل شهرين. وها أنا الآن أذرع الطرقات. هذا أمر مثير للحنق.

تناولت ذات الشعر البني الآنية من على النار. جرعت الأخرى ما تبقى في قدحها من وسكي و نهضت لتساعد في تقديم الوجبة. أزاح كارني صندوقه إلى الخلف مفسحا المجال و تابع المرأة ذات الشعر الذهبي في اشتهاء. عندما تحركت في الخيمة بدت فارهة القامة إلى حد أنها اضطرت إلى الانحناء انحناءة حادة، تجنبا لسقف الخيمة. لا بد أن طولها يبلغ المترين، إضافة إلى أنها كانت تنتعل حذاء عالي الكعب جعلها تبدو أطول.

" ها هي امرأة لك ."، فكر كارني. لا بد أنها ابنة رجل مُنَعَّم. ثمة الكثير من الطلقات الطائشة في مقاطعة وكلو. نصف السكان ذرية غير شرعية، إنهم قوم ذوو مزاج مريع، هؤلاء الغجر. يبدو أنهما تخصان هذا الجو، الذي هو امرأة أكثر منه رجلا. لا أظنه قام في حياته بأي عمل مضن.".

كان العشاء أرنبا بارداً مع شاي و خبز و زبدة. كان الشاي رائعا، و مذاقه شديد العذوبة إزاء هذه العاصفة الهائجة في الخارج. و هم يتحلقون حول الموقد كان باستطاعتهم رؤية أحجار البرد تنساب عبر ضباب رمادي، زاحفة على السبخة

السوداء التي تضربها الريح، و قمة الجبل البعيد المخروطيـــة، محفوفة بسحابة ثلجية مدومة. كانت السماء تتفتق هنا و هنـــاك كاشفة عن قطع زرقاء تبين من خلال السواد.

تناولوا الوجبة في صمت. بعد ذلــك أزالــت المرأتــان الأشياء. لم تغسلا الأقداح أو الصحون، و إنما أبعــدتاها، فـــي انتظار الصباح، فيما يبدو. ثم عادتا إلى الجلوس، بعد أن طرحتا فراشا من القش و غطتاه بقطع الثياب التي كانـــت موضـــوعة قرب الموقد لتجف. بدا الجميع في مـــزاج رائـــق الآن بفعــل الوسكي و الطعام. حتى وجه الغجري ازداد رقة وظــل يـــزم شفتيه مبتسما. وزع سغائر. قال كارني:

- يمكننا إكمال الزجاجة. لا تكترثوا بعدم صلاحية الأقـــداح. نستطيع الشرب من فم الزجاجة مباشرة.

- هكذا سيكون مذاقه أسْوغ.

قالت المرأة ذات الشعر الذهبي، ضاحكة بارتخاء، كمـــا لـــو كانت ثملة قليلا، ناظرة في نفس الوقت إلى كارني بشفتين مفترتين.

غمزها كارني. انتبه الغجري إلى الغمزة وابتسامة الفتاة. غام وجهه و أطبق شفتيه في إحكام. تناول كارني جرعة كبيرة

وناولـــه الزجاجة. هز الغجري رأسه، تناول الزجاجة ووضعها بين شفتيه. قال كارني:

ـ سأتمدد. أنا منهك تماما. سرت عشرين ميلا منذ الصباح. أهْ؟

ارتمى على الفراش بجانب المرأة ذات الـــشعر الـــذهبي. ابتسمت و نظرت إلى الغجري. جمد الغجري و الزجاجة علـــى شفتيه و نظر إليها حانقا من خلال عينين شبه مغمضتين. أبعـــد الزجاجة عن شفتيه كاشفا عن أسنانه البيضاء. هزت ذات الشعر الذهبي كتفيها وزمت شفتيها. ضحكت ذات الشعر البني بصوت مرتفع، متمددة على ظهرها واضعة يدا تحت رأســـها و مـــادة الأخرى نحو الغجري.

ـ اسْسْسْ.

صفرت من بين أسنانها.

ـ ناولنيها، يا جو.

مد نحوها الزجاجة في بطء، و بمجرد أن ناولهـــا إياهـــا تعلقت بيده محاولة جذبه نحوها. لكنه نتر يده بعيدا، ثم نهـــض وغادر الخيمة مسرعا.

لم ينتبه كارني إلى شيء من هذا. كان يتمـــدد ملتـــصقا

بالمرأة التي إلى جانبه. صار بإمكانه استشعار لدونة جسدها الجميل والتموج الهين في جنبها وهي تتنفس. طغت عليه الرغبة فيها فأغمض عينيه، كما لو ليبعد عن وعيه العالم والشخصين الآخرين بالخيمة. مد يده إلى تحت ليتناول يدها ويضغط عليها. ردت على الضغطة في نفس الوقت الذي استدارت فيه نحو رفيقتها متسائلة:

- أين ذهب؟

- لا أعلم. ركض إلى الخارج.

- تف.

- ناولينا جرعة.

- هاكما.

التقط كارني الهمس، لكنه لم يكترث له. سمع المرأة ذات الشعر الذهبي تشرب ثم تشهق بعمق.

- فرغت.

قالت ملقية بالزجاجة على الأرض. ضحكت بعدها بنعومة.

- أنا خارجة لأرى إلى أين ذهب.

همست ذات الشعر البني. نهضت و مضت خارج الخيمة. حالا انقلب كارني و حاول معانقة المرأة التي بجانبه. لكنها كشفت عن أسنانها في تكشيرة ضارية و قيدت يديه في حركة واحدة.

- لم أتصور أنني قوية.

قالت مقربة وجهها من وجهه و مكشرة.

نظر نحوها بحذر متفاجئا، و مع ذلك، مستثارا أكثر. قالت:

- ماذا ستفعل في راوندوود؟

- أبحث عن عمل.

غمغم في ارتخاء. ابتسمت ثم أجالت لسانها في فمها.

- ابق هنا.

قالت. لحس شفته غامزا بعينه اليمنى.

- معك؟

أومأت برأسها.

- ماذا عنه؟

قال مشيرا ناحية المدخل.

ضحكت في صمت:

- هل أنت خائف من جو؟

لم يرد، ولكنه طوق جسدها، في حركة مفاجئة، وجذبها نحوه. لم تقاوم، ولكنها أخذت تضحك، كاشفة أثناء ذلك عن أسنانها. حاول تقبيلها في فمها، لكنها أزاحت رأسها إلى الخلف، فقبل وجنتها عدة مرات.

ثم شب، فجأة، هسيس ضجة عند المدخل. هب كارني جالسا. كان الغجري يقف هناك منحنيا انحناءة خفيضة بفم مفتوح، حنكه مائل إلى اليمين و يداه سائبتان إلى جانبيه مرتعشتي الأصابع. كانت ذات الشعر البني تقف وراءه، تتطلع من فوق كتفيه مبتسمة.

نهض كارني واقفا، تقدم خطوة إلى الأمام و اتخذ وضع تحفز. لم يتكلم. أطلقت المرأة ذات الشعر الذهبي ضحكة عالية مجلجلة و انطرحت على الفراش و هي تمد يديها مقهقهة.

- اخرج إلى هنا.

فح الغجري متراجعا إلى الخلف. صرخ كارني واندفع نحوه متخطيا الموقد. تحرك الغجري جانبا مسددا لكارني لكمة

عنيفة على حنكه أثناء ما كان يجتازه. ترنح كارني عند الجرف ليسقط فوق كثيب. قفز إليه الغجري كالقط وأخذ يضربه بيديه وقدميه معا. زمجر كارني:

- دعني أنهض. دعني أنهض. ليكن قتالا عادلا.

لكن الغجري ظل يضربه إلى أن تركه ملقى في قاع الحفرة دون حراك .

- ها.

قال الغجري.

بعد ذلك التقط الجسد المنكفيء في خفة، كما لو أنه كيس فارغ، وألقى به فوق قمة الجرف.

- غُر. أيها الــ..

فح الغجري. تحامل كارني للوقوف على قدميه فوق قمة الجرف و نظر إليهم ثلاثتهم. كانوا يقفون جميعهم أمام الخيمة. المرأتان تكشران والغجري يلعن. ثم خطا باتجاه الطريق مترنحا ويداه على رأسه.

- وداعا يا حبيبي.

صاحت المرأة ذات الشعر الذهبي. بعدها صرخت. نظر كارني وراءه فرأى الغجري يحملها على ذراعيه إلـــى داخـــل الخيمة.

- رحماك، يا إلهي!

صاح كارني راسما على صدره إشـــارة الـــصليب. ثـــم جرجر خطواته مبتعدا، في العاصفة، في خوف نحو راوندوود. وكان في كل خطوتين يردد:

- رحماك، يا إلهي! رحماك، يا إلهي!

* * * *

مستوى المعيشة

دورُثي باركر (*)

خرجت آنَّابِل ومِدْجْ من قاعة الشاي بمشية متمهلة متغطرسة يمشيها الناس في أوقات فراغهم، حيث كانت تتمدد أمامهما عشية الأحد. تغدتا، حسب شهوتهما، سكرا ونشا وزيوتا وزبدة. كانتا تتناولان عادة شطائر خبز أبيض جديد اسفنجي مدهونة بالزبدة والمايونيز، أكلتا عصيات سميكة من الكعك كانت تتمدد رطبة تحت الآيس كريم مع كريما مخفوقة وشوكلاتة ذائبة غنية باللوز المجروش. وأكلتا، كأطباق إضافية، فطائر راشحة بقطرات من زيت رخيص، محشوة بقطع من لحم طري ومغموسة في صلصة مُقسِّية فاتحة. أكلتا معجنات رخوة داخل غلاف ثلجي متماسك، محشوة بمادة حلوة صفراء غير محددة، لا هي بالصلبة، ولا هي بالسائلة، كالمرهم الذي ترك في الشمس. لم تختارا نوعا آخر من الطعام، ولا فكرتا في ذلك. وكانت بشرتهما مثل نويرات شقائق نعمان الغابات، وبطناهما ضامرين وخصراهما نحيلين مثل خصور المقاتلين الشبان من

(*) Dorothy Rothschild Parker (1893 ـ 1967) أديبة أمريكية ساخرة.

الهنود الحمر.

صارت آنابل ومدج صديقتين حميمتين، تقريبا من اليوم الذي تحصلت فيه مدج على وظيفة كاتبة اختزال في الشركة التي تشتغل بها آنابل. الآن ترفعت آنابل، المتقدمة بسنتين في توظيفها في قسم الاختزال بالشركة، حتى أصبحت تتقاضى أجرا قدره ثمانية عشر دولارا وخمسين سنتا في الأسبوع. ما زالت مدج عند ستة عشر دولارا. كلا الفتاتين تعيشان في بيت أسرتيهما وتدفع نصف أجرها لمساعدة الأسرة.

تجلس الفتاتان جنبا إلى جنب خلف مكتبين متلاصقين، تتغديان معا ظهيرة كل يوم، تخرجان إلى بيتيهما معا عند نهاية كل يوم عمل. العديد من عشاياهما ومعظم [أيام] آحادهما قضتاها صحبة بعضهما. عادة ما كان ينضم إليهما شابان، ولكن لم يكن هناك رباعي ثابت، إذ يخلي الشابان، غير مأسوف عليهما، المكان لشابين آخرين، وسيكون الأسف، فعلا، غير مبرر طالما أن القادمين، في العادة، غير متميزين عن سابقيهما. في موسم الحر كانت الفتاتان دائما تقضيان ساعات الفراغ الجميلة من عشايا أيام السبت معا. الاستخدام الدائم لم يبلِ نسيج صداقتهما.

كانتا تبدوان متشابهتين، رغم أن التشابه لم يكن متمثلا في

ملامحهما، وإنما كان ظاهرا في هيئة جسديهما وحركاتهما وملابسهما وحليهما. لقد قامت آنابل ومدج، وعلى نحو تام، بما كانت الموظفات الشابات لا يسعين إلى القيام به. فقد كانت تطليان شفاههما وأظافرهما، تكحلان رموشهما وتفتحان لون شعرهما، وكان العطر يبدو كما لو أنه ينبثق منهما. كانتا ترتديان ملابس زاهية خفيفة تضيق على نهودهما وترتفع على سيقانهما، وأخفافا تغطي أمشاطهما مقلمة تقليمات زاهية. كانتا تبدوان غريبتين ومبتذلتين وفاتنتين.

وهما تتجهان الآن نحو الشارع الخامس، والريح الساخنة تطير تنورتيهما، تناهت إليهما تعابير الإعجاب. فالشبان الذين كانوا يتجمعون في كسل قرب أكشاك بيع الصحف كافؤوهما بغمغمات، صيحات، وحتى بالصفير، كهبة أخيرة. لكن آنابل ومدج عبرتا دون اكتراث بزيادة سرعة خطواتهما، مُشْمِتين رأسيهما وناقلتين أقدامهما في حرص متناه، كما لو أنهما تخطوان فوق رقاب فلاحين.

كانت الفتاتان تخرجان دائما، في العشايا التي لا تكونان فيها مشغولتين، للتمشي في الشارع الخامس، لأنه كان الساحة المثلى للعبتهما. يمكن لهذه اللعبة أن تلعب في أي مكان، إلا أن

واجهات العرض الكبرى بالمتاجر كانت تستحث اللاعبتين على الإتيان بأفضل ما تستطيعانه.

كانت آنابل هي التي ابتدعت اللعبة، أو، بالأحرى، طورتها عن أخرى قديمة. فهي في الأساس لم تكن شيئا أكثر من اللعبة العريقة: ماذا ستفعل لو كان لديك مليون دولار؟ إلا أن آنابل استحدثت لها قوانين أخرى، فضيقتها وقوتها وجعلتها أكثر صرامة. وبذا أصبحت، ككل الألعاب، أكثر استحواذا لكونها أصبحت أكثر صعوبة.

كانت نسخة آنابل تمضي على هذا النحو: عليك أن تفترض أن شخصا قد مات وترك لك مليون دولار، بغير منازع. ولكن يوجد شرط لهذا التوريث. فقد ورد في الوصية أنك ينبغي أن تصرف كل درهم من هذا المبلغ على نفسك فقط.

هنا تكمن خطورة اللعبة. فإذا ما سهوت أثناء اللعب وسجلت ضمن قائمة مصروفاتك إيجار شقة لأسرتك، على سبيل المثال، فإنك تخسر دورك لصالح اللاعب الآخر. إنه لأمرغريب أن عديدين، ومن بينهم متمرسون، كانوا يخسرون أدوارهم بسبب مثل هذه الزلات.

كان أمرا جوهريا، بالطبع، أن تؤدى اللعبة بحماس

صادق. كل حالة شراء ينبغي أن تتم بتـــرو وأن تـــدعم، عنـــد الضرورة، بالحجة. فلم يكن هناك ميل إلى أن تؤدى هذه اللعبة بطريقة مستهترة. ذات مرة أخبرت آنابل زميلتها في المكتـــب سيلفيا باللعبة، شرحت لها قواعدها ثم طرحت عليها التحـــدي: " ما هو أول شيء ستفعلينه ؟ ". فلم تتردد سيلفيا، وكان حريا بها أن تفعل ذلك من باب اللياقة، ولو لثانية وأجابـــت: " أول شـــيء سأفعله هو أن أذهب وأستأجر شخصا ليقتل السيدة غيري كوبر، وبعدها..."، وهكذا بدا أن الاشتراك في اللعبة معها ليس مسليا.

لكن آنابل ومدج ولدتا لتكونا رفيقتين، بكل تأكيد. ذلك أن مدج لعبت اللعبة كخبيرة من أول لحظة تعلمتها فيها. كانت هي التي أضافت اللمسات التي جعلت لعبها أكثـــر ألفـــة. فحـــسب ابتكارات مدج لا ينبغي أن يكون الشخص النزوي الذي تـــوفي وترك لك المال شخصا تحبينه، أو، لتعزيـــز الحالـــة، شخـــصا تعرفينه مجرد المعرفة. إنه شخص ما رآك في مكان ما وقـــال في نفسه: " ينبغي أن يكون لهذه الفتـــاة الكثيـــر مـــن الأشـــياء الرائعة. سأترك لها مليون دولار عندما أموت.". ولا ينبغي أن يكون الموت مبكرا أو معذبا. مُحْسِنُك، وقد اكتمل عمره وتأهب للرحيل، ينزلق، أثناء نومه، مبتعدا بنعومة ويذهب إلـــى الجنـــة

مباشرة. وقد أتاحت هذه التوشيحات لآنابل ومدج أن تؤديا لعبتهما في رحابة ضمير مرتاح.

كانت مدج تلعب بجدية لم تكن كافية فقط بل ومتطرفة. حالة التوتر الوحيدة التي مرت بها صداقة الفتاتين أعقبت تصريح آنابل مرة بأن أول شيء ستشتريه من المليون دولار سيكون معطفا من فرو ثعلب فضي اللون. كان تصريحها هذا كما لو أنها صفعت مدج على فمها. بعد أن استعادت مدج أنفاسها، صاحت بأنها لم تكن لتتخيل آنابل تأتي مثل هذا الفعل، فمعاطف فرو الثعلب الفضي كانت شديدة الشيوع!. دافعت آنابل عن ذوقها بالرد بأنها لم تكن شائعة. وعندها قالت مدج بأنها كانت شائعة، مضيفة بأن الجميع عندهم معاطف الثعلب الفضي، ومضت إلى القول، ربما بقليل من الخروج عن الطور، بأنها لن يعثر عليها ميتة في فرو ثعلب فضي.

على الرغم من أن الفتاتين ظلتا، في الأيام القليلة التالية، تريان بعضهما كما في السابق، إلا أن أحاديثهما كانت حذرة وقليلة، ولم تلعبا لعبتهما ولو لمرة. ذات صباح جاءت آنابل، بمجرد أن دخلت المكتب، إلى مدج وقالت بأنها قد غيرت رأيها، وأنها لن تشتري أي معطف فرو ثعلب فضي بأي جزء من

المليون دولار ميراثها. بعد أن تستلم التركة مباشـــرة ســتختار معطفا من فرو المنك [1].

ابتسمت مدج وتألقت عيناها قائلة: " أعتقد، بالتأكيد، أنـك تفعلين عين الصواب."

وها هما الآن، وهما تتمشيان عبر الشارع الخامس، عادتا مجددا إلى اللعبة. كان يوما من تلك الأيام التـي بـسببها كـان سبتمبر يلعن دائما؛ ساخنا ومبهرا، مع غبار فضي في الجـو. كان الناس يمضون متراخين متثاقلين، ولكـن الفتـاتين كانتـا تمضيان منتصبتي القامة وتسيران في خط مستقيم مثلما يليـق بوارثتين شابتين في تجوال الأصيل. لم تعد هناك من حاجة إلى أن تبدآ اللعبة بالافتتاح التقليدي، لذا ابتدأت آنابل مـن جـوهر اللعبة. قالت:

- حسنا. تحصلت على المليون دولار. فمـاذا سـيكون أول شيء تفعلينه؟

قالت مدج:

- أول شيء سأفعله هو أن أشتري معطف مِنْكْ.

---

(1) حيوان ثديي لاحم شبيه بابن عرس، يقدر لفروه.

ولكنها قالت ذلك بطريقة آلية كما لو أنها تعطي إجابة معدة مسبقا على سؤال متوقع.

قالت آنابل:

- نعم. أعتقد أنه يجب أن تفعلي ذلك. من ذلك النوع شديد الدكنة.

ولكنها تكلمت، هي الأخرى، كما لو كانت تتلو شيئا محفوظا. كان الجو شديد السخونة؛ فرو، مهما كان داكنا وناعما ولينا، فإن التفكير فيه يسبب ضيقا.

سارتا في صمت لوهلة. ثم استلفتت واجهة عرض أحد المتاجر عيني مدج، حيث كانت توجد تألقات فاتنة هادئة تزيد في إظهارها عتمة أنيقة وحيية. قالت مدج:

- لا. لقد تراجعت عن ذلك. لن يكون شراء معطف فراء المنك أول شيء أفعله. هل تعرفين ما سأفعله؟ سآخذ عقد مجوهرات. مجوهرات حقيقية.

تحركت عينا آنابل متابعة عيني مدج:

- نعم.

قالت بتمهل.

ـ أعتقد أنها فكرة جيدة. وسيكون لها معنى أيضا. لأنه يمكنك ارتداء المجوهرات مع أي شيء.

ذهبتا معا إلى واجهة العرض ووقفتا ملتصقتين بها. كانت تحتوي شيئا واحدا: عقدا من صفين من المجوهرات المتماثلة الرائعة يحيطها زمرد صاف وتحيط هي بفتحة مخملية وردية اللون.

ـ كم تعتقدين أنه يساوي؟

قالت آنابل.

ـ لا أعرف. كثيرا فيما أظن.

قالت مدج.

ـ ألف دولار مثلا؟

قالت آنابل.

ـ أظن أكثر، آخذين الزمرد في الاعتبار.

قالت مدج.

ـ عشرة آلاف دولار مثلا؟

قالت آنابل.

- لا أعرف.

قالت مدج.

لكز الشيطان آنابل في ضلوعها، فقالت:

- هل تستطيعين الدخول والسؤال عن سعره؟

- من باب التسلية!.

قالت مدج.

- تستطيعين؟!

قالت آنابل.

- لماذا؟ متجر كهذا ليس من المفترض أن يكون مفتوحا هذا المساء.

قالت مدج.

- نعم. هذا صحيح. لكنْ هناك أناس خرجوا منه للتو، وثمة بواب. تستطيعين؟

قالت آنابل.

- ليكن.

قالت مدج.

ـ ولكن عليك أن تأتي أنت أيضا.

شكرتا البواب ببرود لترحيبه بدخولهما المتجر. كان المتجر باردا وهادئا، قاعة رحبة فاخرة بجدران مزينة بأحزمة خشبية وبساط ناعم.

ولكن ملامح الفتاتين كانت تكتسي بتعابير تنم عن امتعاض مرير كما لو كانتا تقفان في حظيرة خنازير.

تقدم منهما موظف نظيف وانحنى أمامهما. وجهه الحسن القسمات لم يبد عليه الاندهاش من مظهرهما.

ـ مساء الخير.

قال. أعطاهما انطباعا بأنه إذا ما تقبلتا تحيته المهموسة فإنه لن ينسى لهما هذا المعروف.

ـ مساء الخير.

قالت آنابل ومدج معا، وبنبرات كما لو كانت مجمدة.

ـ هل من شيء....؟

قال الموظف.

- إننا فقط نلقي نظرة.

قالت آنابل. كانت كما لو أنها تطيح بالكلمات من فوق منصة. انحنى الموظف.

- تصادف أنني وصديقتي كنا مارتين.

قالت مدج، وتوقفت، للاستماع إلى الجملة فيما يبدو. ثم أضافت:

- صديقتي هذه وأنا، تساءلنا، من باب الصدفة وحدها، عن ثمن المجوهرات التي لديكم في الواجهة.

- آ، نعم.

قال الموظف.

- العقد المزدوج. ذلك بمئتين وخمسين ألف دولار، يا مدام.

- أجل.

قالت مدج. انحنى الموظف قائلا:

- عقد جميل بشكل منقطع النظير. هل ترغبين في تفحصه؟

- كلا. شكرا.

قالت آنابل.

ـ تصادف أنني وصديقتي كنا مارتين.

قالت مدج.

استدارتا خارجتين، خارجتين، فيما يبدو من هيئتهما، إلى حيث تنتظرهما عربة التمبرل [1]. اندفع الموظف أمامهما وفتح لهما الباب. انحنى أثناء ما كانتا تجتازانه منسلتين.

سارت الفتاتان عبر الشارع وأمارات الامتعاض ما زالت على وجهيهما.

ـ بصراحة، هل يمكنك تصور شيء كهذا؟

قالت آنابل.

ـ مئتين وخمسين ألف دولار!.

قالت مدج.

ـ هذا وحده ربع مليون دولار!.

ـ ما أوقحه!.

قالت آنابل.

---

(1) tumbrel أو tumbril عربة كانت تأخذ المقرر إعدامهم إلى المقصلة أيام الثورة الفرنسية.

تابعتا السير. زال الامتعاض تدريجيا، تدريجيا وبشكل كامل كما لو أنه امتص منهما، ومعه زال الخيلاء والمشية الملكيان. أكتافهما تراخت وجرجرتا أقدامهما؛ ارتطمتا ببعضهما بدون انتباه أو اعتذار، لتتباعدا من جديد. كانتا صامتتين وعيونهما غائمة.

فجأة وترت مدج ظهرها، رفعت رأسها عاليا، وتكلمت بوضوح وقوة:

- اسمعي يا آنابل. انتبهي. لنفترض أن هناك هذا الشخص الفاحش الثراء، سمعت؟ أنت لا تعرفين هذا الشخص، ولكن هذا الشخص رآك في مكان ما وأحب أن يقدم إليك شيئا ما. إنه شخص طاعن في السن، سمعت؟ ثم يموت هذا الشخص، مثلما يغشاه النوم، ويترك لك عشرة ملايين دولار. والآن، ماذا سيكون أول شيء تفعلينه؟

* * * *

قصائـد حــب

هِلون هابيلا (*)

في منتصف سنته الثانية بالسجن، عثر لومبا علـــى قلـــم رصاص وأوراق، فأخذ يكتب يومياته. لم يكن ذلك سهلا. عليه أن يكتب سرا، عند الفجر عادة، حين يكون الحراس الليليـــون، وقد أنهكوا من التطلع خلال قضبان الباب، ينتظـــرون تغييـــر النوبة الصباحي بنفاد صبر. كانت معظم اليوميات معنونة بأيام الأسبوع، وكانت تواريخ الأيام، حين يثبتها، تكون غالبا غيـــر صحيحة. كان أول عنوان مؤرخا في يوليو 1977، الجمعة.

الجمعة، يوليو 1977

ابتدأت اليوم في كتابة يومياتي، لأقولَ فيها كل ما أريـــد قولـــه، لنفسي، لأنه، هنا في السجن، ما من أحد يصغي. أعبرَ عن نفسي. ذلك يعصمني من الوقوف في وسط هـــذه الزنزانـــة

(*) Helon Habila أديب نيجيري. تحصل على جائزة قابيل للكتابة الأفريقية سنة 2001 وجائزة كتاب الكومنولث لأحسن كتاب أول (في منطقة أفريقيا) عن عمله " قصائد حب".

الضيقة لأصرخ بملء صوتي. إنه يعصمني من القفز، فجأة، عاليا لأرطم رأسي، مرارا، بالحائط. فلا تؤذي أغلال السجن يديك ورجليك، قدر ما تؤذي صوتك.

أعبرَ عن نفسي. أدعَ عقلي يحلق فوق هذه الحيطان ليعود حاملا من الأقاصي قرميدا عجيبا، أنوي أن أبني به، داخل هذه الزنزانة، زنزانة يمكنني تحملها. سجن. غير –سجن Misprison . لا– Dis . ليس– Un. سجين. أ رأيت ؟ أكتب عن وضعي بألفاظ متهكمة، قاصدا بذلك تخفيف عبء هذه الحيطان عن كاهليَّ، وإعادة اكتشاف فرديتي الملغاة. هنا في السجن يعبر عن خسارة النفس عادة من خلال الغضب. الغضب إجراء وقائي يحاول بواسطته السجين إعادة بلورة نفسه المنحلة. يتسلل الغضب إليك، كالضوء الذي يبين حافة النهار. ينبني داخلك في صمت، إلى أن ينفجر ذات يوم، انفجارا عنيفا، يذهلك.

عاينت ذلك يحدث في شهري الأول بالسجن. هاجم سجين، دون أن يكون قد استفز، في الحمام حارسا غافلا. خرج السجين من مقصورة المرحاض ليجد الحارس أمامه يشرف على عملية الاغتسال الصباحي. وثب إليه السجين بغتة جاذبا إياه إلى الأرض من رقبته، ليمرغه في المياه السوداء الخاثرة

المنسابة عبر قناة تخرج من الحمـــام، وأخــذ يــصفع الوجـــه المنذهل، تكرارا، إلى أن جاء حارس آخر وجره بعيدا. ضربوه حتى صار عجينة، قبل أن يلقوا به في زنزانة انفرادية.

أحيانا يغادرك الغضب فجأة مثلما جاء، فتدخل في حالة من التقبل الساكن. تنتبه إلى الصبيانية المحضة في غضبك: إنه لـــم يكن شيئا سوى حمض، سرطان، يأكل أحشاءك في الظلام. تتقبل عدم إمكانية الفرار من مصيرك، وعندها تتعلم فن الدهاء. تـــتعلم أساليب النجاة – النجاة من بلادة الحيطان البلهاء المحيطة بـــك، التحرش المتواصل من طرف الحراس، تتعلم إخفاء النقـــود فـــي إستك، كيف تخفي داخل فمك سيغارة مشتعلة دون أن تبتل. وكل يوم نجاة هو انتصار على السجان، ضربة في سبيل الحرية.

دام غضبي سنة بتمامها. أتذكر بالـــضبط اليـــوم الـــذي غادرني فيه. كان يوم سبت، اليوم التالي لمحاولة فرار فاشلة قام بها اثنان من المدانين بالقتل. كان الحراس ذلك اليوم أشرس من المعتاد، كان النزلاء في مهب الريح، لا يدرون من أين ســـتأتي الضربة القادمة. كنا قد انتظمنا صفوفا داخل زنزانتنا، منتظرين، لعدة ساعات، الاستماع لمدير السجن. حين جاء كانت تقطيبتـــه صلبة كالصخر، وكانت عيناه حمراوين تتقدان كالنار. تمـــشى

أمامنا جيئة وذهابا، وهو يسوطنا، بانتظام، بجمله غير المترابطة. استمعنا، برؤوس مطأطئة، وقلوبنا ترجف.

إثر ذهابه انهار نزيل، عاد لتوه من سجن انفرادي دام أسبوعا، وانهمر بالبكاء. اختضنت يداه كما لو أنهما تعيشان مستقلتين عنه." ماذا سيحدث بعد هذا؟ "، أخذ يعول، منتقلا من شخص إلى آخر، متفحصا الوجوه، دون أن ينتظر إجابة. " سنعاقب. إذا عدت إلى هناك سأموت. لا أستطيع. لا أستطيع."، أصبح الآن يقف أمامي، كتلة هزيلة من التهابات الحساسية، والقوباء الحلقية، والمخاط. لا يبدو أنه يتعدى العشرين، قلت في نفسي، فما الذي فعله حتى يكون هنا في هذا الحصن؟ عندها مددت يدي، دون وعي مني، وربت على كتفه. بل وابتسمت أيضا. قلت له بلطف وثقة مفتعلة " لا أحد سيعيدك إلى هناك. ". تداعى بين ذراعي، مبللا قميصي بالمخاط والدموع واللعاب." سيكون كل شيء على ما يرام.". أعدت العبارة مرات ومرات. كان ذلك يوم غادرني الغضب.

فيما يزيد عن الشهرين من شروعه في الكتابة، وقبل اكتشافه ومصادرة يومياته، كان لومبا قد وضع عددا كبيرا من العناوين. كانت في معظمها قصائد ورسائل إلى أشخاص

مختلفين من حياته في فترة ما قبل السجن التـــي صـــارت الآن غائمة. رسائل لم يكن يهدف إلى إرسالها. هناك أيضا مناجيات وحوارات داخلية طليقة.

كانت القصائد في غالبيتها قصائد حب، أبيات فارة مـــن شعراء كان قد قرأ شيئا مـــن شـــعرهم أثنـــاء الدراســـة: دان، شكسبير، غريفز، إليوت، إلخ. بعضها كان قد ألفه منـــذ زمـــن وأعاد كتابتها من الذاكرة، ولكن الكثير منها كان إبداعا طازجـــا ـ دفقات مشاعر معناة نحو نساء عرفهن وأعجب بهن، وربمـــا أحبهن. قد يكن، بالطبع، كائنات متخيلة، سبكت في مصهر عقله المصاب بحمى السجن. واحدة من القصائد تبدو كضراعة كثيرة الشك، ومع ذلك حارة الرجاء، موجهة إلى الله:

يا الله، مرت علي أيام في سواد القار

وليال قرمزية كالدم،

لكنها عبرتني، كالمياه.

فلتجعل هذه، هي الأخرى، خفيفة علي

كصخرة ملساء تتدحرج نازلة التل،

نازلة ظهري، بشرتي، كالمياه المنعشة.

تلك الضراعة، كتب فيما بعد، كانت على شفتيه يوم انفتح الباب دون سابق إنذار ودخل مدير السجن محفوفا على الجانبين بحارسين يحملان هراوتين.

الإثنين، سبتمبر

لقد انتظرت ذلك، توقعته في كرب مع كل يوم من الأيام الماضية، مع كل جملة مستسرة كتبتها. عندما وقف هناك وبدا لي أضخم من الحياة، أضخم من الزنزانة الضيقة الخفيضة، أدركت أنه قد جاء من أجلي أنا. الكلبان اللذان معه لحسا شفاههما وجأرا. طافت عيونهما في شراهة على النزلاء المتجمدين في جلستهم أو وقفتهم أو انحنائهم، ضحكا، كشرا، استطلعا، مثل شخصيات السينما الصامتة. " لومبا، تعال!."، دوى صوته فجأة. بدا صوته في الصمت المتجمد كصوت تحطم زجاج على الرصيف، ولكنه أكثر خشونة، ودونما رنين. كنت فوق حِشيتي على البلاط، مستندا بظهري إلى الحائط الرطب. نهضت. تقدمت.

سلط علي عبوسه" وإذن، فأنت لومبا.".

" أجل. أنا لومبا."، قلت. لم يخذلني صوتي. بعدها أومأ،

بالكاد، إلى الحارسين. وثبا في شراهة، كسلوقيي صيد يتشممان أثر أرنب. اتجه أحدهما إلى تجويف صغير في أسفل الحائط، يكاد يكون محجوبا بحشيتي. أزاح الحشية جانبا وأقحم إصبعين في الشق المثلث. أخرج لفيفة سميكة من الورق. نظر نظرة زهو وهو يمدها إلى المدير. كان مخبرهم دقيقا. وصل السلوقي الآخر دون أي تلكؤ إلى حفرة صغيرة في السقف المتآكل المليء بأشكال رسمتها مياه المطر وأخرج لفيفة ورق أخرى.

" ابحث عن المزيد!."، نبح المدير. فتح اللفيفتين. بدا أنه اندهش لعدد الأوراق الذي في يديه. أنا اندهشت. لم أكن أدري بأنني قد كتبت كل هذا القدر. أثناء ما كان الكلبان يفتشان الحفر والشقوق حولا أنفيهما تجاه أمتعتي الشخصية. رفعا حشيتي ونفضاها وتشمماها وجساها. مزقا من على ظهرها غلافها المهلهل. لم تكن هناك أوراق. أخذا المخدة - حقيبة الظهر (ساق بنطلون جينز قطعت من عند منتصف الفخذ وربطت عند الكاحل) ونثرا محتوياتها على البلاط: قميصان باليان، بنطلون، مشط بلاستيكي، فرشة أسنان، قالب صابون نصف مستعمل، وقلم رصاص. هذه هي حصيلة حياتي، قلت لنفسي. هذا هو ما صرت إليه. نثار الانفجار: مشط، فرشة أسنان، صابون، قميصان، بنطلون، وقلم رصاص. انقضا على قلم الرصاص قبل

أن ينتهي من تدحرجه على البلاط، حتى كادا، في اندفاعهما، أن يصدما رأسيهما ببعضهما.

" قلم رصاص!."، صاح المدير هازا رأسه، معربا عن اندهاشه. كان السجناء يقفون في قوس صامت مشدود. تمشى بطول القوس، عارضا الأوراق وقلم الرصاص، مقوقئا" ورق. وقلم. في السجن. هل تصدقون؟ في سجني!.".

كنت محشورا، كحشوة الشطيرة، بين السلوقيين، متابعا الدراما في صمت. أحسست أنني خارجها تماما. أخيرا، استدار المدير نحوي. ثنى جذعه قليلا دافعا وجهه قرب وجهي، حتى شممت رائحته المزعجة، وتبينت المنابت البيضاء لشنبه المصبوغ في عناية.

" سأسأل. مرة. من أعطاك. الورق؟"، هكذا تكلم، في جمل متقطعة متشنجة.

هززت رأسي. بذلت ما في وسعي كي أجابه حملقته المتقدة.

" لا أعرف.".

ندت عن بعض النزلاء آهات انصدام، لاعتبارهم إجابتي جسارة حمقى. اعتقدوا أنني أحاول، بغباء، حماية مصدري.

ولكنني رأيت تعاطفا في عدد من العيون الأخرى. لقد أدركوا أنني نسيت فعلا من أين جاءت الأوراق.

" مممم"، جأر المدير. كانت عيناه مسلطتين على الأوراق التي بين يديه وهو يفتحها ويطويها. كنت مستغربا من كونه لم يثب علي حتى الآن. لعله كان يعطيني فسحة لأعيد النظر في قراري العبثي بحماية من كنت أحاول حمايته. الأوراق. لعلها انقذفت من بين قضبان الباب من قبل ريح حارسة كانت تطوف بساحة السجن ذات عشية. لعل حارسا عطوفا دس سراء، وهو يرى توقي إلى التعبير عن نفسي يتلألأ على وجهي كالنيون، لفيفة ورق في يدي وهو يمر بجانبي في الساحة. ربما - وهو ما يبدو أكثر احتمالية - اشتريتها من نزيل آخر(كل شيء قابل للشراء هنا في السجن، من الماريجوانا إلى المسدس). لكنني نسيت. ففي السجن تصبح ذاكرة المدى القصير حليفا ينبغي تعهده بأي ثمن.

" أعيد. سؤالي. من أعطاك الأوراق؟". أرعد في وجهي، ناثرا علي اللعاب.

هززت رأسي. " لقد نسيت.".

لم ألحظ. ولكن لا بد وأنه أشار إلى أحد السلوقيين. كل ما

شعرت به هو ضربة غاشمة على قذالي. ترنحت إلــى الأمــام مباغتا بالألم غير المتوقع والمفاجأة. اصطدم وجهــي بقــضبان الباب وتهاويت أمام حذاء المدير. رأيت الدم في الموقع الــذي لامس فيه وجهي البلاط. انتظرت. حدقت، مشلول الإرادة، فــي انعكاس عيني على الصفاء الشديد اللمعــان لمقدمــة الحــذاء. ارتفعت إحدى فردتي الحذاء وحطت على رقبتــي، ضــاغطة وجهي على البلاط.

" إذن. لا تريد. أن تتكلم. من تعتقد نفسك. إذن."، صرخ " أنت. مخطيء. عشرون سنة!. تلك هي المدة التي قضيتها فــي التعاطي مع الأوغاد الحقيرين مثلك. ليكن هذا عبرة لكم جميعا. لا تفكروا. أنه يمكنكم خداعي. لــدينا مــصادر معلومــات. لا يمكنكم. سيؤخذ هذا الحشرة إلى السجن الانفرادي وسيتم التعامل معه بشكل ملائم. إلى أن. يصبح بمقدوره. الكلام.".

تخيلت عينيه تجوسان بخبث عبر الزنزانة البائسة الضيقة موبخا كل واحد من الستين نزيلا على حدة. ازداد ضغط الحذاء على رقبتي، حتى أحسست بإحدى أسناني تنثني عند الجذر.

" لا تظنوا أن كونكم مساجين سياسيين. موقوفين يجعلكم غير معرضين للأذى. خطأ. جميعكم جرذان. مخربون. جرذان

مضادة للحكومة. هذا كل ما هنالك. جرذان.".

لكن المدير كان أكثر رسوخا في أساليب التعذيب من أن يلقي بي في السجن الانفرادي مباشرة ذلك اليوم. مر يومان من الانتظار قبل أن يأتوا ويعصبوا عيني ثم يمضوا بي بعيدا إلى قسم الحبس الانفرادي. في الليل. ثمان وأربعين ساعة. في العشرين ساعة الأولى انتظرت وعيناي مثبتتان على الباب، لما يفتح أستجمع عزيمتي، فيظهر الطباخون جالبين الطعام، والحراس الذين يقومون بالتمام ليعدوا النزلاء تلك الليلة، أو فريق نقل دلاء الغائط. خلال الأربع والعشرين ساعة التالية أسقطت رأسي على صدري امتناعا عن النظر إلى أعلى. كنت مرهقا. امتنعت عن الأكل والكلام والحركة. لقد كنت أتدرب على السجن الانفرادي.

* * * *

جاءا حوالي العاشرة ليلا. السلوقيان. ضاربين القضبان بهراوتيهما، صائحين باسمي، لاعنين وراكلين كل من كان في طريقهما. هببت واقفا على قدمي قبل أن يصلاني، وحقيبة الظهر (ساق البنطلون) مشدودة إلى يديَّ كالترس. وقع ضوء مصباحيهما اليدويين على وجهي كالصاعقة.

" لومبا!."

" تعال هنا!. تحرك!."

" هيا، اخرج. الآن!."

تحركت، متخطيا الأشـخاص الجالـسين علـى الـبلاط محملقين. سقط الضوء على حقيبة الظهر.

" ماذا بيدك؟ إلى أين تعتقد أنك ذاهـب؟ أعطنـي ذلـك. تعال!. تحرك!."

* * * *

في الخارج. قعقع باب الزنزانة منغلقا خلفنا. كان المبنـى بكامله في الظلمة. فقط أضواء مصابيح المراقبة المعلقة بالأعمدة تلمع في نقط الحراسة. وعن بعد لاح سور السجن هائلا وقاسيا، كجبل. زجاجات مكسورة. أسلاك شائكة. ثم وضـعوا الغِمامـة على رأسي، ارتفعت يداي غريزيا، ولكنهما أمسكتا وثنيتا وراء ظهري وغلتا.

" اتبعني.".

كان أحدهما أمامي، والآخر ورائي، يلكزنـي بهراوتـه. تتبعت وقع الخطوات متعثرا. كان سهلا علي في البداية تخمين أين كنا. توجد ثمانية مبان داخل محيط السجن، المبنى الذي نحن

فيه هو الوحيد المخصص للمعتقلين السياسيين. أربعة مبان أخرى تحيط بمبنانا مخصصة للرجال المنتظرين المحاكمة. من بين المباني الثلاثة المخصصة للمدانين في جرائم كان واحد للمحكومين حكما، مؤبدا وآخر يبعد كثيرا عن غيره من المباني، للمحكومين بسنوات. اجتزنا الآن المساحة الوسطى حيث يجري الحراس استعراضهم الصباحي. استدرنا يسارا ناحية مباني المدانين، ثم يمينا ناحية... استدرنا يمينا ثانية، ثم أماما... تبعت الحذاء، تائها تماما الآن. أدركت أن هذا السير الإجباري لا هدف منه، أو أن هدفه كان، بالأحرى، عدم الوصول إلى أي مكان، مباشرة. إنه جزء من التعذيب. سرت. سرت وسرت. وكنت أصطدم بالحارس الذي أمامي كلما توقف فجأة.

" ألا تنظر؟ يا غبي!."

أحيانا أسمع صوتيهما وهما يتبادلان قهقهات الاستغراب والسرور مع حراس آخرين. سرنا ما يزيد عن ثلاثين دقيقة، قدماي الزلقتان تشققتا ودميتا جراء اصطدامهما بالأحجار. سلبني شد يدي إلى ظهري إمكانية المحافظة على التوازن، فكنت كثيرا ما أقع، وعندها كنت ألكز وأركل. كان باستطاعتي في بعض الأماكن - بالقرب من أعمدة الضوء - أن أرى

ومضات ضوء قصيرة. وفي أمكنة أخرى كان الظلام سـميكا كالحيطان ومخيفا. تذكرت صلصلة الخطـوات الراسـفة فـي السلاسل التي كنا نسمعها عبر نافذة زنزانتنـا أواخـر الليـل. خطوات متجرجرة حزينة. محكومين بالإعدام شنقا يمضون إلى حجرة الإعدام، أو أشباحِهم العائدة. كنا نتمـدد فـي الظـلام، مصابين بالجمود بينما الصلصلة تبتعد لتتلاشى في النهاية.

الآن نحن على البلاط، لعله ممر. الخطوات التـي أمـامي توقفت. انتظرت. سمعت معدنا يطرق معدنا. ثم صرير المفاصل. تناولت يد رسغي، لامسني معدن بارد أثناء ما كانت الأغلال تفك. شعرت بيدي خفيفتين بسبب التحرر. لا بد وأنني كنت أقف أمـام باب الزنزانة مباشرة، لأنه حين دفعتني يد خلفي إلى الأمام ترنحت إلى الداخل. مازلت معصوب العينين، لكنني شعرت بتغير في شدة الظلام: صار أشد كثافة، وكان علـي أن أمخـره كـي أتحـسس الحيطان. كان ذلك كل شيء: الحيطان شـديدة التقـارب بحيـث شعرت أنني كشخص في حفرة. انحنيت فلمست مقعـدا. جلـست. سمعت الباب يوصد. سمعت خطوات منسحبة. حين أزلت الغِمامة ظل الظلام على حاله، فقط قليل مـن الهـواء لامـس وجهـي. أغمضت عيني. لا أدري المدى الذي بقيته على هذه الحال، منحنيا

أماما على المقعد، قدماي الملتهبتان النابضتان ألما تستقران على البلاط، ذراعاي على ركبتيَّ، وعيناي مغمضتان.

كما لو أن الروائح شعرت بقرب انهمار دموعي، فنهضت من الزاوية حيث تستقر، نفضت الغبار من على أكفالها واصطفت لتتعرف علي - لتبعدني عن أفكاري الحزينة. صافحت أياديها واحدة فواحدة: رائحة الوحدة، رائحة الغضب، رائحة الانتظار، رائحة الاستمناء، أما رائحة الخوف فقد ملأت الحجرة الصغيرة من الأرضية وحتى السقف طاغية على الأخريات. لم أبك. فتحت شفتي، ومثل بوذي يتلو تعويذته، تضرعت ببطء:

فلتجعل هذه، هي الأخرى، خفيفة علي

كصخرة ملساء تتدحرج نازلة التل،

نازلة ظهري، بشرتي، كالمياه المنعشة.

* * * *

ظل في السجن الانفرادي ثلاثة أيام. وعلى هذا النحو وصف الزنزانة في يومياته: كانت الأرضية حوالي ستة أقدام في عشرة، وكان السقف يبعد عن الأرضية حوالي سبعة

أقدام. توجد قطعتا أثاث: المقعد الحديدي بفَرشته المهلهلة العاجة بالقمل، ودلو الغائط في الركن.

اتصاله الوحيد بالخارج يحدث حين تدفع حصته من الفاصوليا، مرة في اليوم عند الساعة السادسة مساء، إلى داخل الزنزانة، عبر كوة ذات غطاء سائب أسفل الباب المصنوع من الحديد المطاوع، ثم عند تمام الثامنة مساء حين يفتح له الباب ليخرج دلو الغائط ويستبدل به واحدا فارغا. كتب أن الشيء الوحيد الذي يميز به الليل من النهار هو حركة أمعائه - بسبب الجوع أو بسبب الإفراغ.

ثم في اليوم الثالث، آخر المساء، شرعت الوقائع تجري. جاء إليه المدير، مثل نيقوديموس [1]، سعيا وراء المعرفة.

(1) Nichodemus " من أعضاء المحفل في أورشليم. تلميذ المسيح. جاء ذكره في الإنجيل .اضطهده اليهود." المنجد.

اليوم الثالث. الزنزانة الانفرادية

حين سمعت ملامسة المعدن لقفل الباب جلست قاطعا مشيي الأعمى. تحكمت في ملامحي. انفتح الباب، سامحا بدخول أشعة ضوء غير معتادة. طرفت عيناي." أوه، أيها الضوء العذب، لعل التقاء وجهك بوجهي يجلب لي الحظ.". حين ألفت عيناي الضوء كان المدير يقف عند العتبة - بدا مدخل الزنزانة إطارا ضيقا بضوء يتألق حول هيكله المتراقص. تقدم إلى داخل الزنزانة ووقف في وسطها، أمامي، في وضعي الضعيف على المقعد. كانت ساقاه تنتصبان متباعدتين مثل حرف (A). بدا كإحدى شخصيات الرسوم المتحركة: بنطلونه الرسمي الشبيه بتلك التي تلبس عند ركوب الخيل يبرز ضمور بطتي ساقه، في موضع دخولهما الحذاء اللامع. كرشه تندلق معلقة مثل حقيبة لينة مشدودة بحزام. سرح صوته. لما نظرت إلى وجهه رأيت شفتيه المكتنزتين ترتعشان بجهد للإيتاء بابتسامة. لكنه لم يستطع القيام بها. ابتدأ الكلام، ثم توقف فجأة وأخذ يذرع المساحة الضيقة التي أمام المقعد. حين عاد إلى وضعه الأصلي توقف. الآن انتبهت إلى لفيفة الأوراق في يده. لوح بها في وجهي.

" هذه. هي. أوراقك.". كانت إنغليزيته أكثر تفككا من المعتاد. كان يزداد تبللا مع كل جهد يبذله في قول ما يريد قوله. " قرأت. كلها. قرأت ملفك مرة أخرى. أيضا. أنت صحفي. هذه سنتك الثانية. هنا. تنتظر المحاكمة. بسبب تنظيم العنف. مظاهرات احتجاج. مظاهرات معادية للحكومة. ضد الحكومة العسكرية الشرعية.". لم يرعد كما كان معتادا.

" هذا ليس صحيحا."

" آهه؟". ظهرت المفاجأة على وجهه بشكل مضحك. " تنكر؟"

" لم أنظم مظاهرة. ذهبت إلى هناك لتغطيتها."

" حسنا.". هز كتفيه." هذا ليس شأني. الحقيقة. سوف تظهر حين. تحاكم.".

" ومتى سيكون ذلك؟ لقد نُسيت. لم يسمح لي بمحام، أو زوار. إنني أنتظر المحاكمة لمدة سنتين الآن...".

" هل تشكو؟ انظر. لقد عملت لمدة عشرين سنة في السجون في أماكن مختلفة من هذه البلاد. نيجيريا. شمالا. جنوبا. شرقا. غربا. عشرين سنة. لا تكن غبيا. أحيانا هذا

لصالحك. كيف. هل يمكن لك كسب قـضية ضـد الحكومـة؟ الانتظار. أمل."

الآن خفض من صوته، كالمتآمر." قد يحـدث انقـلاب آخر، أهْ ؟ قد يمرض الرئيس ويموت. رغم كل شـيء، فهـو فان. قد تأتي حكومة مدنية. عنـدها. سـيكون هنـاك عفـو. لا تقلق. متع نفسك.".

نظرت إليه، وهو منغرس أمامي كشجرة، يداه معقودتـان وراء ظهره وعلى شفتيه ابتسامة لزجة. متع نفسك. قلبت الجملة في ذهني مرات ومرات. حين أستلقي طلبا للنوم تبقيني الجرذان مستيقظا، وكذلك البعوض، والقمل، والجوع، والوحدة. تعـض الجرذان أصابع قدمي وتسعى منتشرة على الـسقف الخفـيض، أحيانا تسقط من حفر السقف فوق وجهي. متع نفسك.

" أوراقك.". قال، مقربا إياها مني أكثر من ذي قبل. لـم أكن متأكدا من أنه يعطيها لي. " لقد قرأتها. كلهـا. القـصائد. الرسائل. ما من مشكلة مع القصائد. الرسائل، ممنوعـة. لقـد أحرقتها. أحيانا يهرب السجناء رسائل إلى الصحافة فيظهروننا أغبياء. يحرجون الحكومة. ولكن القصائد لا ضرر بها. قصائد حب. ويوميات. كتبت القصائد لفتاتك، أليس كذلك؟".

انحنى إلى الأمام، وربت بيده على كتفي. أدركت متعجبا أن الرجل يحاول، بسذاجة ودون تحفظ، أن يعرض علي صداقته. وقعت عيناي على الحذاء الذي كان قد وطأ رقبتي منذ خمسة أيام فقط. ماذا يريد؟

" ربما لأنني أعمل بالسجن. أرتدي لباسا رسميا. تعتقد أنني لا أفهم في الشعر، أهْ؟ سوينكا. أوكيغبو. شكسبير.".

كان واضحا أنه يرغب في الحديث عن القصائد، ولكنه يجد صعوبة في البداية.

" ما الذي تريده؟". سألته.

تراجع مستعيدا انتصاب قامته بالكامل." أكتب قصائد أنا أيضا. أحيانا.". أضاف بسرعة عندما أخذ التعجب يزداد على وجهي. أدخل يده في جيب سترته وأخرج ورقة كبيرة. فتحها ومدها إلي. " اقرأ.".

كانت قصيدة، مكتوبة بخط اليد. كان العنوان مكتوبا بالحروف الكبيرة: " حبي لك.".

كالحالم، مررت بعيني على الخربشات. بعد المقطع الأول انتبهت إلى أنها تقليد لإحدى قصائدي، اجتهد في حجبه.

أحسست بانتظاره. كان بالكاد يتنفس. تركته ينتظر. يا إلهـــي، أكاد لا أذكر أي وقت آخر شعرت فيه بمثل هذا الارتياح. بمثل هذه القوة. كنت صاموئيل جونسون وكان هـــو شـــاعرا ناشـــئا ينتظر حكمي في قلق يسأل مرتعشا: " سيدي، هل هذا شعر، هل هو كذلك يا بندار؟".

أردت أن أقول بأكبر قدر من السخرية يمكنني أن أظهره في صوتي: " قصيدتك، يا سيدي، أصيلة وشيقة، ولكن الجانـــب الشيق منها ليس أصيلا، كما أن الجانب الأصـــيل منهـــا لـــيس شيقا.". ولكن كان كل ما قلته: " ليست سيئة. إنها تحتاج منـــك إلى عناية أكثر.".

زالت اللهفة من وجهه وسرعان ما حل التقطيب محلهـــا. " لقد وعدت محبوبتي بقصيدة. إنها متعلمة، تعـــرف. معلمـــة. ستكتب لي قصيدة. لمحبوبتي.".

" تريدني أن أكتب لك قصيدة؟". حاولت ألا أظهـــر فـــي صوتي الدهشة، الاضطراب، و، أجل، التوق. لقد كان يتيح لي فرصة للكتابة.

" أنا مسرور لكونك تتفهم. اسمها جانيس. خريجة جامعـــة. أنيقة. ليست كبقية الفتيات. تدرس في مدرسة ابني. لهذا تعارفنا.".

حتى السجناء يقعون في الحب، فكرت في نفسي.

" في البداية لم تأخذ الأمر جديا. ظننت أنني فقط أريــد أن أستخدمها ثم ألقي بها. وأيضا. نحن من ديانتين مختلفتين. هـــي مسيحية وأنا مسلم. لكن ليست هناك مشكلة. أنا أحبها. إلا أنهـــا مازالت متشككة. لم أكن أدري ماذا أفعل. إلى أن رأيت إحـــدى قصائدك... نعم، هذه.". مد لي القصيدة. " لقد قالت كل ما كنت أريد قوله لها.".

كانت واحدة من قصائدي الباكرة، أعيدت كتابتها من الذاكرة.

" (ثلاث كلمات). أعطيتها لها بالأمس عندما خرجنا معا.".

" أعطيتها قصيدتي؟".

" نعم.".

" قلت لها... قلت لها بأنك أنت من كتبها؟".

" نعم، نعم، بالطبع. أعدت كتابتها بخط يدي.". قال، دون إحساس بالخجل. كان يتكلم في اندفاع، والآن استعاد جماع ذاته وأخذ، كما لو أنه كان يريد إعادة التأكيد على ســلطته، يــذرع الحجرة متكلما في نبرة محسوبة ومنضبطة." يمكنني أن أجعــل حياتك أكثر راحة هنا. أنا مدير السجن. ما من شيء لا يمكنني

عمله، لو أردت. فلتكتب إذن. لي. القصيدة.".

ما من شيء لا يمكنني عمله. يمكنك أن توفر لي السغائر، أنا على ثقة من ذلك، والطعام. يمكنك إخراجي من السجن الانفرادي. ولكن هل يمكنك وضعي خارج هذه الجدران، حرا تحت النجوم؟ هل يمكنك أن تجعل نهايات يدي الممدودتين تلامس النجوم ليسري مد الحرية عبر جسدي حتى يصل إلى العشب الزغب الطري تحت أقدامي؟

طلبت ورقا وقلما. وكتابا أقرأه.

* * * *

نقل من قسم السجن الانفرادي في نفس ذلك اليوم. جاء القلم والورق، وكذلك الكتاب. ولكن ليس ذلك الذي طلبه. كان قد طلب كتاب وول سوينكا عن السجن" مات الإنسان" ولكن الكتاب الذي جاءه كان" موجز تاريخ غرب أفريقيا". كان لومبا، وهو يكتب قصائده في الزنزانة، يتيح لعقله السرحان أحيانا، يتخيل المدير ومحبوبته خارجين في لقاء غرامي، كيف يخرج ورقة القصيدة ويفتحها ويمدها لها قائلا في وقاحة" لقد كتبت هذه من أجلك. أنا نفسي.".

* * * *

جلسا في الشرفة بناء على اقتراحها. ضوء المصابيح الصينية المعلقة التي تؤرجحها الريح يسقط عليهما في نعومة. النسيم القادم من البحيرة يمنح أنفها رائحة منعشة، تحب طراوته إذ تلامس زنديها العاريين ووجهها. تنظر إليه من فوق المنضدة الدائرية، ذات المزهرية التي تحضن وردة واحدة. هو يبدو متوترا. تغطي جبينه طبقة رقيقة من العرق. ينزع قبعته ويمسح جبينه بمنديل أبيض.

" هل أعجبك، المطعم الصيني؟" يسأل، كأب يطمح إلى أن يمتع طفله الأثير. هذا خروجهما الأول معا. ألح عليها إلى أن رضخت. تحار أحيانا كيف تقابل تأمله فيها. تتنهد. تشيح بوجهها الريان ناحية البحيرة الزرقاء. زورق أبيض بخطوط سوداء يمرق مسرعا، شكل ما، لا يكاد يبين، يجثم داخله. فستانها الخفيف المزهر يهفهف بفعل النسيم الخفيف. تنظر إليه مباشرة. يمسك بعودي الأرز في غير خبرة، ولكن بحزم.

" أيها النادل.". يجأر، وفمه ممتليء بالسمك، فيجعلها ذلك تجفل." أحضر زجاجة نبيذ أخرى!.".

"لا. هذا يكفي بالنسبة لي. حقيقة.". تقول بعزم، واضعة عوديها.

* * * *

بعد الوجبة، اللذيذة جدا، يرفع أمامه قدح الخزف الصغير المليء بالنبيذ ويقول:" في صحتك. وصحتي.".

تترشف شرابها، متفادية عينيه.

" أحبك، يا جانيس. كثيرا. أعرف أنك تظنين أنني لست جادا. أنني أريد فقط أن أمتص. الرحيق ثم أرمي القشرة. كلا.". يقحم، فجأة، يده في جيب قفطانه الأبيض المكوي بعناية ويخرج ورقة صفراء.

" اقرأي وانظري.". يدفع نحوها بالورقة من فوق المنضدة." أنا كتبتها. من أجلك. قصيدة.".

تفتح الورقة. بها رائحة خشب صندل خفيفة. تنظر إلى العنوان: (ثلاث كلمات). تمد يدها من فوق المزهرية ذات الوردة البيضاء الوحيدة، فوق زجاجة النبيذ، قدحي النبيذ، وتغطي، لبرهة، ظاهر كفه المشعرة بكفها." شكرا.".

تقرأ القصيدة، وهي تميل في كرسيها ناحية الضوء المرتعش المنبعث من المصباح:

ثلاث كلمات

حين أسمع ضحكتك الصافية كخرير الشلالات،

حين أرى نعومة الضوء بعينيك،
أشعر كما لو أنني أسدلك بكاملك على نفسي، كعباءة،
لأدفأ بدفئك.
براءتك التي في نقاء النويرة، ريعان شبابك الدائم -
فتنتك التي لا تحد.
كلها تجعل خاطري يجمح في تحليقات خيالية:
أضيف كلمة إلى كلمة،
أقارن بين الصفات وأصيغ جملا غريبة
ولكنها تبدو مطروقة كلها، طنانة، قاصرة
عن قول ما أريد قوله لك.
لذا عذت بهذه الكلمات البسيطة،
مطمئنا إلى نبرتي، ويدي في يدك، وأنا
أهمس بها، لأمنحها عمقا وانعطافات
جديدة في المعنى. ثلاث كلمات:
أنا أحبـك.

* * * *

بدأ لومبا، مع قصيدته الثالثة أو الرابعة للمدير، يرسل إلى جانيس، التي بدت متوفرة على شهية لا تشبع لقصائد الحب، رسائل خفية. مساء كل يوم يأتي حارس إلى الزنزانة حاملا من المدير نفس الطلب." القصيدة.". ولما نضب، في النهاية، معين قصائده هو، صار ينتحل، من الذاكرة، كبار الشعراء. هذه افتتاحية إحدى القصائد المنتحلة:

جمالك يا جانيس، بالنسبة لي

ككنوز الذهب...

وتبدأ أخرى:

أتساءل، يا قلبي، ما الذي فعلناه أنت وأنا

قبل تحاببنا

لكن تصرفه في قصيدة سافو هو ما جعل المدير يأتي إلى باب الزنزانة:

أراها صنو الإلاهات

المرأة اليانعة الجالسة قبالتي

وجها لوجه،

و هي تصغي لنغمات صوتي العذبة،
و فتنة ضحكاتي.
هذا ما يجعل قلبي يخفق
في صدري،
لو نظرت إليك، ولو لبرهة،
لفقدت التحكم في صوتي،
وأضحى لساني عديم النفع
وعم لهب مخدر جسدي
وغامت عيناي،
تفصد العرق مني
وعرتني رعشة
وصرت أشد شحوبا من القش
وخذلتني قواي
وبدوت على شفا الموت.

جاء إلى باب الزنزانة في غضون أقل من عشرين دقيقة بعد تلقيه القصيدة، ملوحا بالورقة في الهواء، وابتسامة حقيقية تفلع وجهه الغرانيتي.

" اخرج، يا لومبا!.". جأر خلال القضبان. كان لومبا يستلقي على ظهره فوق حشية رقيقة، محاولا استخراج أشكال من آثار المطر على السقف. سارع الضابط المسؤول على فتح الأبواب بفتح الباب بدفعة شديدة.

وضع المدير يده على كتفي لومبا في ود. لم يكن يستطيع الوقوف بثبات. تمشى مع لومبا جيئة وذهابا عبر الساحة المعشبة.

" هذه القصيدة. رائعة. بهذه القصيدة. فيما بعد. سأطلب منها الزواج.". كان مستثارا حد التشوش. رفع الورقة وقرأ السطر الأول عاليا، مزويا عينيه بسبب ضوء النهار:" أراها صنو الإلاهات.". أجل. رائع. ستفرح. هل ترى أنه علي أن أطلب منها. الزواج. اليوم؟".

وقف أمام لومبا، مائلا إلى الأمام في ترقب، ساقاه منزرعتان على هيئة حرف (A).

" لم لا؟". أجاب لومبا. حدق حارس عابر في المدير والسجين في استغراب. كان ضوء النهار يسقط كليلا على الزجاجات المكسورة المنتشرة على سور السجن.

" نعم. لم لا. حسن.". أخذ المدير يتمشى جيئة وذهابا، يداه معقودتان خلفه، وقد أحنى التفكير رأسه. أخيرا، وقف أمام لومبا وأعلن في جدية:" الليلة. سأطلب منها ذلك.".

ابتسم له لومبا، في حزن. رأى المدير الابتسامة، ولم ير الحزن.

" حسنا. أنت مسرور. أنا مسرور أيضا. سأرسل إليك علبة سغائر. علبتين. اليوم. تمتع. عد إلى الداخل الآن.".

استدار على عقبيه فجأة، وسار مبتعدا.

سبتمبر

جاءت جانيس لزيارتي بعد يومين من كتابتي قصيدة سافو لها. فكرت، لقد اكتشفت رسائلي السرية، نص [إشارات] مورس (1) المدسوس بحسن نية في سطور القصائد التي كتبتها.

الساعة الثانية ساعة هدوء إجباري. استيقظت على انفتاح الباب. شعرت بأطرافي ثقيلة وجامدة. خشيت من أن أكون مريضا. اتجه الحارس إلي مباشرة.

" هيا. انهض. المدير يريد رؤيتك.". كان جلده خشنا، في سواد الفحم. كان بدينا وكلامه يصدر في لهثات مجهدة." هيا،. انهض.". كرر في نفاد صبر.

كنت في حالة سرنمة وخدر يمر بها بكل تأكيد الأشخاص المحكومون وهم ينتظرون مصيرهم في خمول وقنوط، دونما خوف أو رجاء، لأن لا شيء يمكن تغييره. ما من أصبع ضوء مخضل بالندى يأتي ليخترق ظلام الهاوية المرين

---

(1) الرموز التي تكتب بها البرقيات، والتي وضعها الأمريكي صاموئيل مورس (1872 - 1791) Samuel Morse خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وهو في الأصل رسام اشتهر برسم البورتريهات.

حيث يقطنون. لم أكن أرغب في كتابة مزيد من القصائد لحبيبة المدير. لم أعد أرغب في سغائره. تعبت من الإيماء إلي من وراء ظهري، من تبادل الهمس عني بين النزلاء باعتباري مخبر المدير، مَعينه الثابت. أرغب في استعادة كرامتي الضائعة. الآن صرت أدرك أنه لم تعد لي" نفس" لأعبر عنها، تلك النفس طارت مبتعدة يوم أن لامست السلاسل يدي. لم يبق هنا شيء سوى ركام من العظام الناتئة، شعر مشعث وعينين دامعتين، إست للخراء والضراط، وإير يتصلب في الصباح عبثا. النفس الباقية، هذا اللهاث المنهك الذي تضربه الأمواج على برادة الحديد بشواطيء هذه الجزيرة المخصصة للعقاب، هي لا شيء سوى هواء ساخن، وشعر، وأذنين تصيخان، آملتين...

لذا قلت للحارس" لا أرغب في رؤيته اليوم. قل له إنني مريض.".

تغضن الوجه السمين. رفع هراوته في استجابة بافلوفية [1] " ماذا ؟ ". لكن عيوننا تلاقت. كان من النباهة بحيث تبين علامة " ممنوع المرور" المكتوبة في عينيَّ. من النباهة بحيث رضخ.

(1) نسبة إلى بافلوف صاحب نظرية الارتباط الشرطي المعروفة في علم النفس.

تراجع هازا كتفيه." ستعاني جراء ذلك.". أرغى، ثم ذهب.

كنت واعيا بالعيون المستغربة وهي تحدق بي. أغمضت عيني. حلق عقلي فوق أسوار السجن إلى دنى أخرى. حر. حلمت بأنني أقف تحت النجوم، يداي مرفوعتان، ونهاياتهما تلامس كهرباء النجوم النابضة المتلألئة. سيهطل المطر. لن يكون ثمة شيء آخر: فقط أنا والمطر والنجوم وقدماي على العشب الزغب المندى، نوصل بالأرض كهرباء الحرية.

عاد من فوره تقريبا. بدت على وجهه السمين تكشيرة هزء وهو يناولني قصاصة ورق. تبينت فيها خربشة المدير الركيكة. كانت موجزة، سطرا واحدا: جانيس هنا. احضر. الآن. مفكك، حتى في الكتابة. نهضت وارتديت قميصي الذي جعله العرق يبدو باسما. أقحمت قدمي في فردتي نعلي القديم البالي. تبعت الحارس. اجتزنا ساحة الاستعراض، ومبنى المحكومين. ثمة بوابة حديدية، عند أقصى اليمين، موصدة على نحو دائم، تفضي إلى قسم النساء. اجتزنا المغسلة القديمة التي تحولت الآن إلى محل حلاقة يعمل يوم السبت، وهو يوم النظافة في السجن. فتح حارس مسلح بابا صغيرا في البوابة الهائلة المفضية إلى الساحة الأمامية حيث توجد مكاتب مسؤولي

السجن. كنت قد جئت هنا من قبل، مـــرة، فـــي يـــومي الأول بالسجن. ثمة سيارات متوقفة أمام المكاتب، مستجدون في زيهم الرسمي المعتنى بتنشيته يذهبون ويعودون، وجـــوههم الـــشابة تعبس على نحو مضحك. سكرتيرات بساعات على معاصـــمهن واقفات في الممرات يتجاذبن أطراف الحديث. لم يكـــن مكتـــب المدير يبعد عن البوابة. ثلاث درجات تقود إلى بـــاب خـــشبي غليظ، يحمل كلمة وحيدة: المدير.

طرق دليلي الباب بلطف قبل أن يدير الأكرة.

" المدير يطلب رؤيته.". أبلغ السكرتيرة. هزت رأســـها، وهي بالكاد ترفع نظرها من علـــى الطابعـــة. كانـــت عيناهـــا ضجرتين وخاليتين من الفضول.

" ادخل.". قال لي الحارس مشيرا إلى مـــدخل محجـــوب بستارة واقع إلى جانب مكتب السكرتيرة. دخلت. كانت امـــرأة ناضجة تجلس على أحد الكرسيين المزودين بمساند للـــذراعين مخصصين للزوار. كانت مستندة بظهرها إلى الباب وذراعاهـــا مرتكزتان على منضدة كبيرة أمامها مغطاة بالفورمايكا. جانيس. وحدها. حين استدارت لاحظت أن الصورة التي كنت قد رسمتها لها في خيالي كانت مطابقة. كانت ريانة. وجهها موح بالحميمية

والألفة. نهضت من على كرسيها وحركته قليلا بحيث صار يواجه الكرسي الآخر. بانت على وجهها ابتسامة مترددة وهي تسأل" السيد لومبا؟".

كدت أن أقول" لا" بسبب تفاجئي " بالسيد". هززت رأسي.

أشارت إلى الكرسي الخالي." اجلس من فضلك.". مدت نحوي يدا قصيرة ممتلئة ناعمة. تناولتها مندهشا من نعومتها. كانت معلمة، لابد أن تكون الخشونة في الأصابع: في نهاية الإبهام والأصبع الوسطى، وداخل السبابة.

" سيكون مفتاو، المدير، هنا حالا. لقد خرج لتوه.". قالت. كان صوتها جليا، حاد النغمة قليلا. كانت إنغليزيتها سليمة، كل كلمة كانت تلفظ وتبلور بعناية. كما في الفصل. ذهلت بمدى ما تبدو عليه من نظافة، نظافة صارخة، بشرتها تتألق كبشرة طفل بعيد الحمام. واضح أنها أجهدت نفسها بشأن مظهرها: ملابسها المسائية الزرقاء بدت جديدة تقريبا، ولكن خطا من أحمر الشفاه امتد إلى خدها بعد أن ضل انحناءة الشفة. وضعت ساقيها على بعضهما ثم فرقتهما، طارقة القدم اليسرى على الأرضية. كانت متوترة. حينها انتبهت إلى أنني لم أنبس بأية كلمة منذ أن دخلت.

" مرحبا بك في السجن.". قلت، دون أن يكون بمقدوري التفكير في شيء آخر.

هزت رأسها. " شكرا. قلت لمفتاو إنني أرغب في أن أراك. القصائد، أدركت أنه ليس هو من كتبها. تغاضيت عن ذلك لمدة، لكنني في النهاية أخبرته.".

فتحت حقيبة يد صغيرة كانت على حجرها وأخرجت منها بعض الأوراق. القصائد. وضعتها على المنضدة وفضتها، ماسحة التغضنات، مسوية انثناءات الزوايا." بعد قصيدة سافو صممت على أن أراك. لقد كانت قصيدتي المفضلة في المدرسة، وأعجبني تصرفك فيها.".

" شكرا.". قلت. أحببت مباشرتها، وحس الدعابة لديها.

" وهكذا فقد قلت له: اسمع. أعرف من هو الكاتب، إنه أحد السجناء، أليس صحيحا؟ فاجأه ذلك. لم يستطع تخمين كيف عرفت. ولكنني سررت لعدم إنكاره. قلت له ذلك. وما دمنا سنتزوج فلا ينبغي أن تكون هناك بيننا أسرار، أليس كذلك؟".

نعم، قلت لنفسي، لقد أدت قصيدة سافو مفعولها السحري. قلت بصوت عال:" تهانيَّ.".

هزت رأسها." شكرا. مفتاو شخص لطيف، حقيقة، عندما تتعرف إليه. ابنه، فاروق، كان في فصلي، لقد أنهـى دراسته هناك الآن. ينبغي أن تراهما معا. إنهما مؤثران جدا. أعرف أن له جانبا مربكا، وأنه كان متزوجا، لكنني لا أهتم لذلك. فبعد كل شيء لي ماض صغير أنا أيضا. من ليس له؟". أضافت الجملة الأخيرة بسرعة، كما لو أنها خشيت من أن تكون قـد باحت بالكثير لشخص غريب. كانت يدها تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل وهي تتحدث، كالمنوم، كقائد الفرقة الموسيقية. بعد وقفة قصيرة أضافت: " على أية حال، فإنه يستحق، بعد المعاناة التي مر بها مع زوجته الأولى، شيئا من السعادة. ظلت في المستشفى سـنة كاملة، قبل أن تموت.".

مفتاو. إذن فالمدير له اسم، وتاريخ، وربما حتـى روح. نظرت إلى صورته المعلقة على الحائط. كان يبدو شابا فيهـا، بوجه جاد وذكي، مثل الحراس المستجدين في الخارج. استدرت ناحيتها وقلت فجأة وبإخلاص:" أنا سعيد لأنك جئت. أشكرك.".

انغمر وجهها بابتسامة واسعة أحدثت به غمازتين. كانت جميلة حقا. تجاوزت ريعانها قليلا، تخطت تاريخ صـلاحيتها، ولكنها مازالت رائعة، مازالت حيوية " أوه، كلا. أنا من ينبغـي

أن تكون مسرورة. أحب مقابلة الشعراء. أحب القصائد. حقيقة.".

" ليست كلها لي.".

" أعرف. ولكنك منحتها إحساسا مختلفا، نبرة مختلفة. وكذلك اكتشفت استغاثتك (1). فكان علي أن آتي...". التقطت القصائد من على المنضدة ومدتها لي. كانت ثلاث عشرة. سبع منها من تأليفي، وست مسروقة. كانت قد وضعت، بعناية، خطوطا حمراء تحت بعض الأسطر في بعض القصائد، في الحقيقة كان السطر ذاته يتكرر.

كانت على وجهها ابتسامة توقع مديح وهي تنتظر تعليقي.

" انتبهت.". قلت.

" طبعا انتبهت. استغاثة لم تكن واضحة في البداية. بدأت ألاحظ التكرار مع القصيدة الخامسة. أنقذوني، سجين."

" أنقذوني، سجين...". في المرة الأولى وضعت الكلمات، في القصيدة الثالثة، ودون تعمد، قمت فقط ببعض التغييرات. ثم

---

(1) في الأصل "S.O.S" و هو نداء استغاثة يمثل الحروف الأولى من كلمات جملة إنكليزية ترجمتها" أنقذوا أرواحنا."

أخذت أعيدها في قصائد لاحقة. ولكن كيف لي أن أخبرها بأن الرسالة لم تكن في الواقع موجهة إليها، ولا إلى أحد غيرها؟ كانت موجهة إلي، ربما، كتبت من قبلي إلى روحي أنا شخصيا، لكل روح أخرى، روح الكون الكلية.

أخبرتها بأنني حين كتبتها في المرة الأولى مات نزيل معي. كان اسمه توماس. لم يكن مريضا. فجأة أخذ يتقيأ عقب وجبة الغداء، وقبل أن يأتي الحراس لأخذه إلى العيادة مات. بهذه البساطة.مات. وأنا أنظر إلى وجهه المتصلب، بفمه المفغور وعينيه المنفتحتين، أثناء ما كان النزلاء يحملونه إلى خارج الزنزانة، تملكني ذعر غير عقلاني. رأيت نفسي أحمل على ذلك النحو، ذراعاي الميتتان تتدليان، ماسحتين الأرض. أجلسني الذعر أرضا، وأنا أرتجف وسط عجيج الحركات والأصوات المثارة بفعل المأساة. كنت خائفا. كنت متأكدا من أنني أوشك على الانتهاء مثل هذه النهاية. هل سبق لك أن شعرت بمثل هذا الشعور، التأكد من أنك على وشك الموت؟ لا؟ أنا سبق لي. كنت على وشك الموت. سيصبح جسدي في إحدى دور الموتى، ثم فيما بعد في قبر دون شاهدة، ودون أن يعلم أحد. دون أن يهتم أحد. هذا يحدث يوميا هنا. أنا معتقل سياسي، وإذا ما مت فهذا يعني أن معارضا قد نقص. حينها كتبت استغاثتي. كانت مجرد

رسالة في زجاجة، ألقي بها في البحر دون كبير رجاء ... توقفت عن الحديث حين أخذت يداي ترتعشان. أردت وضعهما في جيبي لإخفائهما عنها. ولكنها لاحظت ذلك. نهضت من كرسيها وجاءت إلي. أخذت يدي في يديها.

" لن تموت. سوف تخرج حيا. سينتهي كل هذا يوما ما.". قالت. صعد عطرها، ممزوجا برائحة أنوثتها، في خياشيمي: زهريا، مِسكيا. نسيت آخر مرة وقفت فيها امرأة بهذا القرب مني. أحيانا في زنزانتنا، حين تهب الريح من جهة قسم النساء، نلتقط أصواتا نائية لصيحات وصرخات أنثوية، وحتى ضحكات. ذلك أقرب ما يمكن أن نكون عليه من النساء. فقط حين تهب الريح، في الوقت المناسب، من الاتجاه المناسب. يداها على يدي، رائحتها، حضورها، كل ذلك كان له فعل النار في نهر جليدي عظيم من أنهار ما قبل التاريخ يقبع عميقا في صدري. ولما لامست يدها رأسي وقذالي، بكيت.

عندما عاد المدير، كان وجهي الناشج مدفونا في صدر جانيس العارم. يداها على رأسي، تربتان، تواسيان، كما الأم، هادلة طوال الوقت في رقة،" سينتهي هذا يوما.".

ابتعدت عنها. أعطتني منديلها.

" ما الذي يجري؟ لماذا يبكي؟". كان يقف في الباب تماما، كان صوته فضوليا، مع نكهة غيرة. مسحت عيني، سـيطرت على ارتعاشات جسدي. تقدم إلى داخل الغرفة ببطء ودار متجها نحو كرسيه. ظل واقفا يعتمد بيديه المشعرتين على المنضدة.

" لماذا يبكي؟". كرر مخاطبا جانيس.

" لأنه سجين." ردت جانيس في بساطة. مازالـت تقـف بجانبي، مواجهة المدير.

" حسنا. ثم ماذا؟ هل انتبه إلى ذلك الآن فقط؟".

" لا تكن عديم الرحمة يا مفتاو.".

أعدت إليها المنديل.

" ينبغي أن تساعده يا مفتاو.".

" أساعده. كيف.".

" أنت مدير السجن. ثمة الكثير مما يمكنك عمله.".

" لكنني لا أستطيع مساعدته. إنه معتقل سياسي. حتى أنه لم يحاكم.".

" تعلم أنه لن يحاكم أبدا. سيستبقى هنا إلى الأبد، وينسى.". صار صوتها حادا وساخطا. سحب المدير كرسيه إلى الخلف وجلس. عيناه مخفوضتان. حين رفع بصره قال في جدية" اسمعي يا جانيس. لا يستطيع أحد أن يفعل له شيئا. سأورط نفسي. إلى جانب أنه أفضل حظا من بقية النزلاء. أعطيه بعض الأشياء. تبغا. صابونا. كتبا. وأدعه. يكتب.".

" كيف يمكن لك أن تكون عديم المشاعر على هذا النحو!. ضع نفسك مكانه - سنتان بعيدا عن الأصدقاء، عن العائلة، عاجزا عن القيام بما ترغب في القيام به. سنتان في السلاسل!. كيف لك أن تتكلم عن التبغ والصابون كما لو أنهما بديل كاف عن كل ما افتقده؟". كانت كمدرس يوبخ تلميذا ارتكب غلطة. يدها اليسرى تطرق المنضدة مؤكدة وهي تتكلم.

" حسنا.". نظر مهددا. أخذت تقطيبته تتناوب الظهور مع ابتسامة تناوبا سريعا. تمعن في صورته المعلقة على الجدار وراءها. تكلم في اندفاع." حسنا. أستطيع فعل شيء ما. منذ أسبوعين. جاء أعضاء. من منظمة العفو الدولية. تعرفان، رجال بيض. كانوا يريدون أسماء. المعتقلين السياسيين المسجونين. بدون محاكمة. للضغط على الحكومة كي تطلق سراحهم.".

" وإذن؟".

" إذن.". مازال يتجنب حملقتها. التقت عيناه بعيني فأشاحهما سريعا. التقط قلما وأداره بين أصابعه. انزلق القلم من بين أصابعه ووقع على الأرضية.

" لم أفعل. لم أستطع. تعرفان... ظننت أنه مرتاح. ولقد كان يكتب القصائد، لك...". كان صوته يكاد يترجى. والمثير للعجب أنني لم أشعر نحوه بالغضب. كان مجرد إنسان. إنسان في حالته البدائية الأولية، تؤثر فيه، بسهولة، العواطف القوية كالحب والشهوة والغضب والطمع والخوف، ولكنه متبلد تماما إزاء العواطف الأرقى المكتسبة كالشفقة والرحمة والسماحة والعدالة.

تناولت جانيس حقيبتها من على المنضدة ببطء. كان ثمة جلال هائل في حركتها. دست الحقيبة تحت ذراعها اليسرى. كانت كلماتها بطيئة، حزينة إلى حد كبير." الآن أكتشف أنني ارتكبت خطأ. لست كما ظننتك...".

" جانيس.". هب واقفا ودار قادما نحوها، ولكن إيماءة أوقفته.

" لا. دعني أكمل. أريد منك الاتصال بهم. أعطهم اسمه. إذا كنت لا تستطيع فعل ذلك، إذن فانس أنك عرفتني.".

مست يدها ذراعي وهي تمر بي. اندفع وراءها، ثم توقف في وسط الغرفة. حدقنا في المدخل المحجوب بالستارة في صمت، مصيخين السمع إلى صوت كعب حذائها على البلاط العاري، إلى أن تلاشى. عاد إلى كرسيه في بطء وارتمى فيه. صر الخشب صريرا مسموعا في المكتب الهادىء.

" اذهب.". قال، دون أن ينظر إلي.

* * * *

ما ورد أعلاه هو آخر عنوان في يوميات لومبا. ليس ثمة توثيق يحدد إلى أي مدى ذهب المدير في مساعدته على استعادة حريته، ولكن، وكما قال لجانيس، ثمة القليل مما يمكن عمله لمساعدة معتقل سياسي - خصوصا وأنه بعد أسبوع من المقابلة وقعت محاولة انقلابية ضد الرئيس العسكري. الجنرال ساني أباشا، قام بها بعض الضباط المقربين منه. تم، مباشرة، ضرب كافة الناشطين المطالبين بالديمقراطية. وأتخمت سجون البلاد بالمعتقلين السياسيين وتم الترحيل العشوائي لعدد كبير من المعتقلين القدامى إلى سجون أخرى لأغراض أمنية. كان لومبا

من بينهم. رحل إلى سجن أغودي في آيبادان. ومن هناك أبعد إلى أقصى الشمال، إلى بلدة صحراوية صغيرة تدعى غاشوا. ما من أخبار بشأنه بعد ذلك.

كثير من هؤلاء المعتقلين السياسيين قضوا في الاعتقال، المشهورون منهم فقط تناقلت أخبارهم وسائل الإعلام، أشخاص من أمثال مشهود أبيولا والجنرال يار آدوا.

و لكن يظل من الصعب الاعتقاد بأن لومبا قد مات. ثمة الكثير مما يشير إلى العكس. فيومياته تظهر، بتعبيرها المقتصد، أنه من النوع المثابر في العمل. يتدبر نجاته. لابد وأن سنوات السجن قد علمته ألا يفرط في الأمل، أو يغرق في القنوط ـ لأنه ما من شيء يجر الهلاك الحتمي على السجين كالإفراط في الأمل أو الإغراق في القنوط. تعلم النجاة بذرات صغيرة، قليلا قليلا، مرة في اليوم. من الجائز أنه في سنة 1998، لما مات الدكتاتور العسكري أباشا ، وجرؤ خليفته الجنرال عبد السلام أبوبكر على إشراع الأبواب في وجه الديمقراطية، وحرية المعتقلين السياسيين، كان لومبا في صفوف أولئك الذين أطلق سراحهم.

قد يكون الأمر جرى على النحو التالي: لومبا يجلس في زنزانة قذرة في غاشوا، مغمض العينين، يحلق ذهنه، فوق

أسوار السجن المزروعة بالزجاج، ليخالط النجوم والمطر ويتحد مع عناصر الحرية، وعندها يقعقع الباب منفتحا، وحين يفتح عينيه تكون الحرية واقفة قربه، تبتسم في لطف، وتمد يدها.

قالت الحرية في رقة : " تعال. حان وقت الخروج.".

فخرجا، يدا بيد.

* * * *

الـفـارس

كارسون ماك كلرز (*)

وقف الفارس في مدخل المطعم، ثم، بعد لحظة، تحـــرك إلى أحد الجانبين ليقف جامدا، وظهره إلى الجدار. كان المطعم مكتظا، لأن هذا هو اليوم الثالث في الموسم، وجميع فنادق البلدة ممتلئة. في قاعة المطعم كانت باقات من زهور أغـــسطس قـــد نثرت نويراتها على مفارش الموائد البيـــضاء، ومـــن الحانـــة الملاصقة تناهت زخة أصوات ثملة دافئة. ظل الفارس ينتظـــر وظهره إلى الجدار متفحصا القاعة بعينين مهلهلتين مُـــزَوَّيَتَين. فتش المطعم إلى أن وصلت عيناه، أخيرا، إلى منضدة في زاوية تشكل معه خطا قطريا، يجلس إليها ثلاثة رجال. رفع الفـــارس، محافظا على المراقبة، ذقنه راجعا برأسه إلى الخلف ومميلا إياه إلى أحد الجانبين. أخذ جسده القزم يتصلب وتيبست يداه إلى حد أن أصابعه انثنت إلى الخلف كالمخالب الرمادية. ظـــل يراقـــب

(*) Carson McCullers 1917ـ 1967 أديبة أمريكية تكتب القصة و الرواية والشعر و شعر الأطفال.

وينتظر، مستندا إلى الجدار بجسده المتوتر.

كان يرتدي بدلة من الحرير الـصيني الأخـضر ذلـك المساء، خيطت له خصيصا بقياس يناسب طفلا. كان القمـيص أصفر، وربطة العنق مقلمة بألوان فاتحة. لم تكن معه قبعة وكان شعره ممشطا إلى الأمام لينتهي في خط متصلب مبتـل علـى جبينه. وجهه كان متغضنا، لا ينم عن عمر معـين، وكالحـا. توجد دوائر بنية على صدغيه، وعلى فمه خيط ابتسامة. أدرك، بعد فترة، أنه قد لوحظ من قبل أحد الرجال الثلاثة الذين كـان يراقبهم. لكن الفارس لم يوميء برأسه، فقط زاد من رفع ذقنه إلى أعلى شاكا إبهام يده المتيبسة في جيب معطفه.

كان الرجال الثلاثة الجالسون إلى منضدة الزاوية يتكونون من مدرب ووكيل مراهنات ورجل ثري. المدرب يدعى سلفستر وهو شخص ذو بنية مرتخية عريضة مع أنف محمر وعينـين زرقاوين وانيتين. الوكيل كان اسمه سـيمونز. وكـان الرجـل الثري مالكا لجواد يسمى سلتسر كان الفارس قـد ركبـه تلـك العشية. شرب ثلاثتهم الوسكي بالصودا، وكان نـادل يرتـدي معطفا أبيض قد أحضر إليهم للتو طبق العشاء الرئيسي.

كان سلفستر أول من رأى الفارس. أشاح ببصره سريعا،

وضع قدح الوسكي، ودعك أرنبة أنفه المحمر بإبهامه." بتسي بارلو"، قال." إنه واقف هناك في نهاية القاعة. يقوم بمراقبتنا."

" آ، الفارس"، قال الثري. كان مواجها الجدار فالتفت نصف التفاتة لينظر وراءه." قل له أن يأتي."

" يا إلهي. لا"، قال سلفستر.

" إنه مجنون"، قال سيمونز. كان صوت الوكيل خفيضا ورتيبا. كان له وجه مقامر بالولادة، تم تشكيله بعناية، بحيث تكون تعبيرات ملامحه، بشكل دائم، في المنطقة المحايدة بين الخوف والجشع.

" يعني، أنا لا أعتبره هكذا تماما"، قال سلفستر." إنني أعرفه منذ وقت طويل. كان عاديا حتى حوالي ستة أشهر مضت. لكنه إذا ما استمر على هذه الحال فلا أتصور أنه سيعيش سنة أخرى. لا أتصور."

" هذا بسبب ما حدث في ميامي"، قال سيمونز.

" ماذا حدث؟"، سأل الثري.

استرق سلفستر النظر إلى الفارس عبر القاعة وبلل زاوية فمه بلسانه المكتنز الأحمر." حادث. فتى أصيب في الحلبة.

انكسرت ساقه وعظمة كفله. كان صديقا خاصا لبتسي. فتى آيرلندي. ولم يكن راكبا سيئا أيضا."

"هذا محزن"، قال الثري.

" أجل. لقد كانا صديقين حميمين"، قال سلفستر." يتواجد دائما في غرفة بتسي بالفندق. يلعبان الورق أو يستلقيان على الأرضية يقرآن صفحة الرياضة معا."

" أجل. تحدث مثل هذه الأشياء"، قال الثري.

قطع سيمونز شريحته من اللحم المشوي. وجه مخارز شوكته باتجاه الصحن مكوما الفقاع بصفحة سكينه بعناية." إنه مجنون"، كرر." يجعل جسدي يتنمل."

كانت كافة المناضد بالمطعم مشغولة. وكان هناك حفل على منضدة المآدب في الوسط، كما كانت فراشات أغسطس ذات اللونين الأخضر والأبيض قد وجدت طريقها إلى الداخل قادمة من الليل، لترفرف حول شعل الشمعدان الساطعة. سارت فتاتان، ترتديان سروالين صوفيين فضفاضين وناعمين وسترتين واسعتين، يدا في يد، باتجاه الحانة عابرتين المطعم. وتناهت، من الشارع الرئيسي في الخارج، أصداء ضجيج العطلة.

" يزعمون أن ساراتوغا تكون في أغسطس أغنى بلدة في العالم، نسبة إلى عدد سكانها"، التفت سلفستر إلى الثري." ماذا تعتقد؟"

" لا أعلم"، قال الثري." قد يكون هذا صحيحا فعلا."

مسح سيمونز الدهن من على فمه برأس أصبعه، بحركة رشيقة." ماذا بشأن هوليوود؟ و وولستريت..."

" لحظة"، قال سلفستر." لقد قرر أن يأتي هنا."

كان الفارس قد ترك الجدار وأخذ يقترب من المنضدة التي في الزاوية. سار متكلفا الخيلاء، مادا رجله في نصف دائرة مع كل خطوة، وكان عقباه يعضان بساط الأرضية المخملي الأحمر في عنف. وهو في طريقه احتك بذراع امرأة بدينة مرتدية ساتانا أبيض كانت تجلس إلى منضدة المآدب، عاد القهقرى وانحنى بلطف بالغ، مغمض العينين تماما. عندما أتم عبور المطعم، سحب كرسيا وجلس إلى زاوية المنضدة، بين سلفستر والثري، بوجه مكتئب وبدون إيماءة تحية أو تعديل في جلسته.

" تعشيت؟"، سأله سلفستر.

" بعض الناس قد يسمونه كذلك"، كان صوت الفارس عاليا، ممرورا، صافيا.

وضع سلفستر شوكته وسكينه في صحنه بعناية. عدل الثري من وضعه بالتحرك في كرسيه جانبا واضعا إحدى رجليه فوق الأخرى. كان يرتدي سروال ركوب من التُّونْ، حذاء طويل العنق غير ملمع وسترة بنية رثة. هذه كانت ملابسه نهارا وليلا في موسم السباق، رغم أنه لم يُر فوق جواد أبدا. واصل سيمونز تناول عشائه.

" تأخذ بعض المياه المعدنية الغازية"، سأله سلفستر." أو شيئا من هذا القبيل؟"

الفارس لم يجب. أخرج علبة سغائر ذهبية من جيبه وفتحها بنقرة. كان بداخلها بضع سغائر وموسى ذهبية صغيرة. استخدم الموسى في قطع السيغارة نصفين. حين أشعل تبغه رفع يده لنادل كان مارا قرب المنضدة." بوربون كنتكي، من فضلك."

" والآن، اسمع، يا فتى"، قال سلفستر.

" لا تستصغرني."

" تعقل. تعرف أنه عليك التصرف بتعقل."

عوج الفارس زاوية فمه اليسرى في سخرية شديدة. نزل ببصره إلى الطعام الموزع على المنضدة، ولكنه سرعان ما نظر إلى أعلى ثانية. كانت أمام الثري صينية سمك محمر في صلصة قشدة ومزينة بالبقدونس. وكان سلفستر قد طلب بيضا بندكتيا. كان هناك هليون، ذرة طازجة بالزبدة، وصحن إضافي من الزيتون الأسود المخضل. كان صحن من البطاطا المقلية علىالطريقة الفرنسية على زاوية المنضدة أمام الفارس. لم ينظر إلى الطعام ثانية، وإنما احتفظ بعينيه المزويتين على أزهار الخزامى الزرقاء كاملة التفتح الموضوعة في الوسط.
" أظنك تتذكر شخصا اسمه ماك غواير"، قال.

" استمع الآن"، قال سلفستر.

أحضر النادل الوسكي، وجلس الفارس يداعب القدح بيديه المتيبستين، القويتين، الصغيرتين. يوجد في رسغه سوار ذهبي رقيق يصلصل كلما لامس حافة المنضدة. بعد أن أدار الفارس القدح بين كفيه، شرب، فجأة، الوسكي صرفا على جرعتين. وضع القدح بعنف." لا. لا أعتقد أن ذاكرتك بهذا الطول والامتداد"، قال.

" بالتأكيد، بتسي"، قال سلفستر." ما الذي يجعلك تتصرف

على هذا النحو؟ سمعت شيئا عن الفتى اليوم."

" تلقيت رسالة"، قال الفارس." الشخص الذي نتحدث عنه سحب من الفريق يوم الأربعاء. إحدى رجليه أقصر من الأخرى بإنشين. هذا كل ما هنالك."

أصدر سلفستر صوتا بلسانه وهز رأسه." أعرف كيف تشعر."

" حقا؟"، كان الفارس ينظر إلى الصحون فوق المنضدة. تنقلت حملقته من صينية السمك إلى الذرة، لتستقر في النهاية على صحن البطاطا المقلية. تغضن وجهه وسرعان ما نظر إلى أعلى ثانية. انفرطت زهرة فالتقط إحدى النويرات، دعكها بين إبهامه وسبابته ثم وضعها في فمه.

" نعم. تحدث هذه الأشياء"، قال الثري.

كان المدرب والوكيل قد فرغا من أكلهما، ولكن بقي هناك طعام في أطباق التوزيع أمام صحونهما. غمس الثري أصابعه الملطخة بالزبدة في كوب الماء المليء ثم مسحها بالمنديل.

" حسنا"، قال الفارس." ألا يرغب أحد في أن أمد إليه شيئا؟ أو لعلكم ترغبون، ربما، في إعادة الطلب. قطعة أخرى

من شرائح لحم البقر، أيها السادة، أو..."

" أرجوك"، قال سلفستر. كن عاقلا. لماذا لا تصعد إلى غرفتك؟"

" أجل. لماذا لا أفعل؟"، قال الفارس.

علا صوته الصافي وكان به انتحاب هستيري حاد.

" لماذا لا أصعد إلى حجرتي اللعينة وأتمشى بمحيطها وأكتب بعض الرسائل وآوي إلى السرير كطفل مؤدب؟ لم لا..."، أزاح كرسيه إلى الخلف ونهض." أوه، اللعنة"، قال." أوه، عليكم اللعنة. أريد شرابا."

" كل ما أستطيع قوله أنك تعد لجنازتك"، قال سلفستر." تعرف ما الذي يفعله هذا بك. تعرف بما فيه الكفاية."

عبر الفارس المطعم متجها إلى الحانة. طلب منهاتن، وظل سلفستر يراقبه وهو يقف بعقبين منضغطين على بعضهما، وجسده متصلب مثل جسد جندي من الرصاص، يخرج سبابته من قدح الكوكتيل ويمتص الشراب ببطء.

" إنه مجنون"، قال سيمونز." مثلما سبق أن قلت."

التفت سلفستر ناحية الثري." لو أنه تناول شريحة لحم خروف لرأيت هيئتها في بطنه بعد ذلك بساعة. لم يعد يستطيع التخلص مما يتناوله. إنه يزن مئة وأحد عشر رطلا ونصفا. ازداد ثلاثة أرطال منذ أن غادرنا ميامي."

" لا ينبغي للفارس أن يشرب"، قال الثري.

" لم يعد يستسيغ الطعام كما في السابق ولم يعد يستطيع التخلص منه. إذا ما أكل شريحة خروف فستراها ناتئة من بطنه ولا تنزل."

أكمل الفارس كوكتيله المنهاتن. ابتلع آخر جرعة، سحق الكرز في قعر القدح بإبهامه، ثم دفعه بعيدا عنه. كانت الفتاتان المرتديتان السترتين تقفان على يساره متواجهتين، وفي الناحية الأخرى من الحانة كان اثنان من تجار معلومات سباق الخيل يخوضان جدالا حول أعلى جبل في العالم. ما من شخص كان بمفرده، لم يكن يوجد شخص آخر يشرب بمفرده تلك الليلة. دفع الفارس من ورقة خمسين دولارا جديدة ولم يستعد الباقي.

عاد إلى المطعم وإلى المنضدة التي كان يجلس إليها الرجال الثلاثة، إلا أنه لم يجلس. " كلا. لن أفترض مجددا أن ذاكرتك بذلك الامتداد"، قال. كان ضئيلا جدا إلى درجة أن حافة

المنضدة كانت تقريبا في مستوى حزامه، وعندما أمسك زاويتها بيديه الشديدتي النحالة لم يضطر إلى الانحنـاء." كـلا. أنـت مشغول كثيرا بالتهام العشاءات في المطاعم. إنك..."

" صدقني"، ترجاه سلفستر. "عليك أن تتصرف بتعقل."

" بتعقل!. بتعقل!."، ارتعش وجه الفـارس الكئيـب، ثـم استقر على تكشيرة جامدة مخيفة. هز المنضدة حتـى قرقعـت الصحون، وبدا للحظة أنه سيقلبها، ولكنه توقف فجأة. امتدت يده إلى أقرب صحن إليه ووضع بتمهل بضع شرائح من البطاطـا المقلية على الطريقة الفرنسية في فمه. أخذ يمضغ ببطء، شـفته العليا مرتفعة، ثم استدار وبصق اللقمة المتعجنة علـى البسـاط الأحمر الناعم الذي يفرش الأرضية. " خلعاء"، قال بصوت رفيع مشروخ. دحرج الكلمة في فمه، كما لو أن لهـا نكهـة ومـادة تروقانه. " أيها الخلعاء"، قال مرة أخرى، ثـم اسـتدار وسـار بزهوه المتصلب مغادرا المطعم.

هز سلفستر إحدى كتفيه الثقيلتين المرتخيتين. مسح الثري بعض الماء الذي اندلق على مفرش المنضدة، ولم يتكلموا، إلـى أن جاء النادل ليقوم بالتنظيف.

* * * *

الخطـــة الكـــبرى

عبد الرزاق عثمان (*)

من الصعب تبين ما إذا كان خجولا أو أصـــم أو متـــوتر الأعصاب. وبالإمكان القول، استنتاجا من سلوكه، إنـــه تجـــوز عليه واحدة من هذه النعوت، أو ثلاثتها، أو حتى مزيج مركـــب منها. لم يفك حزام مقعده ولو لمرة واحدة. لم يذهب إلى بيـــت الراحة. لم يأكل أو يشرب شيئا. و، طوال الرحلة، لم ينبس ولو بمجرد كلمة. حتى للمضيفات الاسكندنافيات الجميلات، دائمات الابتسام، اللاتي داومن على سؤاله عما إذا كان يريد أن يشرب أي شيء. وبغض النظر عن السيدة العجوز بيـــضاء الـــشعر، الجالسة على يمينه، التي يجد نفسه ملزما بأن يريهـــا أســـنانه، لأنها كانت تبتسم له كلما التقت عيناهمـــا ، لـــم يـــشعر نحـــو المضيفات الجويات بأي شيء على الإطلاق. لقد اعتقـــد، فـــي الواقع، أنهن يشتتن تركيزه وانكبابه على أكثر ما كان يهمه في تلك اللحظة. لم يفعل سوى أن يجلس في جمود، كما لو أنه قـــد

(*) Abdirazak Osman أديب ومغن وسينمائي صومالي، يقيم في الدنمارك.

ألصق بمقعده، وينز عرقا تحت مكيف الهواء، طوال رحلة العشر ساعات.

ولكن مهما كانت النعوت أو الصفات الممكن عزوها إليه ذلك اليوم فإن صفة عدم الجاهزية لم تكن واحدة منها. ولن تعزى إليه. لقد استوعب الخطة مسبقا. وبتفاصيلها الهائلة. دققً هو وأصدقاؤه، خصوصا ياسين، في جميع الخطوات، مرات ومرات، ولعدة أيام متواصلة، قبل أن يستقل تلك الطائرة. وسيتبع تلك الخطة. يمكنك أن ترى أن كل هذا التصامم وكل هذا التباكم كان جزءا من الخطة الكبرى. ولقد نفذه بدقة. تشبث به. في الحقيقة كان الجزء المتعلق بعدم تناول أية رشفة، أو لقمة، من اختراعه. لأنه اعتقد أن ذلك يعزز السياق العام.

ثم حانت اللحظة. كان الوقت في ساعة يده: 01:59 وعلامة بيت الراحة تضيء" خال". حان وقت الخطة الكبرى. اعتدل في مقعده وفك، ببطء، حزام المقعد للمرة الأولى. أخذ نفسا هادئا، عميقا، طويلا. نهض، همهم بكلمات اعتذار غير مسموعة وهو يجتاز العجوز النائمة بجواره وعمد، دون أن ينظر إلى أي شيء أو أي أحد، إلى بيت الراحة مباشرة.

ابتدأ بالجزء المتعلق بالاستطلاع، وهو جزء بالغ الأهمية، حسب تأكيد ياسين. جذب الباب المقفل ليتأكد أنه من غير الممكن أن يفتح على حين غرة. بعدها بحث عن أية ثقوب خفية يمكن لأحد ما في الخارج النظر من خلالها. فتش حتى خلف مرآة الجدار الصغيرة خشية أن تكون خلفها آلة تصوير سرية أو شيء من هذا القبيل. كان الوضع آمنا. كان هو آمنا. كانت الخطة مضمونة. إنها لحظة الخطة الكبرى. فتح سترته وأدخل يده إلى جيبه الداخلي، كان الهدف هناك. أخضر، لماعا وجديدا. جلس على كرسي المرحاض وألقى على الهدف النظرة الأخيرة قبل توديعه.

الاسم: عيسى عواله.

تاريخ الميلاد: 1977.2.10

محل الميلاد: موقاديشو.

الجنسية: صومالي.

المهنة: طالب.

محل الإقامة: موقاديشو.

رقم الجواز: A26061963

تاريخ الإصدار:1990.12.02

مكان الإصدار: موقاديشو.

تاريخ انتهاء الصلاحية: 1993.12.01

توقيع: وزير الشؤون الخارجية

إنه جوازه. هويته. متاعه الوحيد. ورفيقه الوحيد على امتداد هذه الدنيا الواسعة. ابتدأ، متبعا بدقة تعليمات ياسين، بالغلاف. انتزع صورته الباسمة، مزقها إربا إربا، ثم مضغها، بعناية قبل أن يزدرد المُضْغة. بعد ذلك نزع الغطاء البلاستيكي عن الغلاف ورماه بسلة المهملات. لا جدوى من إضاعة الوقت الثمين في تفتيت البلاستيك. فذلك يأخذ وقتا، ولا قيمة له في إطار العملية على أية حال. أخذ بعدها في تمزيق الغلاف إلى أصغر قطع ممكنة ليعرضها، من ثم، لضغط تيار الرحض. الآن جاء الجزء الصعب، على رأي ياسين. أو الجزء العاطفي، بحسب تعبيره هو شخصيا. إنه وقت التخلص من كل حرف وعلامة تدل على الأسماء: اسمك، اسم بلدك، اسم والديك، اسم مدينتك ورقم جوازك. ابتدأ بالصفحة الأولى. إنها الأكثر أهمية، حسب التعليمات، لاحتوائها على قدر معتبر من المواد المطبوعة المحتاجة للابتلاع. هذا يعني أنه على المرء مضغ الصفحة

وبلعها برمتها. لكن عيسى كان سريعا، فعالا، ومستعدا مثلما وعد أن يكون. مضغ الصفحة بسرعة كبيرة و، من ثم، ابتلعها بمساعدة قليل من ماء الصنبور. بعد ذلك جاءت مشكلة صفحات الجواز الـ32 . لحسن الحظ أنه لا توجد بجوازه تأشيرات، لأن هذه هي رحلته الأولى، الأمر الذي يوفر بعضا من الوقت. كل ما هو موجود على هذه الصفحات هو رقم الجواز المطبوع أعلى وسط كل صفحة والمختوم أسفلها. تنبغي إزالة أية مساحة من الجواز تحمل رقمه. مزق المساحة الأولى بأسنانه ومضغها حد الذوبان. ثم الثانية. A26061963 آخر. قضم.A26061963. أيضا قضم. A26061963. قضم هو الآخر. كلها مضغت وابتلعت. عندما كان عيسى يمضغ الأرقام، واحدا في إثر الآخر، ويبتلعها أحس بتدحرج دموع ثقيلة على وجنتيه. شعر أن ياسين كان على حق، ولكنه استمر فيما هو فيه. كان الوضع يماثل تخليك عن رضيع لك. بعد أن مضغ آخر A26061963 بقي لديه جمع بقايا الـ32 صفحة والتخلص منها بواسطة تيار الرحض. بعد ذلك شرب من ماء الصنبور ثانية. انتبه، وهو يقف أمام المرآة، إلى الدموع الجامدة على وجنتيه. أخذ نفسا عميقا، مصدرا صوتا هذه المرة، غسل دموعه بالماء البارد. تبول. أطلق تيار الرحض. ثم غادر

القمرة. العملية استغرقت، بالضبط، 3 دقائق و45 ثانية. بزيادة دقيقة عما استغرقه ياسين.

كان يجلس على كرسيه مراقبا، من خلال النافذة، حركة العالم، عندما أعلن صوت قائد طائرة SAS [1] غير المنظور أنهم سيحطون في مطار كوبنهاغن الدولي بعد خمس عشرة دقيقة. لن يكون بمستطاعهم الآن، قال في نفسه، معرفة اسمي ولا جنسيتي ولا رحلتي ولا حتى رقمي. لن يستطيعوا إرجاعي إلى أي مكان. سيضطرون إلى قبولي كلاجيء سياسي شرعي. كل ما عليَّ فعله هو التخلف عن بقية الناس الذين معي في الرحلة، كي لا يتعرف ضابط الجوازات إلى رحلتي. وطبعا، تذكر مبتسما، سأحتاج إلى اسم جديد. ربما... ياسين. نعم... اسم ياسين ذو وقع حسن.

* * * *

(1) شبكة الخطوط الجوية الاسكندنافية Scandanavian Airline System

حملقة

راوي حاج (*)

اسمي أحمد. وصلت من مصر ذات يوم ماطر. السحب وضوضاء سيارات الأجرة المنتظرة هي كل ما قابلني في المطار. قدمت لدراسة الهندسة في معهد يمنح شهادات ما بعد الباكالوريوس في جامعة منسوتا في مينابولس. أقمت غير بعيد عن الجامعة، حيث كنت أشارك رجلا يدعى فاربود في شقة. كان فاربود رجلا هادئا جاء من إيران ذات يوم مشمس. كان انطوائيا، يطهو طعامه، يقرأ كثيرا ونادرا ما يتحدث عن الماضي. علي الاعتراف بأن وجوده أعانني كثيرا في تكييف حياتي في تلك الأرض الغريبة، وسأكون ممتنا له بذلك طيلة حياتي.

التقيت بباملا في المعهد، كانت مدرستي في اللغة الإنغليزية. في أول يوم ذهبت فيه إلى الفصل سألتني عن

(*) راوي حاج، مولود في بيروت وهاجر إلى كندا سنة 1992، وهو كاتب ومصور نشر إنتاجه في عدد من المجلات والصحف في كندا وأمريكا. والعنوان الأصلي للقصة: أحمد Ahmad.

اسمي. كررته على شفتيها مرتين، وبحثت عنه في الورقة بقلم خشبي طويل. بشرتها البيضاء وملامحها الرقيقة جعلتني أنظـــر إليها طويلا ودونما حرج. اقتربت منها، ذات مرة، بعد انتهـــاء الدرس ونظرت إليها في صمت. تجـــاهلتني، ســـوت ملفاتهـــا ومضت.

مضت أشهر دون أن أرى امرأة في سريري. أكلت مـــن طبخ يدي، ذهبت إلى الدروس مشيا، وحاولت ألا أفكر في بيتي وأصدقائي في القاهرة.

التقيت مرة بطالب من أمريكا الجنوبية، فدعاني لحضور حفل في بيته، وهناك في مطبخه رأيت الآنسة باملا ثانية. كانت ترتدي تنورة قصيرة، وكانت تتحدث إلى رجل ذي لحية بيضاء، وتحمل كأس نبيذ بلاستيكيا بين أصابعها. وقفت ونظرت إليهـــا النظرة إياها. بدت لي تنورتها القصيرة فاتنــــة، كـــان ســـلوكها متفردا، ومرهفا، لذا أخذت راحتي في النظـــر إليهـــا. كانـــت منخرطة في حوار أكاديمي جاد مع الرجـــل المرتـــدي كنـــزة متسخة والذي يبدو أنه أستاذ من النوع المهمل لمظهره المزهو بثقافته ومعرفته. وقفت هناك وحملقت فيها، متفحصا ســـاقيها، ردفيها المكتنزين، عينيها الزرقاوين، وسلوكها الواثـــق. كنـــت

منجذبا إليها بفعل الشهوة، التقدير، واللون. أجل، لونها ولـــوني. حين ضبطت نظرتي، حدقت في وجهي مباشرة، الأمـــر الـــذي جعلني أشيح بعيدا وأحدق في الميكروويف، أشرب من كأســـي، ألف في دوائر وأقوم بأي شيء يخفي حـــضوري مـــن جديـــد. تركت الرجل واقتربت مني. راقبتها، انتظرت، شعرت بأني قد شللت.

وقفت أمامي مباشرة وقالت:" ليس من اللياقة أن تحملـــق في الناس على هذا النحو. النساء هنا لا يستلطفن ذلك. لا أعلـــم من أين قدمت، ولكن الأمور مختلفة هنا."

ابتسمت وقلت:" أجل، كنت أحملق فيك لأنه في المكـــان الذي قدمت منه حتى القمر يتقبل رمقات معجب."

" ومن أين أنت، يا شاعري الغريب؟" سألت.

" مصر."

" كم مر عليك هنا؟"

" سنة."

" لا بد أنك في حالة من الوحدة التامة لتحملق في النـــاس على هذا النحو."

" لم أنظر سوى إليك."

" ذلك يعني أن وحدتك أشد مما كنت أتصور."

" أنت قاسية على نفسك."

" كلا. ولكنني، بصراحة، لست مهتمـــة بالرجـــال الآن. وخصوصا الرجال الذين من الشرق الأوسط.... ألم تكـــن فـــي فصلي السنة الماضية؟" سألتني محملقة في عيني مباشرة.

" أجل."

" أجل. أنت من كان يجلس في الخلف ويحدق في."

" ذلك لم يمنعني من الإحراز على درجات عالية."

" لم يمنعك من جعلي أحس بعدم الراحـــة... لقـــد زرت مصر مرة." ثم أضافت" عبرنا من إسرائيل في جولة بالحافلة."

" رأيت الأهرام..."

" أجل، وكذلك الناس."

" الرجال؟"

" أجل. تلك الأشياء أيضا." ثم ابتسمت." هل تعلم،" قالـــت لي، محركة شرابها وموجهة أصبعها إلى صدري" لـــيس كـــل

الغربيات يسعين إلى الانطراح. وخصوصا ليس للرجال الذين ينظرون إليهن تلك النظرة."

" أظنك تخشين الإغواء. كيف يمكن للناس أن يلتقوا ويبادروا بعضهم إذا لم ينظروا إلى بعضهم؟"

" ها، الإغواء؟ أي إغواء؟ تبدو كذئب باحث عن فريسة."

" وأنت تبدين كسرداب مغلق الأبواب يغمره الظلام والخوف."

" حسنا، إنك تبدو كصبي في الثالثة عشر من عمره على وشك الشروع في الاستمناء."

أحرجت بمباشرتها فأخذت أضحك. ابتعدت بنظري، ثم نظرت إليها مجددا.

مازالت تنظر إلي نظرة انتصار.

" صدمت؟" سألتني في نبرة ساخرة.

" كلا." قلت. " أشعر بالشفقة."

" أشعُرْ بالشفقة على أمثالك." قالت لي.

" أمثالي يأخذون أكثر من جولة على جمل ورحلة سياحية

ليحكموا، يا أستاذة."

" لقد تحادثت مع الناس أيضا. رأيت ما رأيت. أنا ملاحظة أيضا." قالت لي.

" أنت متعجرفة." قلت" إنها طريقة أمثالك. تأتون إلى بلادنا كما لو كنتم ذاهبين إلى حديقة الحيوانات. مبهورين ومحميين بالقضبان."

" لم تتعود على النساء الواثقات، أهْ؟" سألت.

" كلا. لم أتعود على المتعجرفات." أجبت." علي أن أذهب."

" قد نلتقي ثانية، يا صديقي المتواضع الذي يحملق في النساء بهاتين العينين الكبيرتين." قالت. " أرغب في المزيد من التحدث إليك حول ذلك."

" أنا متأكد من أننا سنلتقي." قلت. " هذا لا مفر منه."

انقضت أسابيع. درست. صليت. تمشيت. وعندما ماتت أم فاربود في إيران لازمته في حزن وصمت. تلونا آيات من القرآن وقمنا بجولات حنين طويلة. لم يكن فاربود يبكي ولم يكن ينام.

حل الشتاء، فتناول الناس معاطفهم وأحكموها حول

أجسادهم للحفاظ على الدفء، وساروا عبر الشوارع. نضت الأشجار عنها أوراقها وقررت أن تظل عارية في تحد واحتجاج طويل ذي طقوس متطاولة ليس من شأني الحكم عليها. ذات مرة عاد فاربود إلى الشقة صحبة امرأة شابة، كان الاثنان سكرانين وكانا يضحكان.

اتجهت إليه في صمت وهمست في أذنه" يسرني أن أراك سعيدا من جديد، يا أخي." ووضعت ذراعي على كتفه.

" أوه يا صديقي، ألا تذكر قول الشاعر: آه أيها الطير الجريح الراقص رغم الدمع والوجع."

تلك الليلة غادرت البيت وذهبت إلى المكتبة. اشتغلت إلى أن أقفلت، ثم سرت عبر شوارع مدينتي الغريبة الجديدة، دونما هدف. الأضواء الشاحبة الكامدة سارت إلى جانبي. مررت بمحلات مقفلة ذات لافتات نيون وامضة، مواقف سيارات خالية، مباني الناجحين المتنفذين الكبيرة الشاهقة، بيوت في حاجة إلى نار وبعض الطلاء، وأيدي شحاذين محتاجة إلى الدفء والقطع النقدية.

أخيرا دخلت حانة، مارا برجل مفتول العضلات يحرس الباب، وفتاة خضراء الشعر، ثم المناول، ورف خشبي طويل

مزدحم بأكواب الجعة، ومقاعد حمراء، ووجوه طافحة ضحكا يرى بحالات مختلفة ونادرا ما يسمع. على يساري توجد ستارة. حركتها بيدي، أزحتها ودخلت. رأيت قاعة مكتظة بشبان ونساء متبرجات يرقصون البولكا على موسيقى صادرة من فرقة شعبية على المسرح. كانت الفرقة محاطة بستائر حمراء لامعة، تحت وميض بضعة مصابيح معلقة بحبال ومعدن. كان رجلان كهلان وامرأتان أكبر سنا يغنون ويعزفون أغنيات ألمانية قديمة. كان رجال ونساء يرقصون بشكل سيىء. كانت باملا هناك، تصفق وتضحك. راقبتها. حدقت، أثمت، تسللت[مقتربا] وراقبتها ثانية متحديا معتقداتها ومحرماتها جميعا.

انتبهت إليَّ وتجاهلتني. راقبتها وانتظرت. أدركت على نحو ما بأنها ستأتي. وكما العنكبوت، نسجت شبكتي وانتظرت. رقصت وطارت إلى ذراعي شخص آخر. راقبتها. كانت تطفح ابتساما. تطايرت تنورتها كاشفة عن ساقيها الشهيتين البيضاوين، تماوجت ألوان شعرها المنساب وهو يلتقط انعكاسات الأضواء المتبدلة. احتسيت جعة. وانتظرت. طبعا جاءت، منسلة بين الحشد كسحلية. واجهتني، ابتسمت ونظرت إليَّ في عيني مباشرة كما كانت تفعل دائما. عرضت عليها أن أقدم لها شرابا. رفضت.

" لن يتضمن ذلك أية التزامات من أي نوع إذا ما قبلت." أكدت لها.

" لا أصدقك." قالت. " ماذا تفعل هنا، بالمناسبة؟"

" أنا بصدد دراسة آنثروبولوجية ـــ ملاحظة السكان المحليين وسلوكهم الطقوسي." قلت، وهو ما جعلها تضحك عاليا.

" شيء من نوع رحلات[الجمعية] الجغرافية الوطنية؟" سألت.

" نعم. في الاتجاه المعاكس هذه المرة، بالطبع."

" وماذا تعتقد، يا دكتور؟"

" أعتقد أن الجميع هنا لا يجيدون الرقص وأنكم أناس لم يعد بمقدوركم أداء رقصات أسلافكم."

" الجو ساخن هنا." قالت. " لماذا لا تنتهي من شرابك وتوصلني إلى البيت، أيها السيد التراثي، العالم، الشاعر القادم من أصقاع أخرى."

في الطريق تشبثت بذراعي. واصلت سيري، غير متأكد مما إذا كانت تلك دعوة أم امتحانا... شركا... بادرة ود عرضية

تقوم بها النساء في هذه الأصقاع.

دعتني إلى الدخول لتناول القهوة فصعدت إلى بيتها. نزعت حذاءها وطلبت مني أن أفعل نفس الشيء. تصرفت بأقصى ما يكون من الثقة، وهي تتحدث عن المكان، عملها... الفصول الدراسية... دام هذا الحديث وحيد الجانب بضع دقائق.

جلست على الأريكة وأخذت أتأملها، مشوشا ومتلهفا للمسها ثانية. أحضرت القهوة، وضعتها فوق المنضدة، جلست إلى جانبي وتخللت بأصابعها شعري المجعد. تضوعت منها رائحة عطر رقيق وعرق طازج. لمستها، فأغمضت عينيها.

" تمهل." وكررت لي" تمهل..."

في الصباح التالي استيقظت في سريرها. لم تكن بجانبي ولم أجدها في أي مكان. وجدت رسالة قرب معطفي: أرجو أن تغلق الباب عند خروجك.

حين اتصلت بها اليوم التالي طلبت مني ألا أتصل ثانية، وحين سألتها عن السبب ردت بأن من هم أمثالنا لا يمكن لهم أن يتعايشوا. لقد كانت الليلة الماضية رائعة، ولكن لا تتصل ثانية.

مرت سنون. تخرجت وقررت العودة إلى الوطن. عدت

ممتلئا بالنصر، والآن أنا مهندس والناس يخاطبونني: يا باش مهندس[1]. كان والدي فخورا بي، ولم تصدق أمي عينيها. تحصلت على وظيفة في الجامعة الأمريكية في القاهرة حيث أدرِّس الهندسة الميكانيكية.

قابلت زوجتي حنان ذات مساء في بيت صديق. بعد بضعة أسابيع طلبت منها الزواج فوافقت. لدي الآن طفلتان تدعيان زهرة وآمال، ونحن نعيش حياة مريحة محاطين بالعائلة والأصدقاء.

ذات يوم تلقيت مكالمة من فاربود. قال لي بأنه كان يبحث عني منذ سنوات وعثر على رقم هاتفي على الإنترنت. في اليوم التالي أرسل إلي بريدا إلكترونيا من مينابولس حيث قرر أخيرا أن يقيم ويتزوج هناك.

كان مرفقا بالبريد صورة تضم طفلتيه وزوجته باملا.

---

(1) بالنطق العربي في الأصل.

سـدود

لیندا شبیغلر (*)

إلى آن

أوائل الخريف، في جبال كولورادو، تجلس امرأة في المطبخ بكوخها الخشبي متناوبة تدفئة يديها بفنجانها ونزع الوحل الجاف من على ملابسها الجينز المهترئة. تزيح إلى الخلف شعرها الكث، الخشن والأشيب، لتثبته في موضعه. تشاهد، عبر المشبك الذي بالباب، المذراة المسندة إلى عمود.

تطل على شايها مستنشقة البخار متسائلة التساؤل المعتاد: كل هذا العبث بالطبيعة، ليكن. الآخرون ابتدأوا عبثهم قبل أن تبدأ هي بوقت طويل. فهل كانت تصلح ما نقضه المخرب؟ ترتدي حذاء البرك الأسود وتتساءل عن حال الجدول اليوم. تشاهد، للحظة، عصافير الدوري ترفرف حول المكان الذي اعتادت أن تجد فيه الطعام. يسف طائر صعوة ليشرب. ينعكس ضوء الشمس على شعب المذراة، فتتذكر يوم حملتها أول مرة.

* * * *

(*) Linda Spiegler كاتبة أمريكية.

وهي تتجول في الأرض كعادتها وجدت أن الجدول قد سُدَّ. لقد أعادت القنادس ترتيب الأشياء هنا ثانية، تماما مثلما فعلت منذ سنتين على بركتين. لقد تواجد في الوادي تجمع من القنادس يتكون من سبعة إلى عشرة قنادس بالغة وحوالي ثلاثة جراء منذ عقود، أطول بكثير من زمن وجودها هي هنا. مضت ست سنوات فقط منذ أن أنفقت ما ادخرته طوال حياتها على هذا الملجأ ذي المساحة البالغة خمسة وثلاثين أيكرا. وكانت طوال هذا الوقت تشهد ميلاد الجراء ونضجها ، وهجرة العائلة سنويا من مكان إلى آخر على البركتين، استمعت إلى إسقاطها للشجر وجمعها للحصى من أجل السدود. وحتى ردمت عظامها.

وصلت إلى موضع تنحني فيه إحدى البركتين انحناءة تشبه المصباح الكهربائي ويصل مستوى الماء فيها إلى الكعبين. انحنت ووضعت هِبة على الشاطيء الضيق: أفرعا صغيرة، أغصانا، وأحجارا بحجم الكف. رفعت نظرها فشاهدت ثلاثة قنادس ترسم خطوطا ثعبانية عبر البركة. سبح أصغرها، الذي ما زال جروا، في مرح حتى قارب الشاطيء. تقصفت الأعشاب والنباتات. ضرب ذيل مسطح كبير الماء فانسحب الجرو طائعا. استدارت القنادس الكبيرة في هدوء ميممة نحو الجانب الضحل

من البركة، حيث كانت المرأة تقرفص. تراجعت قليلا متخلية للقنادس عن إقليمها. تقدمت القنادس نحو الشاطيء ببطء متشممة الهواء وكل التَقْدِمات الحاملة لرائحة إنسانية، ثم عادت إلى الجانب الضحل. تعرف المرأة أنها عندما تغادر فإن القنادس ستسرق هداياها وتستخدمها مثلما فعلت مرات عديدة في السابق.

عندما عادت إلى الجدول انتبهت إلى أن القنادس قد غيرت مسار المياه في حوالي خمسة أمكنة محولة بعض الأجزاء القريبة من منطقة الأعشاب والنباتات إلى مستنقع. أعجبت بهذا الإبداع، فكل سد يعد معلما دالا على إبداع القنادس الفطري وعزيمتها ولم تكن مهيأة للغصة التي صعدت في حلقها. القنادس تعي تماما ما الذي يتوجب عليها فعله في العالم.

الجدول الذي يجري عبر أرضها ويغذي بركة القنادس يغذي أيضا بحيرة سميث.عايشت، بعض الأحيان، مشاعر متناقضة إزاء حركة المرور، التي كانت تتسبب في إثارة الغبار، على الطريق المفضي إلى البحيرة المليء بالنقر، وكذلك إزاء السيل الذي لا ينقطع من الناس القادمين للسباحة في البحيرة، للإبحار فيها، وللاصطياد، وحتى إزاء أصحابها ومستثمريها. وفي أوقات أخرى فكرت بقلق في انتهاك عزلتها

من قبل أناس يرغبون في تحديد وترويض كل شيء والسماح لهم بالتدخل فيه.

عندما تفحصت السد الأول شعرت بوخز دفين في صدرها. لقد كان السد أكثر من مجرد عرض لبراعة القنادس، ومن المرجح أن يغلق السد الجديد البحيرة. وتصورت ما سيؤول إليه الوضع عندما تحول مزيد من السدود، تدريجيا، مسار الجداول التي تغذي البحيرة، كيف سيعمل أصحابها لحماية مصالحهم المرتبطة بالتدفق الحر للمياه. عندما ينخفض منسوب المياه في البحيرة سيأتي أحد ما ليستكشف السبب. تعرف رجلا يعمل لحساب أصحاب البحيرة. لقد كان هنا، منذ أسبوع، يمارس حق المرور ويفحص المناسيب وقوة التدفق رغم أن المطر لم يكن، طوال هذا الأسبوع، ينقطع، إلا ليهطل. عرفت بوجوده من خلال آثار خطاه، من الأغصان المكسورة كيفما اتفق ومن مخلفاته في النسيم العليل. ليست متأكدة من أي نوع من الرجال هو، ولكن من المؤكد أنه سيقوم بواجبه.

"السم؟ لا. ربما الفخاخ". خمنت أين يكون قد وضعها، مخفية حول السدود المنتشرة على امتداد الجدول:قاسية، مسننة، جاهزة للإطباق. اضطرت إلى الجلوس لتهدئة الاضطراب

الناشب في معدتها. تذكرت يوما من أيام آخر الصيف منذ عدة سنوات ومنظر آثار قندس صغير منهك نازف وبقايا فرو ملبد. لكن ذلك الفخ كان يكشف عن أنياب وحش وليس أسنان حديدية. كانت هي، في الواقع، التي أطلقت كلابها، ولقد انطلقت الكلاب بمقتضى طبيعتها. لقد اقتنعت، منذ زمن طويل، بأن بيوت الكلاب أقرب إلى التحضر، ولكنها حذرت زوار المنطقة الآخرين. فقد كانت لافتة خشبية حائلة اللون تشققت وبهتت تحت جمجمة قندس لوحتها الشمس تعلن: غير مسموح بوجود الكلاب. كانت ترغب في نصب لافتة مكتوبا عليها: غير مسموح بوجود البشر، وابتسمت وهي تفكر بأن جيرانها قد يتقولون عليها: إنها غريبة الأطوار، هذا واضح. لعلها مجنونة.

لقد اتخذت قرارا لنفسها ولكلابها وللآخرين الذين لم ينووا أن يسببوا لها أذى، ومع ذلك سببوه. وللقنادس القديمة التي قامت بتجميع عظامها على ضوء القمر وأعادتها إلى الأرض المتخمرة الرطبة لتغذي جذور شجرة الحور الرعاش، لتصير أغصان شجرة صنوبر تطاوع قضم القنادس اليافعة وترص في سدود قنادس جديدة.

أول مرة تدخل فيها الدغل عن قصد كانت خطواتها في حذاء التخويض تطأ سطح الأرض الكثيف وتغوص فيه. تقدمت على الأرض بثبات ناظرة إلى أسفل، مستخدمة، أحيانا، المذراة لتستعين بها على صعود المرتفعات.

عند منتصف النهار توقفت عن العمل واستندت على المذراة مريحة جبهتها، التي يتألق عليها العرق، على يدين عريضتين محاطتين بقفاز. راقبت، بينما كان صدرها يتسع ويضيق وأنفاسها مجهدة، السحب الكثيفة تتشكل ثم سرعان ما تتلاشى. تأملت قليلا فيما قامت به من هدم وتساءلت للحظة عما إذا كانت القنادس ستستوعب ذلك، ثم عادت إلى مواصلة هدم السد.

الهدم: مرارا وتكرارا كانت تنكب على العمل في الرابية المكسوة بالطحالب، بحساء الأرض العضوي الخاثر المتكون من غرين الكوارتز وسلكات الألمنيوم والكتل الرملية والصلصالية والطينية، إضافة إلى فروع الحور الرعاش المقضومة والمكسوة بالوحل وأغصان التنوب والصنوبر، متوزعة في أكوام أمام بعضها أو على زوايا مختلفة من بعضها. امتزجت قطرات صغيرة من عرقها مع أول بدايات السيلان البطيء لمياه الجدول فوق السد.

شعرت، فجأة، بأنها شديدة الخفة إلى درجة لم تعد تتحكم معها في رجليها، فسقطت إلى الخلف ببطء، غارقة، بابتهاج، مطلقة أنفاسها في موجات من المياه المخرخرة وصرير الجنادب. مكثت مستلقية هناك، تحت سماء أكتوبر الصاحية، تتنهد مبتلة.

فيما بعد شاهدت، من فوق صخرة كبيرة تشرف على الوادي، رجل البحيرة وهو يتفحص الجدول. يتمشى، أحيانا، بحذاء الجدول متوقفا عند بضعة نقاط على الضفة حيث تنتشر جذوع صغيرة وكتل من الطحالب الموحلة وأكوام الأغصان، على نحو لا يبدو عشوائيا: حسنا، إذن فكل شيء على ما يجب، لعله فكر بهذا الشكل. عاد المطر إلى الهطول. نظر الرجل إلى السماء وهو يستدير مغادرا. تنفست الصعداء، ولكنها كانت تعلم بأنه سيعود، مثلها.

* * * *

جفلت بسبب اصطدام الأجنحة بزجاج نافذة المطبخ. طائر قيق ظن، مرة أخرى، أن الزجاج سماء، فقررت أن تضيف إلى

قائمة مشترياتها ورقا ناسخا[1] عندما تذهب إلى البلدة. أفرغت فنجانها واتجهت إلى عملها في الجدول.

في مدة تالية، من ذلك الخريف، سمعت بموت رجل البحيرة. تذكرت أول مرة رأته فيها بقميصه الذي كان، بخطوطه الحمراء المتقاطعة، متميزا من الغابة المتمايلة. تعرفت عليه من خلال منظارها المكبر بقدر ما كانت ترغب. كثيرا ما راقبت قوامه الصغير وهو يمشي برفق عبر الأجمة الكثيفة وقد جعلت منه القمم الهائلة المرتفعة12000 قدما يبدو قزما. قرفص مرة فترة طويلة يراقب القنادس وهي تسبح عبر البركة في خط مرتجل على هيئة حرف z وتصورته كائنا لاماديا غريبا. لعله شاهد، مثلها، أطيافا تتخلل غابة الصنوبر النحيل الجذوع المستخدم في بناء المساكن، أرواحا هائمة، أشباحا قديمة تسير على قوائمها الخلفية. لعله حتى سمعهم وهم يضحكون.

قريبا سيحل الشتاء، وستظل القنادس قريبة من مساكنها الجماعية. ستعيد هي، في فترة البيات، زرع الحبوب التي تتغذى عليها الطيور وتقطع الأخشاب وتراقب السماء مستطلعة

(1) ورق خاص معد لنقل ما عليه من رسوم وزخارف إلى سطوح أخرى مثل الزجاج.

علامات قرب هطول الثلج. ستنتظر مجيء الذوبان الربيعـــي، عندما تعود القنادس إلى ممارسة البناء، لتعرف من سيرســـلونه إلى الطريق المغبر الموصل إلى بحيرة سميث.

* * * *

وصف مدخن

تشاد نورتون

حتى وهي جافة ومدعوكة ومهملة، فإن أعقاب السغائر عديمة الأهمية تقول عن الرجل أكثر مما يمكن لأطفاله أن يقولوه عنه. من هو، وماذا كان، لا يمكن أن يكون متاحا بوضوح لأي شخص من أقربائه أو لزوجته السابقة أو لزملاء الدراسة في المرحلة الثانوية، بقدر ما يمكن أن تكشف عنه المعرفة التفصيلية بكيف، وماذا، يدخن:

تسحب [الورقة الرقيقة]، وهي منثنية من منتصفها، من جراب جلدي بال، وتدار بمهارة لاواعية في خط متعرج بين السبابة والإبهام، وتلف بحركة يد واحدة. تربيتة متلهفة من قبل لعاب برأس لسانه تقفل الورقة على نفسها وسرعان ما ينبض غطاء الولاعة منفتحا، قبيل أن يومض رأس السيكارة محمرا.

كان ذلك ما كان عليه.

ولكن ذلك لم يكن ما كانه دائما. فلقد تحول إلى شخص من ذلك النوع ذات صيف، منذ سنوات مضت، في شاحنة

صندوقية مخطوفة صحبة أصدقاء. خلال حركة السيارة المضطربة المتمايلة شقت سيغارة سيئة اللف طريقها إلى فم صبي. صبي ذي ابتسامة متكلفة خبيثة وميل نحو التهريج. صبي سعى إلى حيازة رباطة جأش أبطاله وهو في بدايات تبلور الرجولة. عند ذلك ابتدأ تحوله، حين كانت طموحات المراهقة غير الملجومة قد تطورت ببطء إلى عاطفة متميزة، خانقة تثير الرغبة في الحديث لدى الجميع، ما عداه.

بالطبع انبثق دخان من بين شفتي الرجل أكثر مما تدفق من الكلام، لضآلة حاجته إلى المحادثة. كانت السغائر أكثر من[1] يرافقه، أكثر ناصحيه الهامسين الموثوقين. ومثلما هو متوقع وطبيعي، كما هو الشأن مع أنف أو نمش على وجه غريب عابر بالنسبة لمعظم الناس، سيبدو هو غريبا وناقصا، مشوها على نحو ما، إذا ما حل الفراغ على نحو غريب بشفتيه في الموقع الذي ينبغي أن يكون الموقع الملائم للسيكارة.

أن تراه يعني أن ترى السيغارة.

---

(1) استخدمنا هنا اسم الموصول الدال على العاقل لأن السياق يضفي على السغائر سمات إنسانية.

الأعقاب المبللة المصفرة، التي يشحنها بأنفاسه، ترد لـــه الجميل بلثم أطراف أصابعه وأنفه بالـــشحوب الـــذي يـــضفيه الفورمالديهايد، مبقعة بشرته بما يشبه وشم افتخار بحبه الحقيقي الوحيد. كما أنه يحمل ندوب السغائر على كل قميص وبنطلون وجورب ومعطف وسروال قصير يملكه، على هيئة جدري بفعل الشرارات الملتهبة أو الرماد الساقط. نفس الشيء يمكن أن يقال عن أرائكه وبطاطينه ووسائده وشراشفه وبسطه ومقاعد سيارته، فلقد كان ينشر تلك الهيئة الدالة على المرض أينما ذهب.

لكن الشيء الأكثر حضورا، الأكثـــر اســـتفزازا، كـــان رائحته. فالرجل كان التدخين مجسدا. لقد كان التدخين يستوطن كل مسام وكل خلية، يندس تحت أظافر قدميه ويلوب مع طبلتي أذنيه. وبالنسبة لمعارفه الجدد فإن رائحته الفاغمة، الزنخة، تغثي المعدة وكانت جزءا منه، كما لو أنها تنبعث من روحه مباشرة.

زوجته تعرفه بقدر ما تستطيع. تعرف أنه ليس أبا لأطفاله وأنه مستاء من اكتناف أطفالها معه في بيته والـــصرف علـــى احتياجاتهم. وتعرف كذلك أن أي حب تبادلاه في الـــسابق قـــد زال، تاركا إياها بدون مكان تذهب إليه.

لذا عرفت ما الذي يحبه ومتى يريده: بيضا رائبا تكـــون

شمسه مواجهة، مع شرائح خنزير، خبزا محمصا وركوة قهوة قبل الذهاب إلى العمل، غداء وافرا حين يأتي عند منتصف النهار، مارتيني جن جافا كالصحراء حالما يجتاز الباب ليلا، وعلبا من التبغ، زجاجات من شراب أخف وعلبا من ورق اللف مخزنة في الخزانة من أجل السغائر التي سيستمتع بها قبل وأثناء وبعد كل وجبة وخلال بقية نهاره.

زوجته لا تدخن.

إلا أنها كانت تهتم بسغائره قدر اهتمامها به. فهي توليها العناية التي تحتاجها. تمتلك منافض من كافة المواد والتصاميم الممكنة موزعة، حسب نسق مرسوم، عبر البيت فوق أي مسطح تكون سعته وتسطحه كافيين لاستيعابها. بعضها كان حديث الطراز مصنوعا من الزجاج وجاء كهدايا. وبعضها كان قد سرق من المطاعم، وكانت تبدو منبتة العلاقة بالمكان في وضعها قرب التحف الخزفية المتسخة بفعل لمسات أيدي الأطفال التي كان الرجل يتعمد تجاهلها وراء غيوم دخانه. وقبل أن تسنح الفرصة لأية منفضة باحتواء أكثر من عقب أو عقبين، من السغائر المصنوعة يدويا، امتص منها أو منهما الزوج الحياة، تهب الزوجة. وفي زوبعة نشاط، تكون الأشياء المتسخة

قد أبعدت ورميت محتوياتها في المدفأة، قبل اختتام الشطف بـ(البالموليف) والماء الساخن في حوض المطبخ بدعكات من منشفة صحون ملائمة لخزف صيني راق.

تكررت هذه الشؤون اليومية آلاف المرات طوال ما يزيد على خمس وعشرين سنة من الزواج، وفي كل مرة كانت زوجته تبحث عن شيء ما في تلك المنافض اللامعة. على ذرة استحسان أو ومضة امتنان. هناك كانت تبحث عن زوجها ولم تعثر عليه أبدا.

يُستدل على وجوده فقط من خلال الحيز المادي الذي يشغله كسحابة دخان عابرة. ذلك كل ما كان هنالك. ما يشابه كثيرا الطيات الملتفة مغلفة مادة سغائره- المحتوى الإنساني للرجل لم يتكشف أبدا.

كان، فعلا، عالما منغلقا على نفسه، طبوغرافيا نيكوتينية مشوشة من الطيات والتغضنات والشقوق محاطة بضباب دخاني مستدام صادر عن السغائر المستهلكة. نفثات طويلة رقيقة من الهواء المشبع بالقار ونثار التبغ المزفور تنبعث من جسده بمجرد جلوسه فوق كرسي على رأس مائدة غرفة الأكل. الأصابع الشبحية المعلقة في الهواء على ارتفاعات متباينة والتي

تزحف بطيئا عبر بقية الغرفة حيث تنتشر فوق المصابيح، والكراسي والكتب، مثل ضباب منخفض فوق تلال خفيضة جرداء وشواهد قبور منسية. وحين ينقشع الدخان في النهاية، يكون الرجل قد ذهب.

جرة من خشب الماهوغني مغلفة بقطع نحاسية صقيلة توضع أحيانا فوق رف المدفأة المزدحم في بيت الرجل. المنافض المتألقة تحيط بالصندوق في إجلال صامت وهي تنتظر احتمال وضعها في محل بيع خردوات أو الذهاب في رحلة إلى سوق الخردوات رفقة مجموعة من الملابس الرجالية الخلقة المغطاة بثقوب سوداء ضئيلة غريبة. وأدنى من ذلك، قرب قطع الخشب الباردة المتفحمة التي مضى عليها أسبوع في المدفأة، تظهر أيضا بقايا السغائر المرمية الملطخة مستقرة أكواما في المنافض.

* * * *

راعي الفنون

بروس هولاند روجرز (*)

اعتدت أن أذهب، بعد العمل، إلى مقهى بعينه في جادة الملكة، ودائما كنت أتناول هناك قهوة بالحليب مع مرطب التفاح أثناء قراءتي صحيفة لو دوفوار، مبتدئا بصفحة الرأي. كان النادل يعرف طلبي فيحضره فور جلوسي، وكنت أترك دائما نفس الإكرامية.

اعترتني ذات نهار ربيعي، أول نهار دافيء تقريبا عقب شتاء قاس، إحدى حالات عدم الرضى المباغت، كالطقس المزعج. كنت قد سمنت أثناء الشتاء. وكنت ما زلت أعزب بدون بشائر في الأفق. كما أني كبرت سنة عن الربيع الماضي.

كنت بحاجة إلى تغيير. وأنا أسلك طريقي المعتاد من المكتب قررت تناول قهوة الحليب في مقهى آخر.

سرت عبر جادة سان بول باحثا عن مقهى ملائم. مررت بعدد كبير من المقاهي لم يكن ولا واحد منها ملائماً (مزدحمة بالسواح، ذات ضوء شديد السطوع، شديدة العتمة،

(*) قصاص أمريكي

هذا شديد القرب من ضجة حركة المرور، وذلك مكشوف تماما للرياح). واصلت. أحد المقاهي كانت مظلته شديدة الاتساخ. يمكن للتفاصيل الصغيرة أن تشي بالكثير عن المكان. إذا لم يكونوا ينظفون المظلة فكيف سيكون حال المطبخ؟ شعرت بالتعب. بدأت أندم على مغامرتي. وعندها، أخيرا، عثرت على مقهى مقبول، تقريبا. فإذا ما عدلت مقاييسي قليلا، بحيث أقبل بوجود زهرة صناعية على كل منضدة، فإن المقهى سيلائمني.

كان النهار، كما قلت، دافئا تقريبا. دافئا بما يكفي لأن تكون هناك مناضد وكراس في الخارج. ولكن ما زالت هناك ريح كافية لدفع كافة الزبائن إلى الدخول إلى الداخل. مضيت إلى الداخل فقط للفت نظر النادل، ثم جلست إلى منضدة كانت أقل المناضد عرضة للريح ولكنها ما زالت في الشمس. فتحت لو دوفوار على صفحة الرأي، وكنت في منتصف الصفحة لما أحضر النادل إليَّ قهوة الحليب ومرطب التفاح، فطلبت منه إحضار الحساب مباشرة. كان السعر يزيد قليلا عما هو عليه في مقهاي المعتاد، زيادة كافية لجعلي لا أفكر في المجيء هنا ثانية. سأترك إكرامية محترمة مستغلا هذه الفرصة للتخلص من كمية العملة المعدنية التي في جيبي.

أعلن صوت رجولي عال بقربي:

- أيتها السيدات والسادة: أشكركم! أشكركم!

رفعت نظري عن الصحيفة. كان رجل يرتدي بدلة سوداء ليست مقاسه وقبعة حمراء يقف وراء أقصى منضدة. كان ينظر نحوي، ثم جال ببصره من منضدة إلى أخرى، كما لو كان ثمة حشد عظيم متنوع من الرواد وكان ينظر في عيني كل شخص فيه.

- أشكركم.

قال مرة أخرى.

- من فضلكم...

وأتى بإشارة كما لو كان يطلب الكف عن التصفيق.

- أنا، كما يعرف الكثيرون منكم، دونات بوبت. ستكون قراءة اليوم قصيرة...

رفع يديه:

- أرجوكم. أنا آسف. لا بد أن تكون القراءة قصيرة اليوم. سأبدأ بقصيدة لألن بوسكت، عنوانها" لا حاجة".

أطل النادل برأسه من الباب ليسألني:

- هل يزعجك؟

لو أنني كنت أفكر في أن أكون مترددا منتظما على هـذا المقهى فلربما كنت سأجيب بالإيجاب. وبما أن مجيئي إلى هنـا كان، على أية حال، بغرض المغامرة لمرة واحدة، أجبت:

- كلا على الإطلاق.

طويت صحيفتي.

- لا تمنحه أية نقود.

قال النادل. ثم موجها كلامه إلى السيد بوبت:

- إذا تقدمت بين المناضد والكراسي فسيعتبر هذا تعديا!

قال بوبت:

- أرجوكم. احتفظوا باستحسانكم حتى النهاية.

عاد النادل إلى الداخل. كانت القصيدة قصيرة وتدور حول كيف أن بنيات الحيوانات ملائمة لاحتياجاتها. فخرطوم الفيـل يجعله غير مضطر للانحناء، عنق الزرافة يغنيها عن الطيران، جلد الحرباء يغنيها عن الهروب، ودرع السلحفاة يغنيهـا عـن

البحث عن مأوى. وبالنتيجة تعني قصائد الشاعر أن الشاعر ليس في حاجة إلى أن يَفهم. أو ربما كان المقصود أن الشاعر ليس في حاجة إلى أن يُفهم. ثم حرك يديه في زهو بالغ وهو يتلو السطر الختامي. نزع القبعة من على رأسه وانحنى قائلا:

- أشكركم! أشكركم جميعا! إنكم في غاية اللطف.

- لست متأكدا من أنني قد فهمت.

- هل هناك سؤال؟

وجه بوبت أذنه بيده كما لو أنه التقط صوتي من بين صخب المعجبين.

الغريب أنني رفعت صوتي قائلا:

- إنني لا أفهم هذا!

قال بوبت:

- آ، حسنا. الفهم ليس هو كل شيء، أليس كذلك؟

أعاد قبعته إلى رأسه.

- هذه، على سبيل المثال، مقطوعة ستكون واثقا من أنك لا تفهمها. عنوانها:" طيران فوق سان لورو". ثم أخذ يلقي

قصيدة طويلة عن المعالم الأوروبية الكبرى وهي تحلق منطلقة من نهر فلوف باتجاه بحيرة أونتاريو. بوابة برانديربرغ، قوس النصر، مسلة نلسون، كلها، إضافة إلى معالم أخرى، حلقت على البحر بعكس التيار. كان من بينها تماثيل نصفية وكاملة من أثينا والبرتغال وأوسلو. عندما بلغت البحيرة مكثت هناك تضرب الأمواج ولا تكف عن التدخل في السفن. وفي النهاية كرر دونات بوبت إشارة الزهو البالغ. عرى رأسه وانحنى قائلا:

- أشكركم! أشكركم جميعا شكرا جزيلا جدا. التواضع يمنعني من إخباركم باسم مؤلف هذه القصيدة. أشكركم.

صفقت أدبا. التقطت صحيفتي ونهضت.

- قبل أن تغادروا، أيتها السيدات وأيها السادة، سأكون شديد الامتنان لرعايتكم. أي مبلغ سيكون مُعينا. إني أعني ذلك تماما. البنس لا يعني لكم شيئا، ولكن بالنسبة لشاعر فالبنس هو صورة الملكة!

تذكرت تحذير النادل بعدم منح الشاعر أي شيء، ولكن منحه بعض القطع المعدنية سيكون أقل سماجة من الذهاب دون القيام بذلك.

نظرت إلى القطع التي تركتها للنادل على المنضدة. كانت توجد بها بنسات وأرباع ودولار معدني. ولكن منح بنس يعد إهانة، بغض النظر عما قاله بوبت للتو. ولا يبدو الاسترجاع من النادل الذي حمى عزلتي أمرا لائقا، حتى إذا كنت قد رفضت حمايته. فتحت محفظة نقودي وأخرجت خمسة دولارات.

عندما مددت الورقة لدونات بوبت نظر إليَّ في عينيَّ ثم قال:

- أشكرك.

وبمجرد أن شرعت في السير مبتعدا أخرج قلما وأخذ يرسم علامات على الورقة. كان يشوه وجه لورير. كان يحاول جعل وجه رئيس الوزراء العجوز يبتسم.

لم أكن قد ابتعدت عن المقهى إلا قليلا عندما سمعت نداء:

- أيها السيد! أيها السيد!

كان بوبت يركض ورائي ملوحا بالورقة

- خمسون! هل قصدت فعلا منحي هذا المبلغ الكبير؟

- خمسون؟

قلت. كان كلانا يعرف تماما كم أعطيته. ولكنـــه أرانـــي ورقة الخمسة دولارات. لم يكن، فقط، وليم لورير يبتسم، ولكن بوبت أضاف 0 بعد كل 5 وخمسة أصبحت: خمسون.

صحت مقطبا:

- هذه ليست مزحة. أن ترسم ابتسامة فذلك شيء ـــــ

قال بوبت:

- خمسون! أنت راعي فنون حقيقي، أيها السيد! أنـــا شـــديد الامتنان! أرجوك، تناول طعام الغداء معي، على حسابي. أرجوك! سأجهز الوجبة بنفسي. خمسون! سأعرِّف خلايا الذوق لديك على الهند الصينية! لا بد أن توافق! أرجوك قل بأنك ستمنحني هذا الشرف!

لقد حذرني النادل من إعطاء هذا الشخص نقـــودا، ربمـــا لأنه من عادة بوبت فرض نفسه على المانحين. لعله كان يـــدبر نوعا من خدع اكتساب الثقة. ولكن لم تكن لديَّ، بـــالطبع، ثقـــة فيه. لذا كيف سيستغل ذلك ضدي؟ أستطيع الذهاب إذا اتخـــذت الأمور منعطفا لا يروقني. لم تكن لديَّ خطط أفضل. أنا أعمـــل يوميا مع أناس واعين متعقلين. ألم أقرر القيام بمغامرة اليوم؟

- حسنا. أنا موافق. ولكن عليك ألا تقدم تلك الورقة على أساس أنها صالحة. ليس بحضوري.

قال وهو يديرني:

- شقتي في هذا الاتجاه. سنتوقف لشراء بعض الأشياء خلال الطريق. أوه، يا للمأدبة التي سنقيمها!

دخلنا إلى محل مواد غذائية صغير. فكرت: أه، هذه هي لعبته. سيحاول جعلي أدفع ثمن مؤونة أسبوع! ولكن مشتريات بوبت كانت تتكون من دجاج منزوع العظم وليمون. الدولارات الخمسة التي لديه تغطي ذلك. ونحن واقفان في الصف اهتم بوبت بباقة أزهار ثمنها 6,99$. تفحص ثلاث باقات مختلفة، ثم أعادها إلى أمكنتها. نقرت المحاسبة سعر الدجاج المنزوع العظم ثم الليمون... وفي اللحظة الأخيرة مد بوبت يده إلى إحدى الباقات.

- لا غنى عن كرمك. ولكنني أستطيع أن أدفع سعرها!

قال.

قدم للمحاسبة الخمسة دولارات وابتسامة. بالكاد نظرت إلى الورقة النقدية، وظلت تنتظر الباقي.

- ما الأمر؟

قال بوبت.

- المبلغ لا يغطي.

قالت المحاسبة.

- وكلمتي! كم تساوي

قال بوبت.

نظرت المحاسبة إلى الرقم الإجمالي:

- ستة دولارات وسبعة عشر سنتا.

هز بوبت رأسه.

- سعر لحياة مرفهة!

ثم ناظرا إليَّ:

- لست متعودا على الصرف بهذا التساهل. أخشى أن تكون منحتك قد دوختني. أعتقد أنه يمكنني تدبر أمري بدون الأزهار.

أزهار. أهذا هو كل ما كان يريده مني؟ كنت ممتنا لأنه لم

يقل للمحاسبة بأنه قد أعطاها خمسين دولارا. فتحت محفظتـــي. أعطيته عشرة دولارات. قام بالدفع. تناول الباقي ولم يضعه في جيبه مثلما كنت أتوقع. رد لي الباقي قائلا:

- إني في غاية الإحراج. أنا متخلف عن الزمن. كنت أعتقد أن خمسين دولارا ستحملنا إلى ما هو أبعد. لكن لا يهـــم. ما زالت لدينا مأدبتنا!

سرنا معا عبر شارع سان فرانسوا كسافيي. لم أفهم كيف يتحمل العيش في هذه المنطقة. ثم دخلنا شارعا جانبيـــا وبلغنـــا مبنى من أحجار قديمة متصدعة. كانت بعض النوافذ قد أضيفت إليها رسوم. فتح بوبت باب الردهة بالمفتاح وبقي واقفا.

- أوه، ما الذي خطر لي؟ إننا في حاجة إلى نبيذ. أنا آسف. هل تصنع فيَّ معروفا بإحضار شيء من النبيـــذ؟ يوجـــد محل بيع خمور بالقرب.

أرشدني إلى كيفية الوصول إلى محل الخمور.

ذهبت واشتريت النبيذ. اشتريت نوعا ممتازا، شاردوني، لأنني اعتقدت أنني ربما سأشربه وحدي. مع بوبت مفتاح ذلـــك المبنى المتهالك، وإن يكن؟ قد يكون سرقه. لعله مضى بلعبتـــه

معي إلى أقصاها. لم أكن متيقنا من أن الرجل يعيش في مكـــان آخر غير الشارع.

حينما عدت وجدت اسمه خلف الزجاج المتشقق بلوحـــة استعلامات المبنى.

- الدور الثالث.

أجابني عندما قرعت الجرس.

- شقتي ذات باب عليه نقوش فائقة الروعة. ستتعرف عليه حالما تراه. الشقق الأخرى... جيراني لا يعتنون بمساكنهم مثلما أفعل.

اهتديت إلى السلالم. كان بئر السلالم مــضاء بمــصباح عار. لم تكن هناك بالدور الثاني أية أبواب ذات نقوش تزيينية. كانت الأبواب والمداخل مصفرة من الاتساخ. تــساءلت مـــا إذا كانت مطلية منذ القرن الماضي.

لم ألحظ وجود أبواب غير عادية في الدور الثالث أيضا. فقط نفس الطلاء الأصفر، ونفس الأكرات المنبعجة. وأخيـــرا، وفي نهاية المدخل، يوجد باب مثل بقية الأبواب مكتوب عليـــه شيء ما. كانت الكتابة تقول:" باب ذو نقـــوش رائعـــة شـــرقية

الطابع". جعلني ذلك أبتسم. طرقت الباب.

فتح بوبت الباب مرتديا مئزرا. قال:

- الغداء على وشك أن يجهز! هل نفتح النبيذ كي يتنفس؟

قلت:

- إنه شاردونى. يمكننا شربه مباشرة.

- ادخل، ادخل!

قال مشيرا بيده إلى الداخل.

- من فضلك. ألق نظرة حولك.

خلف الباب مباشرة كانت مربعات ومستطيلات كبيرة تتوزع على جدران الردهة الضيقة وفي كل منها مزيد من الكتابة بنفس الخط الذي يعلم الباب الخارجي. في أحد المستطيلات كان مكتوبا:" مستنقع الغابة، لفيدور فاسيلييف". في المستطيل المجاور كان مكتوبا:" غدير مونتجيرو، كلود مونيه". لم تكن الشقة أكثر من مدخل يقود إلى غرفة وحيدة بها منضدة وكرسي في إحدى الزوايا وموقد في أخرى ثم سرير في الثالثة. وهنا كانت اللوحات المتوهمة:" أليكساندر موردفينوف، منظر من القناة الكبيرة في فينيسيا، منتصف النهار". " حديقة في

جيفرني، كلود مونيه". قال بوبت وهو يعمـل قـرب الموقـد والملعقة في يده:

- أنا أحب الروس، كما ترى.

- ومونيه.

أضفت.

- مونيه بالطبع! مونيه رب! أتمنى الحصول على واحدة من تبنياته[1].

- ما زال لديك بعض الفضاء على الجدران.

قلت. قال بوبت:

- ولكن ليس النقود. ليس الآن.

ضحك.

- على الرغم من أنني قد التقيت الآن براعي فنون ثري...

على الأرض وبداخل مستطيل آخر كان مكتوبا:" سـجادة إيرانية ذات ألوان سوداء وذهبية وحمراء وبيضاء، في تنـاغم دقيق". الكرسي الخشبي المتواضع المسند إلى الجدار كان مكتوبا

(1) نسبة إلى التبن.

عليه:" كرسي وثير التنجيد بمسندين للذراعين. أحمر".

جلست على الكرسي الأحمر. ابتسمت. وفي الحقيقة خامرني شعور بأنني راعي فنون ثري فعلا. حككت بطني. كان هناك ما يأكلني في الداخل، تحت شحم الشتاء. لقد كان شحم شتاءات عدة. كان بوبت يحرك ثلاثة مقالٍ فوق الموقد بنشاط فائق. قلت:

- رائحتها شهية.

و كانت كذلك فعلا. فمهما كان ما يفعله مع الدجاج منزوع العظم فإن رائحته كانت فاغمة وغريبة.

باقة الأزهار كانت موضوعة على منتصف المنضدة في جرة زجاجية كتب عليها:" من البلور". كانت النافذة الأكبر في الشقة مطلة على زقاق ولكن كان مكتوبا على واجهتها:" مطل على سان لورو". فتح بوبت النبيذ وصب منه كأسين. قال:

- تعال، تعال!

نهضت من على الكرسي الوثير ذي المسندين. قدم بوبت غداءنا في صحون من الصيني لم تكن من مجموعة واحدة، ولكنها كانت أنيقة. يوجد بكل صحن كومة من الأرز يبدو، من

خلال قطع البازلاء والجزر، أنه من بقايا وجبة سابقة. تغاضيت عن ذلك. الدجاج المنزوع العظم قسم إلى ثلاثة أقسام طهي كل قسم منها في توابل مختلفة. كانت تزين كل صحن زهرة. أكلنا. تبينت وجود عشب الليمون[1] والفلفل الأحمر في جزء، والليمون والكزبرة في جزء آخر. وفي الثالث استطعمت شيئا من الثوم وربما نكهة الزنجبيل. كانت الأصناف الثلاثة رائعة.

استرخيت. جلت بنظري في الحجرة.

– هل تلك المبخرة عتيقة فعلا؟

كانت مصنوعة من صفيحة ألمينيوم مطوية. وكان مكتوبا فوق السطح الأقل تغضنا:" مبخرة برونزية من عهد أسرة تانغ".

قال الشاعر:

– آ، نعم. لقد ورثتها. كانت عائلتي غنية زمنا ما.

رفع كأس النبيذ قائلا:

– من أجل الفن والفنانين.

– لكنني لست فنانا.

---

(1) نوع من التوابل.

قال دونات بوبت:

- أنت، بالتأكيد، فنان يا صديقي. أكثر من ذلك أنت راعي فنون ثري، رجل يثير الإعجاب بذوقه وكرمه. أحييك!

رفعت كأس النبيذ. وبيدي الحرة حاكيت حركة الزهو التي قام بها بوبت بيده لما أن أنهى قراءة قصيدة. قلت:

- أشكرك!

شربنا. انتهينا من الزجاجة في وقت قصير. في مرحلة ما سألته:

- كم تحتاج، للحفاظ على كل هذا؟

قال:

- منحة خمسين دولارا، بين الحين والآخر، مثل التي منحتها لي اليوم...

و بهذا الشكل صرت أحد الراعين الرئيسيين لشاعر مونتريال دونات بوبت وأصبح من عادتي تناول الطعام معه، بين وقت وآخر.

* * * *

المهمة

ريموند كارفر[1]

تشيخَف. ذهب، مساء 22 مارس 1897، ليتعشى في موسكو صحبة صديقه وكاتم أسراره ألكسى سُفرِن. كان سفرن هذا ناشر كتب وصحف شديد الثراء، رجعيا، وعصاميا، والده كان جنديا في موقعة بورودينو. و، مثل تشيخف، كان حفيدا لقن. هذا هو القاسم المشترك بينهما: كلاهما تجري في عروقه دماء فلاح. فيما عدا ذلك، كانا، سياسيا ومزاجيا، على مسافة أميال من بعضهما. ومع هذا، فقد كان سفرن من أصدقاء تشيخف الحميمين القلائل، وكان تشيخف يبتهج بصحبته.

ذهبا، طبعا، إلى أفضل مطعم في المدينة يسمى الصومعة، كان في السابق مبنى تابعا للبلدية- وهو مكان يتم فيه قضاء ساعات، وحتى نصف ليلة، لإتمام وجبة من عشرة أطباق تشمل، بالطبع، بعض الأنبذة والمشروبات الكحولية، والقهوة.

---

(1) Raymond Carver (1938-1988) أديب أمريكي اشتهر ككاتب قصة، كما أنه كتب الشعر والمقالة.

كان تشيخف، مثلما هو شأنه دائما، قد ارتدى ملابسه بعناية شديدة– بدلة سوداء وصدرية، إضافة إلى نظارته الأنفية[1] المعتادة. بدا ليلتها شديد الشبه بهيئته في الصور التي التقطت له في تلك الفترة. كان مرتاحا ومرحا. صافح النادل، وفي لمح البصر اقتيد إلى قاعة طعام واسعة. كانت مضاءة إضاءة ساطعة بشمعدانات مزخرفة، والمناضد مأهولة برجال ونساء أنيقين. النُدّل يسعون دون توقف. كان قد جلس إلى المنضدة لتوه في مواجهة سفرن حين أخذ الدم، فجأة ودون سابق إنذار، ينبثق من فمه. ساعده سفرن ونادلان في الذهاب إلى غرفة الرجال حيث حاولوا كف تدفق الدم بقوالب من الثلج. اصطحبه سفرن معه إلى فندقه وطلب تجهيز سرير له في إحدى غرف الجناح. في ما بعد، عقب نوبة نزيف أخرى، وافق تشيخف على نقله إلى عيادة متخصصة في معالجة السل وأمراض الجهاز التنفسي المتعلقة به. اعتذر تشيخف، حين زاره سفرن هناك، عن "الفضيحة" التي حدثت في المطعم قبل ثلاث ليال، إلا أنه تمسك بالتأكيد على أنه ما من خطورة في الأمر. كتب سفرن في يومياته: " ضحك ومزح كعادته، بينما كان يبصق دما في إناء

---

(1) pince-nez نظارات تقبض على الأنف بنابض.

كبير."

زارته ماريا تشيخف، أخته الصغرى، في العيادة، في الأيام الأخيرة من مارس. كان الطقس مكفهرا: عاصفة شفشاف[1] قيد التكون وأكوام متجمدة من الجليد تجثم في كل مكان. كان من الصعب عليها أن تستوقف عربة لتقلها إلى المستشفى. عندما وصلت كانت تمتلىء فزعا وقلقا.

كتبت ماريا في مذكراتها: " آنطون بافلوفتش يستلقي على ظهره. لم يكن مسموحا له بالكلام. بعد أن حييته اتجهت إلى المنضدة، لمداراة انفعالاتي."، وهناك، بين زجاجات الشامبانيا، وأوعية الكافيار، وباقات الزهور التي أحضرها الزوار، رأت شيئا أرعبها: تخطيطا يدويا، واضح أنه أنجز من قبل اختصاصي في هذه الأمور، لرئة تشيخف. كان تخطيطا من ذلك النوع الذي يقوم به الطبيب عادة ليوضح لمريضه ما يعتقد أنه واقع الحال. محيط الرئة كان مخططا بالأزرق، وكانت الأجزاء العليا منها ملونة بالأحمر. كتبت ماريا:" أدركت أنها الأجزاء المصابة."

---

(1) sleet : شفشاف = مطر مع ثلج (أو) بَــرَد. (قــاموس المغنـــي الأكبـــر. إنكليزي- عربي)

ليو تولستوي كان أحد زائريه. كان العاملون بالمستشفى منذهلين من وجودهم في حضرة أعظم كتاب البلاد. أشهر رجل في روسيا؟ من الطبيعي أن يسمحوا له بالدخول لرؤية تشيخف، على الرغم من أن الزوار" غير المهمين" قد منعوا. أُصطحِب الرجل المسن حاد النظرات والملتحي إلى غرفة تشيخف، بكثير من الطاعة، من قبل الممرضات والأطباء المناوبين. على الرغم من تقليل تولستوي من قدرة تشيخف ككاتب مسرحيات(حيث كان تولستوي يشعر أن مسرحيات تشيخف جامدة وتفتقر إلى أية رؤية أخلاقية. [حتى أنه] سأل تشيخف مرة:" إلى أين تقودك شخصياتك؟ من الأريكة إلى حجرة الخزين ثم العودة.") إلا أنه أحب قصصه القصيرة. وأكثر من ذلك، أحب الرجل بصدق. قال لغوركي:" ياله من رجل حسن رائع: خفر ودمث، مثل فتاة. يمشي أيضا مثلما تمشي فتاة. إنه رائع تماما."، كما كتب تولستوي في مذكراته(الكل كان يكتب مذكرات أو يوميات في تلك الأيام): " إنني سعيد بمحبتي. . . لتشيخف."

خلع تولستوي شاله الصوفي ومعطفه المصنوع من فرو الدب، ثم أسقط نفسه على كرسي قرب سرير تشيخف. لم يهتم بكون تشيخف كان تحت العلاج وممنوعا من الكلام، ناهيك عن خوضه في نقاش. كان على تشيخف الإصغاء، في استغراب،

عندما بدأ الكونت يحاضر بشأن نظرياته في خلود الروح. كتب تشيخف فيما بعد بخصوص تلك الزيارة: " يفترض تولستوي بأننا جميعا(بشرا وحيوانات أيضا) سنمضي في العيش على مبدأ ما(مثل العقل أو الحب) جوهره وغاياته غامضة بالنسبة إلينا. . . لا حاجة لي إلى ذلك النوع من الخلود. إنني لا أستوعبه، وكان ليف تولستوي مندهشا من ذلك."

رغم هذا، كان تشيخف متأثرا بما دلت عليه زيارة تولستوي من اهتمام. وعلى خلاف تولستوي، لم يكن تشيخف يؤمن بحياة أخرى، ولم يسبق له أن آمن بها. لم يكن يؤمن بأي شيء لا يمكن إدراكه بواحدة أو أكثر من حواسه الخمس. واتساقا مع ما توصلت إليه نظرته إلى الحياة والكتابة، أخبر أحدهم ذات مرة بأنه تعوزه" النظرة الدينية والسياسية والفلسفية إلى العالم. ذلك أنني أغير هذه النظرة شهريا. لذا عليَّ الاكتفاء بوصف أبطالي وكيف يحبون ويتزوجون ويلدون ويموتون، وكيف يتحدثون."

قبل ذلك، قبل تشخيص إصابته بالسل، كتب تشيخف: " حين يصاب فلاح بالسل فإنه يقول: ليس بوسعي فعل شيء. سأقضي في الربيع مع ذوبان الجليد." (مات تشيخف في

الصيف، خلال موجة حر.). وعندما تبينت إصابته بالسل، حاول باستمرار التقليل من خطورة حالته. كان يبدو أنه يشعر، دونما ريب، أنه بوسعه التخلص من المرض كما لو أنه نزلة في الجهاز التنفسي طال أمدها. وفي أيامه الأخيرة تحدث، بسبب شعوره بالارتياح، باقتناع واضح عن إمكانية التحسن، إلى حد أنه مضى، في رسالة كتبت قبيل حلول نهايته، إلى إخبار أخته بأنه " يسمن" ويشعر بأنه الآن أحسن بكثير، بفضل وجوده في بادنفلر.

كانت مدينة بادنفلر مقصدا لكونها منتجع مياه معدنية، تقع غربي الغابة السوداء، غير بعيدة عن بازل. كان يمكن رؤية جبال فوج من كل مكان في المدينة تقريبا، وكان الهواء في تلك الأيام نقيا ومنعشا. أخذ الروس يقصدونها منذ سنوات ليغطسوا في الحمامات المعدنية الحارة ويتمشوا في الشوارع. في يونيو 1904 ذهب تشيخف إلى هناك ليموت.

في وقت أبكر، من ذلك الشهر، كان قد قام برحلة شاقة بالقطار من موسكو إلى برلين. سافر مع زوجته، الممثلة أولغا اكْنِبَر، المرأة التي التقاها سنة 1898 أثناء التدريبات على [مسرحيته] النورس. وقد وصفها معاصروها بأنها ممثلة ممتازة. فقد كانت موهوبة وجميلة وأصغر بحوالي عشر سنوات من

الكاتب المسرحي. سرعان ما انجذب إليها تشيخف، ولكنه كان بطيئا في إطاعة مشاعره. وكما هي عادته، فضل المخاللة على الزواج. في النهاية، وبعد ثلاث سنوات من المعاشرة، التي تخللتها انفصالات عديدة، مراسلات، وحالات سوء تفاهم من غير الممكن تفاديها، تزوجا، في احتفال خاص في موسكو، بتاريخ 25 مايو 1901. كان تشيخف بالغ السعادة. كان يدعو أولغا بـ" يا فرسي" وأحيانا" كلبتي" أو" جروتي". كان مغرما كذلك بمخاطبتها بـ"الديك الرومي الصغير" أو مجرد" بهجتي".

في برلين استشار تشيخف اختصاصيا شهيرا في أمراض الرئة، هو الدكتور كارل إيفالد. لكن هذا الطبيب، بعد أن فحص تشيخف، رفع يديه وغادر الغرفة دون قول أية كلمة، وفق ما رواه شاهد عيان. كان تشيخف قد تعدى مرحلة الإنقاذ: صار الدكتور كارل إيفالد هذا مغتاظا من نفسه لعدم قدرته على إتيان المعجزات، ومغتاظا من تشيخف لكونه مريضا جدا.

زار صحفي روسي تشيخف وزوجته في فندقهما وبعث بمراسلة إلى رئيس التحرير:" أيام تشيخف أضحت معدودة. يبدو أنه مريض مرضا مهلكا. فهو ضامر بشكل مخيف، يكح طوال الوقت ويتنفس بجهد عقب أدنى حركة، وحرارته شديدة

الارتفاع.". نفس هذا الصحفي شاهد تشيخف وزوجته في محطة بوسدام عندما استقلا القطار إلى بادنفلر. وحسب روايته: " وجد تشيخف مشقة في صعود درجات سلم صغير في المحطة. كان عليه الجلوس لبضع دقائق لالتقاط أنفاسه.". في الواقـع كانـت الحركة مؤلمة لتشيخف: كانت ساقاه تؤلمانه باستمرار وباطنـه يوجعه. غزا المرض أحشاءه وحبله الشوكي. أمامه، بمقتـضى حالته هذه، أقل من شهر ليعيش. عندما كان تشيخف، في هـذه الفترة، يتحدث عن وضعه، فإنه كان يقوم بذلك، حسب أولغـا، " بدرجة كبيرة من اللامبالاة المتهورة".

كان الدكتور شووهرر واحدا من أطباء بادنفلر العديـدين ممن يتعيشون على الميسورين الوافدين علـى المنتجـع طلبـا للاستشفاء من أمراض مختلفة. بعض مرضاه كانوا، إلى جانب مرضهم، خائري العزائم، وبعـضهم كـانوا مجـرد مـسنين وموسوسين. ومثّل تشيخف حالة خاصة: كان يبدو بوضوح أنه تجاوز مرحلة الاستفادة من أية معالجة، وأنه في أيامه الأخيرة. كما أنه شهير جداً. حتى الدكتور شووهرر كان يعرف اسـمه: فقد قرأ بعض قصص تشيخف في مجلة ألمانية. حـين فحـص الكاتبَ في وقت سابق من يونيو أعرب عن تقديره لفنه، لكنـه احتفظ بآرائه الطبية لنفسه. وبدلا من ذلك وصف له حمية تتكون

من الكاكاو ودقيق الشوفان المترع بالزبدة، وشاي الفراولة. هذا الأخير قصد منه مساعدة تشيخف على النوم ليلا.

في 13 يونيو، وقبل موته بأقل من أسبوع، كتب تشيخف رسالة إلى أمه أخبرها فيها بأن صحته في تحسن. قال في هذه الرسالة: " من الأرجح أنني سأشفى تماما خلال أسبوع."، من يعلم لماذا قال هذا؟ فيما كان يفكر؟ لقد كان طبيبا هو نفسه، ومثل هذا الأمر لا يخفى عليه. إنه يموت، كان الأمر بهذه البساطة والحتمية. ومع ذلك، فقد جلس في شرفة غرفته بالفندق وقرأ جدول مواعيد القطارات. طلب مده بمعلومات عن القوارب المبحرة نحو أوديسا انطلاقا من مرسيليا. إلا أنه كان" يعي". في هذه المرحلة لابد وأنه قد وعى. ومع ذلك ففي آخر رسائله التي كان يرسلها دائما، أخبر أخته بأن صحته تتحسن يوميا.

لم يعد يجد في نفسه أية قابلية للكتابة الأدبية، وقد حدث له ذلك منذ وقت طويل. وفي الحقيقة أوشك أن يخفق تماما في إتمام" بستان الكرز" في السنة الماضية. كانت كتابة تلك المسرحية أشد الأعمال التي قام بها في حياته عناء. في نهايتها كان يمكنه كتابة فقط ستة أو سبعة أسطر في اليوم. كتب إلى أولغا: " صرت أفقد النية. أشعر بأنني قد انتهيت ككاتب،

وأضحت كل جملة تصفعني بتفاهتها وانعدام جدواها."، ولكنه لم يتوقف. أنهى مسرحيته في أكتوبر 1903. كانت آخر ما كتب، فيما عدا الرسائل وبعض الملاحظات في دفتر ملاحظاته.

بعيد منتصف ليلة 2 يوليو 1904 أرسلت أولغا شخصا في طلب الدكتور شووهرر. كانت الحالة ملحة: تشيخف يهذي. تصادف أن سائحين روسيين شابين كانا يقيمان في الغرفة المجاورة، فهرعت أولغا نحوهما وشرحت لهما ما يجري. كان أحد الشابين نائما في سريره، ولكن الآخر كان مستيقظا، يدخن ويقرأ، فسارع بمغادرة الفندق بحثا عن الدكتور شووهرر. " مازلت أسمع صوت الحصى تحت حذائه، في سكون تلك الليلة الخانقة من يوليو." كتبت أولغا في مذكراتها فيما بعد. كان تشيخف يهلوس، يتحدث عن البحارة، وكان ثمة عبارات ما عن اليابانيين. " لا ينبغي وضع الثلج على معدة خاوية." قال حينما حاولت وضع كمادة ثلج على صدره.

وصل الدكتور شووهرر وفتح حقيبته، دون أن يرفع نظره عن تشيخف الذي كان يستلقي على السرير لاهثا. كان بؤبؤا تشيخف قد اتسعا وعلى فوديه يلتمع العرق. لم يوح وجه الدكتور شووهرر بأي شيء. فلم يكن الرجل عاطفيا، وكان

يعرف أن نهاية تشيخف قد حانت. ولكنه كان طبيبا أدى القسم ببذل ما في وسعه، ومازال تشيخف يرتبط بالحياة، مهما كان الرابط واهيا. جهز الدكتور شووهرر دواء للحقن وأعطى تشيخف حقنة كافور، قصد تنشيط نبضات القلب. لكن الحقنة لم تجد- طبعا، ما من شيء كان سيجدي. وأيا كان الحال، أفضى الطبيب لأولغا بنيته في طلب الأوكسجين. عندها تحرك تشيخف متحاملا على نفسه، استعاد صفاء ذهنه، وقال بهدوء: " وما النفع؟ قبل وصوله سأكون جثة هامدة."

جذب الدكتور شووهرر شاربه الكبير وحدق في تشيخف. وجنتا الكاتب كانتا ضامرتين وشاحبتين، ملامحه شمعية، وكانت أنفاسه متحشرجة. أدرك الدكتور شووهرر أن الساعة قد تحل بعد دقائق. ودون أن يقول كلمة، أو يتشاور مع أولغا، اتجه إلى صندوق معلق على الجدار حيث يوجد هاتف. قرأ تعليمات استخدام الهاتف. إذا ما احتفظ بإصبعه ضاغطا على أحد الأزرار وأدار الذراع الذي على جانب الهاتف، فيمكنه الاتصال بالمنطقة السفلى من الفندق- المطبخ. تناول السماعة، قربها من أذنه، واتبع التعليمات. عندما، أخيرا، رد شخص ما، طلب الدكتور شووهرر زجاجة من أفضل أنواع الشامبانيا المتوفرة في الفندق. سئل: " كم كأسا؟" . " ثلاث كؤوس! وعَجِّل، هل سمعتني." ،

صاح الدكتور خلال ناقل الصوت. كانت تلك إحـــدى لحظـــات الأمل النادرة التي يمكن إهمالها فيما بعد بسهولة، لأن هذا الفعـــل كان في السياق تماما، بحيث بدا من غير الممكن تجاهله.

أُحضرت الشامبانيا إلى الغرفة من قبل شاب يبدو عليـــه التعب وشعره الأشقر يشرئب إلى أعلى. كان ســـروال الـــشغل الذي يرتديه مغضنا، بحيث اختفت منه ثنيات الكي، وفي تعجله غفل عن تزرير أحد أزرار سترته. كانت طلته طلة شخص كان يستريح (غارقا في كرسي، لنقل، غافيا بدرجة ما) حـــين رن الهاتف ساعة الفجر من بعيد- أيها الإله العلي العظيم!- وكـــان الشيء التالي الذي أدركه هو أن هزة من قبـــل أحـــد رؤســـائه أيقظته وأُمر بإيصال زجاجة مويت إلى الغرفة 211. " عجِّـــل، هل سمعتنـي؟"

دخل الشاب الغرفة حاملا إناء ثلج فضيا بداخله زجاجـــة الشامبانيا، وصينية فضية عليها ثلاث كؤوس من الكريـــستال. وجد مكانا فوق المنضدة لإناء الثلج والكؤوس وكان، أثناء ذلك، يمد عنقه محاولا استطلاع الغرفة الأخرى، حيث شـــخص مـــا يلهث في إجهاد وهو يتنفس. كان صوتا موجعا مفزعا، فـــدس الشاب رأسه في ياقته وتراجع أثناء ما كان التنفس المتحـــشرج

يزداد سوءا. حدق، متناسيا نفسه، عبر النافذة المفتوحة في المدينة المظلمة. بعد ذلك دس الرجل المهيب الضخم ذو الشارب الكثيف قطعا نقدية معدنية في يده- هبة معتبرة، مثلما يدل ملمسها- وفجأة شاهد الشاب الباب يفتح. سار بضع درجات، وحين وجد نفسه على المستراح فتح يده، ناظرا إلى القطع النقدية في ذهول.

بنفس الطريقة المنهجية التي كان الدكتور يتبعها في أفعاله كافة، شرع في نزع فلينة الزجاجة. قام بذلك بطريقة تقلل من الانفجار الاحتفالي إلى الحد الأدنى المستطاع. ملأ ثلاث كؤوس ثم أدخل، مثلما هي عادته، الفلينة في عنق الزجاجة. بعد ذلك أخذ كؤوس الشامبانيا إلى السرير. فتحت أولغا قبضتها تاركة يد تشيخف- تلك اليد، قالت فيما بعد، التي أحرقت أصابعها. وضعت وسادة أخرى وراء رأسه. بعد ذلك وضعت كأس الشامبانيا ببرودتها اللطيفة في كفه وتأكدت من أن أصابعه انغلقت على ساق الكأس. تبادلوا النظرات- تشيخف، أولغا، الدكتور شووهرر. لم يشربوا من كؤوسهم. لم يكن ثمة نخب. أي شيء في هذه الدنيا يمكن أن يشربوا من أجله؟ من أجل الموت؟ استجمع تشيخف ما بقي من قواه وقال: " مضى وقت طويل على آخر مرة تناولت فيها شامبانيا." ، قرب الكأس من

شفتيه وشرب. بعد دقيقة أو اثنتين تناولت أولغا الكأس من يده ووضعتها فوق الكومودينو. عندها استدار تشيخف إلى أحد جانبيه. أغمض عينيه متنهدا. بعدها بدقيقة، توقف تنفسه.

رفع الدكتور شووهرر يد تشيخف من على الشرشف. وضع أصابعه على الرسغ وأخرج ساعة ذهبية من جيب سترته رافعا عنها الغطاء. تحركت يده الممسكة بالساعة ببطء، ببطء شديد. جعلها تتحرك مع استدارة وجه الساعة ثلاث مرات، منتظرا حدوث ما يدل على وجود نبض. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ومازالت الغرفة حارة ورطبة، فلقد كانت بادنفلر واقعة تحت وطأة أسوأ موجة حر تمر بها منذ سنوات. جميع نوافذ الغرفتين كانت مشرعة، ولكن ما من أثر لنسيم. دخلت فراشة سوداء الأجنحة كبيرة عبر النافذة طائرة لتصطدم بالمصباح الكهربائي في عنف. ترك الدكتور شووهرر يد تشيخف. " انتهى الأمر." قال. أطبق غطاء ساعته وأعادها إلى جيبه.

جففت أولغا عينيها حالا وجلست مستجمعة نفسها. شكرت الطبيب على حضوره. سألها ما إذا كانت في حاجة إلى دواء- لودانوم، ربما، أو بضع قطرات من الفاليريان. هزت رأسها نفيا. لديها مطلب واحد: قبل إعلام السلطات، وقبل أن تعرف

الصحف، قبل أن يأتي الوقت الذي لا يعود فيه تشيخف في ذمتها، ترغب في أن تبقى معه وحدها لفترة. هل يمكن للطبيب المساعدة في هذا؟ هل يمكنه الاحتفاظ، لمدة قصيرة على أية حال، بخبر ما حدث للتو؟

مسد الدكتور شووهرر شاربه بظهر أصبعه. لم لا؟ فما الفرق، على أية حال، بالنسبة لأي شخص أن يعلم بالأمر الآن أو بعد بضع ساعات؟ الأمر الوحيد المتبقي هو ملأ شهادة الوفاة، وهذا يمكن إجراؤه في مكتبه فيما بعد صباحا، بعد أن يكون قد نام بضع ساعات. هز الدكتور شووهرر رأسه موافقا وتهيأ للمغادرة. غمغم ببضع كلمات مواساة. أمالت أولغا رأسها. " كلمة شرف." ، قال الدكتور شووهرر. تناول حقيبته وغادر الغرفة و، فيما يتعلق بهذا الشأن، التاريخ أيضا.

كانت تلك هي اللحظة التي طارت فيها فلينة زجاجة الشامبانيا، واندلقت الرغوة على المنضدة. عادت أولغا إلى سرير تشيخف. جلست على مسند القدمين ممسكة يده، ممسدة بين الحين والآخر وجهه. كتبت فيما بعد: " ما من صوت بشري، ولا وجود لأصوات الحياة اليومية المعتادة. يوجد فقط الجمال، الطمأنينة، وعظمة الموت."

ظلت مع تشيخف حتى انبلاج الصباح، حين أخذت طيـور السمنة تغرد تحت في الحديقة. ثـم تنـاهى صـوت المناضـد والكراسي وهي تُحرك هناك. وسرعان ما تناهى إليها الصخب. عندها سُمع صوت طرقة على الباب. كان من الطبيعي أن تعتقد أنه شخص من طرف الحكومة- طبيب شرعي، لنقل، أو شخص من قبل الشرطة جاء ليلقي أسئلة ويطلب منها أن تملأ بيانـات، أو ربما، وفقط ربما، يكون الدكتور شووهرر قد عـاد صـحبة المُجَنِّز ليساعد في تحنيط تشيخف ونقل جثمانه إلى روسيا.

ولكنه كان، بدلا من ذلك، نفس الشاب الأشقر الذي أحضر الشامبانيا منذ بضع ساعات. وعلى أية حال كان سـرواله قـد سوي بأناقة، هذه المرة، وتمت تقوية ثَنيتيه الأماميتين، وكانـت كل أزرار سترته الخضراء الضيقة مزررة. بدا شخـصا آخـر تماما. لم يكن فقط صاحيا تماما بل وكان خداه المنتفخان حليقين بنقاء، كان شعره مْسَوًى، وبدا تواقا لتقديم الخدمات. كان يمسك بمزهرية خزفية بها ثلاث وردات صفر طويلة الغـصن. قـدم المزهرية لأولغا مع دقة رشيقة بعقبيه. تأخرت مفسحة له مجالا للدخول إلى الغرفة. لقد جاء، قال، ليأخذ الكؤوس وآنية الـثلج والصينية، أجل. ولكنه أراد أن يقول أيضا بأن الإفطار سيكون، بسبب الحر البالغ، في الحديقة هذا الصباح. أَمِل في ألا يكـون

هذا الطقس شديد الإزعاج، واعتذرعن ذلك.

بدت المرأة ذاهلة. فأثناء ما كان هو يتكلم حولت عينيهـــا بعيدا ناظرة نحو الأسفل، إلى شيء ما على البساط. عقدت يديها ممسكة بمرفقيها. في أثناء ذلك تفحص الـــشاب، وهـــو يمـــسك بالمزهرية منتظرا إشارة ما، تفاصيل الغرفة. تدفق نور الشمس الوضيء خلال النوافذ المفتوحة. كانت الغرفة نظيفة وخالية من أي اضطراب، كما لو أنها لم تكن مسكونة. مـــا مـــن ملابـــس محذوفة على الكراسي، ما من أحذية أو جوارب، أو حمـــالات سراويل، أو مُخَصِّرات بادية للعيان، وما من حقائـــب ملابـــس مفتوحة. وباختصار، لا وجود للفوضى، لا شـــيء عـــدا قطـــع الأثاث الثقيلة المعتادة في غرف الفنادق. ثم نظر، لكون المـــرأة مازالت تنظر إلى تحت، هو الآخر إلى أسفل، فلمح حالا فلينـــة الزجاجة قرب مقدمة حذائه. المرأة لم ترها- كانت تنظر إلـــى مكان آخر. رغب الشاب في أن ينحني ويلتقط الفلينـــة، لكنـــه مازال ممسكا بالزهرات وكان يخشى من أن يبدو متطفلا مـــن خلال جذب الانتباه إلى نفسه. ترك، في تردد، الفلينة حيث كانت ورفع عينيه. كان كل شيء في مكانه، ما عدا زجاجة الشامبانيا نصف الفارغة الواقفة منزوعة الفلينة بجانب كأسين كرستاليين فوق منضدة صغيرة. طاف بنظره في ما حوله مـــرة أخـــرى،

فلاحظ، عبر الباب المفتوح، أن الكأس الثالثة كانت في غرفة النوم، فوق الكومو دينو، وأن شخصا ما مايزال يشغل السرير! لم يكن بإمكانه أن يرى الوجه، ولكن الجسم الذي تحت الأغطية كان يتمدد ثابتا تماما وساكنا. تمعن في الجسم ثم نظر نحو مكان آخر. عندها احتواه، لسبب لا يعرفه، إحساس بعدم الراحة. سرح حلقه ناقلا ثقل جسده إلى ساقه الأخرى. حتى الآن لم ترفع المرأة نظرها أو تكسر الصمت. شعر الشاب بسخونة تسري في وجنتيه. خطر له، دون أن يفكر في ذلك مليا، أنه ربما يتوجب عليه اقتراح بديل للإفطار في الحديقة. كح، آملا في جلب اهتمام المرأة، إلا أنها لم تنظر إليه. الضيفان الأجنبيان المشهوران يمكنهما، قال، تناول إفطارهما في جناحهما هذا الصباح، إذا ما رغبا في ذلك. قال الشاب (لم ينج اسمه [من النسيان]، والأرجح أنه قد قضى هو نفسه في الحرب العظمى) بأنه من دواعي سروره إحضار صينية إفطار. صينيتين، أضاف، ناظرا مرة أخرى بارتياب في اتجاه غرفة النوم.

أخلد إلى الصمت ومر بأصبعه على داخل ياقة سترته. لم يفهم. إنه حتى لم يكن متأكدا من أن المرأة كانت تستمع. لم يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله الآن، وكان مايزال ممسكا بالمزهرية. ملأ عبق الوردات العذب أنفه مسببا له، ولسبب

غامض، وخزة ندم. كانت المرأة تبدو، طيلة الوقت الذي كان فيه ينتظر، شاردة في أفكارها. بدا الأمر كما لو أنه طوال الوقت الذي كان هو يقف فيه هناك، متحدثا، ناقلا ثقل جسده من ساق إلى أخرى، ممسكا بورداته، كانت هي في مكان آخر، في موضع ما خارج بادنفلر. ولكنها ثابت إلى نفسها الآن، واكتسى وجهها تعبيرا آخر. رفعت عينيها، نظرت إليه، ثم هزت رأسها نفيا. بدت كما لو أنها كانت تجهد نفسها من أجل أن تفهم ما يمكن أن يكون سبب وجود هذا الشاب هنا في هذه الغرفة ممسكا بمزهرية ذات ثلاث وردات صفر.

مرت اللحظة. اتجهت إلى حقيبة يدها وغرفت بعض القطع النقدية المعدنية. أخرجت بعض النقود الورقية أيضا. مسح الشاب شفتيه بلسانه، هبة كبيرة أخرى في طريقها إليه، ولكن في مقابل ماذا؟ ما الذي تريد منه أن يفعله؟ لم يسبق له أن قام بخدمة مثل هؤلاء الضيوف. سرح حلقه مرة أخرى.

لن نتناول الإفطار، قالت المرأة. ليس الآن، على أية حال. الإفطار ليس هو الشيء المهم هذا الصباح. إنها تطلب شيئا آخر. تحتاج إليه في الذهاب لإحضار مجنز. هل فهمها؟ السيد تشيخف مات، هل تفهم؟ Comprenez vous? أيها

الشاب؟ آنطون تشيخف مات. استمع إليَّ جيـدا الآن، قالــت. أرادت منه أن ينزل السلم ويسأل شخصا على مكتب المدخل إلى أين يذهب ليحضر أكثر المجنزين تقديرا في المدينــة. واحــدا يعتمد عليه، ينكب على عمله وتكون طريقته في العمــل دقيقــة ومراعية للأصول. وباختصار، مجنزا جديرا بصفة فنان عظيم. خذ، قالت، ودست النقود في يده. قل لهم تحت بأنني قد اخترتك أنت خصيصا لتؤدي لي هذه الخدمة. هل تسمع؟ هل تفهــم مــا أقوله لك؟

اجتهد الشاب في استيعاب ما كانت تقوله. آثر عدم النظر مجددا باتجاه الغرفة الأخرى. أحس بأن شيئا ما لم يكن على ما يرام. انتبه إلى أن قلبه صار يخفق بسرعة تحت سترته وبانبثاق العرق على جبهته. لم يعرف إلى أين يوجه عينيه. رغب فــي وضع المزهرية.

أرجوك قم بهذا من أجلي، قالت المرأة. سأذكر لك ذلــك بامتنان. قل لهم تحت بأنني مصرة. قل ذلك. ولكــن لا تلفــت النظر إليك أو إلى الوضع. قل فقط بأن هذا ضروري، وأننــي أطلبه- وهذا كل شيء. هل تسمعني؟ هز رأسك إذا كنــت قــد فهمت. قبل كل شيء، لا تثر حالة من الخوف. كل شيء آخر،

ما سوى ذلك، التزاحم- سيأتي في وقته. انقضى أسوأ ما في الأمر. هل تفاهمنا؟

شحب وجه الشاب. وقف متصلبا، متشبثا بالمزهرية. استطاع أن يشير برأسه.

بعد حصوله على إذن بمغادرة الفندق عليه التوجه سرا وفي تصميم، ولكن دون تسرع زائد، نحو المجنز. ينبغي أن يتصرف كما لو أنه موكول بمهمة شديدة الأهمية، ليس إلا. إنه موكول بمهمة شديدة الأهمية، قالت. وإذا ما أراد لكافة تحركاته أن تكون هادفة، فعليه أن يتخيل نفسه شخصا يتحرك على رصيف مزدحم حاملا على ذراعيه مزهرية خزفية، بها ورود، عليه تسليمها لرجل مهم. (كانت تتحدث بهدوء، وكأنها تفضي بسر لقريب أو صديق.). يمكنه حتى أن يوهم نفسه بأن الرجل الذي هو ذاهب لرؤيته هو الآن في انتظار وصوله بالزهور، ربما بنفاد صبر. لا شك في أن الشاب لن يستثار ويركض، وإلا فإن خطواته ستضطرب. تذكر المزهرية التي يحملها! عليه السير برشاقة، مسيطرا على نفسه دائما على نحو يحفظ أعلى قدر ممكن من الكرامة. عليه مداومة المسير إلى أن يصل إلى بيت المجنز ويقف أمام الباب. عليه حينها أن يرفع المطرقة

النحاسية ويتركها لتسقط، مرة، مرتين، ثلاث مرات. في غضون دقيقة سيجيب المجنز شخصيا.

سيكون هذا المجنز في أربعينياته، بدون شك، أو في بداية خمسينياته- أصلع، قوي البنية، يضع نظارات ذات إطار حديدي تستقر على مقدمة أنفه. سيكون لطيفا ومتواضعا، رجلا يسأل فقط الأسئلة الأكثر ضرورة وصميمية. عليه مئزر. لعله سيكون مرتديا مئزرا. لعله سيكون يمسح يديه بمنشف أسود وهو يستمع إلى ما يقال له. تنبعث من ثيابه رائحة فورمالديهايد خفيفة. لكن لا بأس في ذلك، ولا ينبغي للشاب أن يتضايق. إنه في سن النضج تقريبا وعليه ألا يخشى شيئا كهذا أو يهرب منه. سيصغي إليه المجنز. فهو رجل متعقل وصبور، هذا المجنز، شخص يستطيع تهدئة مخاوف الناس في مثل هذه الأوضاع، لا أن يفاقمها. فمنذ وقت طويل وهو يعاين الموت في مختلف أقنعته وأشكاله، بحيث لم يعد الموت يشكل له مفاجأة، ولا يمثل له أسرارا خفية. هذا هو الرجل الذي تُطلب خدماته هذا الصباح.

يتناول المجنز مزهرية الورود. ومرة واحدة فقط تند عنه، أثناء ما كان الشاب يتحدث، نأمة اهتمام لا تكاد تلحظ، أو تدل على أنه سمع عن شيء غير اعتيادي. ولكن حين يأتي الشاب

على ذكر المتوفى يرتفع حاجبا المجنز ارتفاعا طفيفا. هل قلت تشيخف؟ دقيقة فقط، وسأكون معك.

هل تفهم ما أقول؟ قالت أولغا للشاب. دع هذه الكؤوس. لا تنشغل بشأنها. انس ما يتعلق بكؤوس النبيذ الكريستالية وما إليها. دع الغرفة على ما هي عليه. كل شيء جاهز الآن. إننا جاهزون. هل ستذهب؟

إلا أن الشاب كان يفكر لحظتها في الفلينة التي مازالت مستقرة قرب مقدمة حذائه. ليقوم باستعادتها، عليه الانحناء وهو ممسك بالمزهرية. سيقوم بذلك. انحنى. ودون أن ينظر إلى تحت، مد جذعه وأطبق عليها في يده.

* * * *

حلم بالموز في بوخارست

سيدرك بوبا (*)

ثمة ثلاث مراحل في عالم ما بعد حياة ثمرة الموز.

لعل ثمار الموز، وهي تنمو متدلية معا في الشمس الدافئة، تنسج أساطير البعث، مثلما تنسج العناكب الاستوائية الضخمة شباكها في العراجين الثقيلة. ربما كان هناك، من بين الموز، دانتي ينسج قصصه الدائرة حول لغز الخلود. وإنني لأتساءل ما إذا كان أكلها هو جنتها النهائية أو جحيمها، تَحقق الحب الخالد في اتصالها بإلهها، أم عذاب من خلال تحلل بطيء بواسطة الحمض.

الطريقة الواضحة لتمييز هذه المراحل عن بعضها تتمثل في ملاحظة الألوان التي تعرضها: الأخضر، الأصفر، البني. لبكاسو مرحلة زرقاء، لفان غوخ مرحلة بنية مخضرة ثم صفراء، للموز مراحل: خضراء، صفراء، وبنية. هذا، في واقع الأمر، يثير لديَّ مشكلة. لأنني عندما كنت صبيا، حلمت، أول

(*) Cedric Popa أديب روماني يقيم في بريطانيا.

الأمر، بموز رمادي.

حلمت بموز رمادي لأنني، بالطبع، لم أكن قد رأيت أية ثمرة موز حقيقية. فنادرا ما يحدث لنا ذلك، في رومانيا. فالموز يمر بمتاجرنا و، أحيانا، أسواقنا المفتوحة، في أيام عيد الميلاد، مرورا خاطفا. مع ذلك لدينا جهاز تلفزيون ملون، مهيب، ولكنه نسخة بائسة مصنعة محليا بترخيص من أحد مصانع أجهزة التلفزيون اليابانية ، كانت الصورة فيه تتزلق، وهذا كلام مجازي، فجأة، يسارا أو يمينا على صفيحة الألوان، فترى وجوها خضراء وشعرا مزرقا يتوج رؤوس أناس مرتدين ملابس بنية في الشارع. (كان البني دائما في كل مكان. البني لا يتحول إلى أي شيء آخر، ولكن كل شيء آخر كان مهددا بالتحول إلى البني، باستثناء، ربما، الرمادي). قبيل تعطل هذا الجهاز، كانت حبيباته اللونية الـ: حمراء – خضراء ـ زرقاء، التي تمكن رؤيتها عن قرب، تبرق بلون بني- أصفر- أخضر خافت، فأنمناه بإعادته إلى اللونين الأبيض والأسود. وهكذا دخل الموز إلى مخيلتي، أول ما دخل، رماديا.

ثم أصبحت لدينا، بعدما صرت شابا، أساطيرنا الخاصة

حول الموز. تخيلناه محملا في مؤخر مزلجة سانتا كلوز [1] (على الرغم من أنه كان علينا أن نسميه الشيخ الأشيب، لأن سانتا كانت لفظة دينية صرفة)، وما زلت أتذكر صورة ين - يانغ [2] ذات الأيائل الطائرة عبر الأراضي الجليدية تحت شمس استوائية حارقة، ورجلا أبيض يغني وهو يعين سانتا على تحميل المزلجة.

يأتي الموز إلى بلادنا عن طريق السفن، طبعا. تلك هي مرحلة السفر الخضراء من حياة الموز بعد الموت، حيث تسمع ثمار الموز، رغم طمرها عميقا في السفينة، صخب الموج وتحس بأرجل العناكب تدب على جلدها. لعله يأخذ في الميل نحو الاصفرار عندما يوضع على الشاطيء، ويبدأ في النضج بسبب اكتسابه معرفة جديدة بأرض جديدة. سرعان ما يُشرع في اختطافه من أيدي عمال المتجر الساخطين على الصف الذي لا نهاية له من الناس المقرورين الراغبين في الحصول على

---

(1) Santa Claus شخصية متخيلة يعتقد بأنه يجلب الهدايا للأطفال عشية عيد الميلاد.

(2) Yin (في الفلسفة الصينية) المبدأ السلبي في الكون ممثلا في الأرض والأنثى والظلام والتشرب. ويكمله الـ Yang الذي هو العنصر الفعال في الكون ممثلا بالسماء والذكر والنور والاختراق.

الرطلين المخصصين لكل منهم من الفاكهة الغريبة. لا أعتقد أنه يوجد وقت كاف لهذا الموز لأن يصير بنيا.

قرأت، بعد ذلك، خبرا في الصحيفة عن صبي لدغ من قبل عنكبوت كان مختفيا في عرجون موز، وأنه الآن في حجرة العناية المركزة. لا أعلم كيف وجد ذلك الخبر طريقه إلى النشر في الصحيفة، فالأخبار السارة فقط هي ما يسمح، عادة، بطبعه أو إذاعته في التلفزيون. لعل الجريدة كانت تلقي باللوم في هذه الحادثة على جهة أجنبية ما، على شركة استيراد ما. لا أتذكر. ولا أعلم ماذا حل بالصبي.

ولكنني أفكر في ذلك الصبي الذي عاد والده بهدايا مجزية، موز، برتقال، وربما شيكولاتة أيضا. أحاول التفكير في درجة السعادة التي دفع فيها يديه في عرجون الموز، كيف صرخ، ثم بكى وهو يخرجهما ويراقب الطفح الجلدي الأحمر وهو ينتشر بسرعة. أحاول أن أتصور سيارة الإسعاف التي وصلت هناك بسرعة، بالرغم من حدوث خلل ما في المحرك غير المعتنى بصيانته، وعلى الرغم من عدم وجود رمل أو ملح على الطريق الثلجي، وهي إحدى الحالات النادرة التي لا يتحول فيها شيء ما أبيض إلى بني.

فيما بعد، دهرا فيما بعد، حدث تفجر لوني حين تغير كل شيء في البلاد: الوردي للحلي الرخيصة، المجلوبة من تركيا من قبل مسافرين لا يكلون، الأزرق لون دم الأرستقراطيين العائدين إلى أرضهم، الأحمر، الذي كان شعارا ممنوعا، لشراب يسم حضارة بكاملها. على الأرجح كان هناك الأصفر لبارقة تفاؤل، مضفورا بخيوط من الأخضر، الآمال بالنمو. وهذا التفجر، مثله في ذلك مثل قوس قزح، لم يدم طويلا.

أحب أن أفكر في ذلك الصبي، أصبح شابا الآن، وهو يجتاز أخيرا حدود بلاده، التي كثرت منافذها الآن. لعله يسافر بحثا عن أحلام الطفولة، أراضي اللابون [1] أو مستوطنات استوائية. ربما ليزور فقط بلدا يكون فيه الموز متوفرا يوميا طوال السنة، حيث تنطرح أصابع الموز كبيرة وخضراء، على أرفف الأسواق الكبيرة. لعله سيسخط على الناس الذين ينكرون على أصابع الموز حقها في حياة مكتملة بعد الموت أولئك الذين، لعدم درايتهم بخيار أفضل، يأكلونها قبل أن تكون مستعدة لتناول العشاء الرباني مع إلهها، قبل أن تكبر وتهرم.

لعله سيكون سعيدا بوفرة الألوان في الأسواق الكبيرة،

---

(1) Lapon lands لم نعثر على تعريف بها.

أو يستغرب من أنه في مكان حيث الألوان مسموح بها ومتاحة تبدأ منازل كثيرة حياتها وتنهيها بالبني. أحب أن أتخيله يـــسافر ويندهش. آمل أن ذلك الصبي كان محظوظا بما يكفي لأن يعيش حياته بعد الموت، يعكس صورة ثمرة الموز، تاركا البني وراءه وملامسا الأخضر والأصفر في أحلامه.

* * * *

إظـــلام

بثْ هاهن (*)

سأحاول أن أصف لكم الحالة. بماذا أشعر، وكيف صرت: أرى هذا البراح، هذه الأرض المتخيلة، بمثابة معـادل عيـاني لمتاهتي العقلية. إنه مأزق عميق أخضر. لقد ابتكرت شيئا صلدا من هشير [1] ظلال السيكولوجيا. ولكن لدي برهان دامغ، دليـل إذا شئتم، على الطريقة التي ابتدأ بها كل هـذا. كانـت هنـاك المكالمات الهاتفية، ومؤخرا، الصورة. و هذا كله يمثل علامات لبداية ونهاية انحداري نحو العزلة.

في البداية اعتقدت أن المكالمات لم تكن تخصني، وأنهـا نتيجة خطأ. وعندما ازداد تكررها بدأت بالاشتباه في كونها شيئا مختلفا. كان كل شيء مختلفا، قبل أن أعثر على الصورة.

لطالما آمنت أن التاريخ يسير في مسار خطي، أن الحياة

(*) Beth Hahn أديبة أمريكية.

(1) النباتات والشجيرات النامية تحت وبين أشجار الغابة.

تحدث وفق خط زمني، من نوع ما، لا يمكن التلاعب به. لكنني أشك بذلك الآن. فالأشياء أكثر عنادا، وأكثر حساسية للمناخ. أمكث في حجرتي وقتا طويلا.

لا ينبغي أن يكون الأمر بهذا التعقيد، تقول رفيقاتي بالحجرة، عندما يطلبن مني الخروج: رجاء، لورين، رجاء اخرجي. نريد التحدث إليك. إننا قلقات. حاولن مجتمعات إقناعي وهن يقفن متلاصقات في المدخل الضيق، ثم فرادى، كل واحدة منهن على حدة، طارقات بابي بلطف ومناديات عليَّ باسمي. أنا متفاجئة بما يبدَوْن عليه من أمومة. ولكن لم يعد لهذا من معنى، منذ أن توقفن عن الطلب. كان ذلك منذ زمن بعيد.

كن يحشرن بريدي المحزوم بأربطة مطاطية تحت الباب. كن أحيانا يرفقن به قصاصات سائلات فيها عما إذا كنت في حاجة إلى شيء ما. هل أقلعن عن متابعة الأمر فعلا، يا ترى، أم أنهن يخططن لشيء ما، هذا أمر لا أعلمه. ربما يردنني أن أخرج من البيت. أحيانا يكون باستطاعتي سماعهن يهمسن في الخارج. أتساءل فيما يفكرن. لا بد أنهن وجدن لي أعذارا، معتقدات أن انعزالي الغريب أمر شخصي شديد الخصوصية.

كان المبيت مكونا من أربعة طوابق وكان السرداب شبيهها

بمدفن عميق. كان السلم ينحني مثل حــرف (s) مائــل إلــى الخلف، موزعا بقعا من الظل والضوء فيما بين الحواجز. عالم هذا المبيت أكثر ظلمة في أعلاه منه في أسفله. أنــا أقــيم فــي الطابق الأعلى من الجزء الشمالي، وهو مــا اضــطرني إلــى تشغيل الإنارة الكهربائية، بغض النظر عن في أية ساعة أنا من اليوم.

أخذت ممرات متاهتي تنفتح بهدوء، تزحف وتتلوى عبر عقلي بطريقة أخفقت معها في أن ألاحظ كثافة شــكلها الظلــي، النسيج الغريب لكتلها. مازلت أعتقد أنه باســتطاعتي مغــادرة المبيت. كنت دائما أتوقف أمام الباب، خشية أنني لــو غــادرت المبيت، فسأفقد الصورة، سأنسى مكانها. ما الذي سأفعله حينها؟ لا يمكن للمرء العودة مفتشا المدينة شبرا شــبرا صــائحا فــي الناس:" هلاّ رأيتم صورتي؟".

لقد حدث لي أنا نفسي أن عثرت على صور أناس تنطرح مهملة على الأرصفة. كانت تحمل مشاعر البؤس والفقــد. لقــد جعلتني أشعر بأن مالكيها، كائنا من كانوا، لم يهتموا الاهتمــام الضروري بوضع صورهم في مكان آمن.

وجدت الصورة الخريف الماضي في كتاب شعري أخذته

من المكتبة. كانت ملتقطة بمصورة بولارويد وكانت بالأسود والأبيض وتسوّد مع الوقت. المناطق السوداء تزحف على البياض، فتصير الصورة كل يوم أكثر قتامة. لم يكن ذلك نتيجة أي شيء فعلته بوجه الصورة، على الرغم من أنني، بكل تأكيد، أسأت العناية بها منذ أن عثرت عليها أول مرة. كنت أضغط على الوجه بإبهامي كما لو لأزيله، أو أضغطه على تجزع خشب المنضدة لتكوين شكل داخل آخر. أردت محوه. أثار عثوري على هذه الصورة الضائعة مرة أخرى، بعد ذلك بسنوات عديدة، غضبي. لكنني لم أعد أفعل ذلك بالمرة ما دام التعبير قد صار عصيا على القراءة. وبما أن الوجه لم يكن يواجه العدسة بالكامل، فقد صار من المهم ألا أتعدى عليه.

للصورة حياتها الخاصة. أعتقد أنه من المفترض أن تحل المسألة على هذا النحو. أعتقد أن لها هدفا، حدا للمدى الذي تحتمل فيه نفسها، إنها ساعة رملية، بمعنى ما. ما الذي يحدث عندما تصير المساحة سوداء كلها؟

لديها ما تقوله لي، ولكنني لا أعرف حتى الآن ما هو. احتفظت بالكتاب الذي أخذته من المكتبة لأنني اعتقدت أنه

مفتاح. كان الكتاب من تأليف جون كلير [1]، ومنه سقطت الصورة. لذا لم أعد أعرف القصيدة التي عُلمت بها الصورة. أنا أرى أنه يمكن تعليم أية قصيدة بهذه الصورة. تصفحت الكتاب عشوائيا. قال جيمس ذات مرة:" أعرف هذا الرجل.". ولكنه كان، بالطبع، يعني ذلك بالمعنى المجرد. كلير

كان قد مات منذ عصور.

الصورة لجيمس [2].

في الثامنة من عمرنا، كان جيمس يضع عينه علي. صرح وهو يأتي بحركة من يده:" لقد أوقعت بك في شبكتي المعدنية.". لم يضحك. ظللت خائفة من هذه الشبكة. حين تحدث إليّ عن شَرَكه أجبت:" ولكنها شبكة هائلة." وفررت.

كان جيمس يقف، في الصورة، أمام بناية. كان يبدو متصلبا إلى حد ما، وهو يقف للتصوير. أنا واثقة من أنني لا أعرف المكان. كان بالإمكان، حين عثرت على الصورة، رؤية ما كان يحيط به، ولكن منذ ذلك الوقت صار كل شيء غير قابل للتمييز من خلال الغبش الداكن الزاحف. خمنت أن البناية قد

---

(1) John Clare (1793 _ 1864) من شعراء الطبيعة الإنجليز.

(2) هذان السطران هما في الأصل سطران شعريان مقفيان.

تكون من الطراز الفيكتوري، لأن خطوطها كانت فظة وشاحبة ومكونة من الرخام أو من حجر خفيف آخر. التفاصيل الزخرفية ذات الأشكال النباتية ـ على هيئة أقواس ذات حواف بيضاء وسوداء ـ الممتدة بعرض واجهة البناية منغرزة بها، كانت واضحة وتبرز غير محددة البدايات والنهايات. بين الأحجار كان ثمة آجر.

" إِ. أنتِ التي هناك في الأسفل. تعالَي إلى هنا في الأعلى.". كان مستلقيا على بطنه ينظر إليَّ من مقصورة فوق شجرة. وجهه أحمر. دلى لي سلما حبليا.

" أنتِ، هَوْ. هَوْ، أنت.". صاح في صوت منغم.

" اصعدي."

كنت أذرع الساحات الخلفية بالضاحية. الفصل شتاء. الليل ينسدل وقد تأخرت لغرض ما، نسيت ما هو. ثمة ثلج على الأرض والضوء الأزرق المنبعث من أجهزة التلفزيون يتحرك، عبر الساحة، كالأمواج. كان حذائي يصدر في الثلج صوتا أجوف. أنظر إلى أعلى قائلة بسرعة:" آسفة. لا أستطيع.". يتأرجح السلم أمامي، ملامسا جسدي أحيانا، مذكرا إياي بالشبكة المعدنية.

" لمحتك قادمة." يقول." على بعد عشر يـــاردات، لابـــد. ليس ياردات، بل ياردات، كما في- ماذا؟". يدعك حاجبه الأحمر ثم يضربه، مثل شخصية من شخصيات الرسوم المتحركة." ليس ياردة المسافة!." يبدو منفعلا." وإنما ياردة الساحة." [1]

" جيمس.". تنادي امرأة في صوت متردد." تعال حالا.". جمدنا ناظرا أحدنا إلى الآخر.

" ها أنا قادم."، يجيب مواصلا النظر إليَّ." إنكِ مستعجلة، يا لورين مور."، ثم يضيف هامسا:" مورين لور."

بعد ذلك بلحظة يصيح جيمس في أدب:" أمي، هل يمكنني أن أدعو شخصا على العشاء؟"، يمسك بالسلم الحبلـــي. يـــديره بحيث يتحرك حولي." هل تأتين إلى العشاء؟"، يقول وأنا أخطو مبتعدة عن طائلته.

" آسفة."، أعيد ثانية." لا أستطيع."

" حسنا. إلى اللقاء إذن."، رابض على حافة المقـــصورة

---

(1) تعني كلمة ياردة yard مقياس طول يساوي حوالي المتر، وتعني أيضا ساحة أو فناء. وواضح في سياق القصة ميل الشخصية إلى التلاعب بالكلمات والأصوات.

المنصوبة في الشجرة كالغارغويل [1]، متخذ وضعية المتهيء للنزول بواسطة السلم المتأرجح. يتكلم دون أن ينظر نحوي.

" إلى اللقاء."، أجيب بمضض، وبعد دقيقة من النظر إليه، أنصرف راكضة.

" أكيد، أكيد."، يصرخ." هِي، مورين لور، إنها شبكة كبيرة."

بعد ذلك بخمس سنوات، وأنا أجلس في سردابي أشاهد التلفزيون، يظهر وجه شبح في النافذة. أعلم أنه جيمس. أراقبه بعين واحدة من تحت البطانية. شبكة معدنية، يقول متشدقا، ثم يتلاشى بمجرد أن أقف في مواجهته. في المطر، في الثلج، صيفا، شتاء، يكون جيمس عند نافذتي، ينتظر في الخارج بشبكته المعدنية.

في الصورة، تقع الشمس على وجه جيمس بزاوية. أرى فقط كتفا واحدة، وجنته، وكيف يلتوي فمه عند إحدى زاويتيه بنصف ابتسامة. يده مرفوعة نحو آلة التصوير - ليس للحجب - ولكن للاستدعاء أو للتحية، لا أتبين أيهما. لا أستطيع تصور من

(1)gargoyle : (أ) ميزاب ناتيء من جانب السطح على صورة إنسان أو حيوان. (ب) تمثال أو شخص بشع الوجه. (المورد).

التقط الصورة. فجيمس يبدو شخصا شديد التوحد إلى درجة لا يقبل معها الوقوف للتصور.

إحدى عينيه ما زالت ظاهرة من خلال ضوء الشمس المتخافت. يبدو أنه يضيق عينيه أو أنه انتهى للتو من الضحك على شيء ما. أحدق في العين. ماذا يقول؟ " لورين، أنا هنا."، أو" إلى أين ذهبت؟"، لم أره منذ دهور.

هذه بطاقة بريدية وصلت السنة الماضية. أعرف الآن أنها من جيمس، رغم أنني لم أدرك ذلك حينها. هل ستصحبينني في انعدام الهوية الحالك هذا؟ تقول البطاقة. الكلمات مطبوعة. على وجه البطاقة كان ثمة رسم بخط جيمس لشخصيات من الرسوم المتحركة في الغابة.

هو، جيمس، الذي على الهاتف.

كيف وجدني؟

أرغب في تفريج شخص ما على الصورة، ولكن من؟ أستطيع أن أريها للآخرين بدون الإشارة إلى ما فكرت فيه، وما صرت إليه. أستطيع، للمرة الأخيرة، انتقاد نفسي، موثقة نفسي إلى كلماتهم، إلى جوهم. ومن أعماق متاهتي، الشبيهة بشجرة

العنب، سأسأل: " ماذا ترون فيها؟"، ينبغي أن يبدو ذلك طبيعيا. ينبغي أن يبدو مثل أي سؤال آخر يسأله الناس في أية ساعة من ساعات النهار والليل. ماذا ترى؟ انظر إليَّ. ماذا ترى؟ رغم ذلك أنا متخوفة. أخشى أن يقول أحدهم:" لا أرى شيئا."، ثم يمضي ويتركني لأسقط في الظلمة. أخشى أيضا من أن أنهض ذات صباح لأجد الصورة وقد اسودت، تلاشت، ولن يكون بإمكاني استعادتها.

أنا أرى جيمس، لذا بالكاد يعنيني الذي قد يراه الآخرون إذا ما نظروا. وهكذا أبقى معها، طارحة، طوال الوقت، على نفسي أسئلة.

لعله من المفيد أن تكون وحيدا، أن تصغي لما قد غبر. لا ينبغي لي مقارعة ذلك.

حسنا. لقد كففت عن المقارعة. أنا الآن أعيش فقط. لقد قلَّمت نفسي. أنتظر معرفة الذي يريده. حينها، قد ينتهي كل شيء.

الصورة رمادية وكابية الآن، عين واحدة فقط يمكن تبينها، لكنها تبدو لامعة، كما لو أن ورقة الصورة قد طليت بمحلول حافظ. أستلقي فوق سريري وأقرب الصورة من

مصباح القراءة. أمسكها بانحراف لأعاين السطح، فأجد أنه لم يتلف.

اسودت الصورة، فيماعدا العين. أدرك الآن أن شيئا ما سيحدث، شيئا ما لا بد وأن يحدث. أنتظر أن يقوم هو بخطوته التالية. أحتفظ بسكين المطبخ تحت فراشي، لغرض الحماية، على الرغم من أنني لا أنوي استخدامها. أنا خائرة القوى. بالكاد أقدر على النهوض. ثمة ثلج على نوافذي، والهاتف، الموجود بالطابق السفلي، يبدأ بالرنين، ما إن تغادر رفيقاتي المبيت. يرن طوال النهار وفي الليل. خطر لي أن ذلك قد يكون ذا عون لي. إذا ما رددت على الهاتف فقد أجد شخصا يكون بمقدوره إنقاذي من جيمس. لأنه إذا لم أقم بمواجهته الآن فسيواصل مطاردتي كي يعيدني إلى المتاهة.

أستلقي هنا تحت بطاطيني. لا أتذكر آخر مرة استحممت فيها. لا جسد لي، بل زئبر، هواء. الآن وقد جردت من أديم الحياة النشطة، صرت أدرك إلى أي حد أنا بلا جسد. هنا أنا حجر. أنا مجبولة من عناصر وأخلاط. أنا نسخة إنسانية محنطة. أيام وأسابيع وأشهر تجرف بعضها. دون وجود مواعيد، الزمن يتوقف. تحولت حياتي إلى ليلة واحدة طويلة

أنتظر فيها جيمس.

هناك دائما بريدي الذي لم يفتح. أختام البريد تخبر عن الزمن.

هاهي رسالة. أفض الغطاء اللاصق مترددة. يخشخش الورق وأنا أفتحه. الأصوات كلها تبدو حادة. أعتقد أني أستطيع سماع كيف تكون ضجة الضوء وهو يتحرك على الأرضية في خطوط طويلة، في العشية.

أميز الخط، على الرغم من أنني لم يسبق لي وأن رأيته. إنه خط جيمس. تقول الرسالة: لورين مور، هل يمكن لحياتك أن تقودك إلى عقد صلة بين الأحياء والموتى؟ أعتقد أنه يمكنها. أم هل أن الأمر، في النهاية، هو هذه الشبكة الكبيرة.

أستطيع سماع جيمس في السرداب. إنه يصعد السلم داخلا في الظلام. إنه آت للنيل مني. أسمع تنفسه في الخارج.

أستطيع أن أرى من هنا ثقب المفتاح، وأجزاء معدنية تكون الرَزَّة. خلف ذلك تمتد متاهتي، مزعجة، مجهولة، عبقة. تضج بنسيم طري. إنها مظلمة ونفضية، والأوراق تجعل من نفسها أفرشة سميكة.

أتطلع إلى ما وراء متاهتي - إلى العش الذي تخلقت فيه- إلى المكان الذي منه تمددت وزحفت على ما كان مرة ظاهر طفولتي المتألق ثم انفغرت لي، وكان اتساعها يبتلع كل شيء بما في ذلك ممراتها هي نفسها. أحسست بها، تلك الحوالق [1] الرفيعة التي تلتف حول نقاط المراقبة الخلفية بعقلي، المواربة قليلا، وتغطيها.

وهكذا أظل مستلقية هنا واقعة في الشرك كفأر محطم الأطراف أثناء ما يتحرك الباب منفتحا، تمتد يدي نحو السكين، لترتد فجأة. أعرف الآن ما كان جيمس يعلمه طوال الوقت.

سوف يسكتني.

* * * *

(1) خيوط النبات، كما في شجرة العنب، تلتف على ما حولها.

الصـــرة الـزرقــاء

توني دَ سوزا (*)

حكاية (وو) حكاية بسيطة: قدم إلى غرب أفريقيا من شنغهاي سعيا وراء حياة أفضل. خلال عقد التسعينيات تمكن عدد من الصينيين المختصين في التداوي بالأعشاب من تثبيت أوضاعهم في مدن ساحل العاج الكبرى والصغرى، وكان ابن عم (وو) واحدا منهم، فجَرَّ (وو) للالتحاق به. اختار (وو) بلدة سِغويلا، وهي بلدة مكفهرة يقطنها المسلمون واقعة شمال البلاد، وقضى هناك بضعة أشهر يتلقى دروسا في مبادىء اللغة الفرنسية، كما هي متداولة في غرب أفريقيا، منفقا أكواما من رصيد ابن عمه من الفرنكات الأفريقية في الصرف على موظفي المدينة في الحانات. بعد ذلك علق لافتة في أحد الأسواق، وبدأ المرضى في التوافد. كانوا في معظمهم جنودا ومدرسين التقطوا أمراضا تناسلية من البغايا المحليات. كانوا

(*) Tony D'Souza أديب أمريكي. عمل في فيالق السلام في غرب أفريقيا لمدة ثلاث سنوات كمرشد في المناطق الريفية للوقاية من وباء الإيدز. والعنوان الأصلي للقصة:Club des amis منتدى الأصدقاء.

يدركون أن الخبر سيتسرب لو أنهم لجأوا إلى مستشفى البلـــدة، لذا آثروا الذهاب إلى (وو) الذي كان يجعلهم يتعافون بواســـطة الإبر الصينية وعقار الإريثرومايسين. وحتـــى طبيبـــا المدينـــة العاجيان كانا يترددان عليه، بين الحين والآخر، بسبب طفـــوح جلدية محرجة. في عطلات نهايـــة الأســـبوع يطـــوف (وو) بدراجته النارية [1] القرى المحيطة ليعالج الوجهاء وأبناءهم من نفس هذه الأمراض، حسب التسعيرة المعمول بها في القريـــة. نجحت مهنته، وفي مدة وجيزة أصبح يستطيع مساعدة زوجتـــه وابنه في الصين.

قبل أن ألتقي (وو) كنت قد عرفت من هي زوجته. كنت دائما أسر لرؤيتها: امرأة صينية ضئيلة ترتـــدي ثيابـــا ورديـــة ضيقة، تتهادى وسط زحمة سوق سِغويلا بقبقاب يرفعها فـــوق رؤوس السمك والوحل، ومظلتها النسائية منفتحة فوق رأســـها كزهرة. أينما تذهب كانت تُتبع بصف طويل من صبية الـــسوق وهم يرددون: " صينية! صينية!" وبعدد من الكلاب المتـــشردة المنجذبة، ربما، نحو رائحتها الغريبة. كنت أسر برؤيتها ليس، فقط، لأن وجودها في ذلك المكان النائي كان يمنحنـــي رعـــشة

---

(1) المقصود دراجة نارية يمكن استخدامها، حين يتعطل محركها، كدراجة عادية.

بهيجة، ولكن لأنها كانت غريبة هناك أكثر مما أنا غريب. كلما تلاقينا كان الصبية الذين يتبعونني صائحين: " رجل أبيض! رجل أبيض!." ينصرفون عني ليلتحقوا بحاشيتها. كنت أدرك أن حياتها في أفريقيا لا بد وأنها كانت جحيما.

" كرهت بييتشنغ العيش هنا."، قال لي (وو) ذات ليلة. كنا ببيته نحتسي الجعة الدافئة ونلعب البوكر من أجل ذيول الأربيان المتبقية من غدائنا. كان (وو) يعيش وحيدا، آنذاك، وبيته واسع وفارغ حوله. " أينما ذهبت تبعها الصبية. وفي السوق كانت النسوة دائما يرغبن في لمس بشرتها. استأجرت مدرسا ليعلمها الفرنسية، ولكنها لم تفلح في ذلك. لم تتعلم ولا كلمة. كان قلبها في الصين. بعد أن مات (وِن) تحطمت. بعد ذلك ببضعة أشهر عادت إلى الوطن.".

كانت ليلة ممطرة وكانت سغويلا هادئة، على غير العادة. فرّجني (وو) على صور من حفل زفافه. عندما تزوج هو و(بييتشنغ) كانا طالبين معدمين، وكان أفضل شهر عسل يستطيع (وو) توفيره رحلة إلى بكين، حيث أقاما لدى أقارب له. كانت إحدى الصور تظهرهما وهما في حديقة خارج القصر الإمبراطوري. كان لون الأزهار قد تحول، كبقية الصورة، إلى

البني الغامق. بدا (وو) نحيلا وشابا، وهو يمسك بسيغارة بين إصبعيه، وبدت زوجته خجلة. كانا يرتديان الجينز ولم يكونا يبتسمان، إلا أن شيئا ما في وضعهما المتصلب نم عن أهمية اللحظة.

الجميع في الصين نصحوا (وو) بعدم أخذ ولده إلى أفريقيا، فأفريقيا حافلة بالأخطار والأمراض، وفي الأمر كثير من المخاطرة، خاصة عندما يكون الابن وحيد الأسرة. لكن (ون) وأباه كانا متعلقين ببعضهما وقرر الابن تأجيل دراسته الجامعية ليكون مع أبيه. فرجني (وو) على صورة لابنه أيضا. كان (ون) ولدا طويلا، شاحبا وجاد النظرة، وكان وجهه متناسق القسمات وطويلا مثل وجه أمه. كان وسيما. كان يقف أمام أسد من حجر اليشب في ميدان مكسو بالثلج في مكان ما من (خيان)، ويرتدي معطفا رسميا ثقيلا من الصوف ، وعلى كتفيه تستريح ندف الثلج كنويرات الأزهار. قال (وو)، بصوت هامس، وهو يريني الصورة تحت مصباح كهربائي عار في حجرته:" أحضرته إلى هنا في (خيان) لنجاحه. للتفرج على المكان. للاحتفال. طفل وحيد في الصين. ابن وحيد. هل تتصور؟ دنيا من المطر، فيها قطرة واحدة تخصك.".

كانت أفريقيا عسيرة على (بييتـــشنغ)، ولكـــن (ون) تلاءم معها كما لو أنه كان طوال حياته ينتظر إطلاق الـــسراح هذا. كان قد بلغ الثامنة عشرة لتوه، حين جاء. ولسبب ما تلقـــاه الأفارقة كما لو أنهم كانوا ينتظرونه هم أيضا. لعب كرة الـــسلة مع أبناء الجنود كل مساء في ملعب البلدة. استعار دراجة أبيـــه النارية واختفى في الغابة، لعدة أيام، صحبة أصـــدقائه. تنـــاول شرائح الموز المقلية من عند باعة الطرق، رمى حذاءه الجلدي واحتذى نعلا لينا ابتاعه من السوق. ذهب للـــسباحة فـــي نهـــر (ماراهوي)، وعمل في حقول الأرز مع أناس بالكاد يعرفهم. في غضون ثلاثة أشهر أصبح يتكلم الوُرودوغو كما لو أنه ولد بها. كان يقابل بالسخرية أي تحذير يوجهه إليه أبوه بخصوص فطريات الأمعاء، أو البلهارسيا والورم القتاميني[1]، وبخصوص الإيدز والفتيات المحليات. بعد ستة أشهر نزل، ذات أحد مغبر، من حافلة في سغويلا وأمه إلى جانبه وعليها ســـخط بـــاد؛ لأن (ون) اتخذ لنفسه إحدى الفتيات المحليات خليلة، وبعـــد ذلـــك بشهرين أخبر (ون) أباه بأن الفتاة حامل. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي صفع فيها (وو) ابنه. من يعلم لماذا؟ لعل ذلـــك

(1) melanoma نوع من السرطانات الجلدية.

بسبب الإجهاد الناتج من القلق على الولد، أو المتاعب المتراكمة بسبب عزلته النفسية في أرض أجنبية. ربما كان ذلك بسبب الإحباط الذي أصابه خلال تعامله مع الحكومة العاجية الفاسدة التي كانت تطالبه دائما بمستندات جديدة عليه أن يشتريها، وضرائب جديدة عليه أن يدفعها. ولعل ذلك كان بسبب هذا كله. وأيا كان السبب فقد صفع (وو) ابنه مرات ومرات. كانا في الشرفة المطلة على السوق. تصادف ذلك مع هطول أول مطر قوي في الفصل، وكان الناس يقفون تحت الظلل القزديرية التي تغطي الأكشاك، منادين أصدقاءهم متضاحكين، وهم يشهدون ما يدور بين الرجلين الصينيين.

قال (وو) :" كيف سيكون شكل الحياة التي سيحياها شخص نصف أسود في الصين؟".

صرخ (ون) :" أنا أعيش هنا الآن!، ولن أعود إلى الصين!.".

حاول (وو) الإمساك بذراع ابنه، لكن (ون) انتزع نفسه وفر.

لم يسمعوا عنه أية كلمة لمدة ثلاثة أشهر. ثم جاء، في منتصف الشهر الرابع، رسول من قرية الفتاة، الواقعة على بعد

ثلاثين ميلا إلى الشرق، فيما وراء مدينة مانكونو، حيث لجأ الزوجان. كان الرجل شخصا فقيرا في أسمال قروية، ولم يجرؤ على رفع عينيه للنظر في عيني (وو) وهو يعلمه بالنبأ الذي كان يحمله: مات (ون).

نظرت إلى صورة الولد الطويل الجاد، بندف الثلج على كتفيه، وسألت: " ما الذي حدث له، يا ترى؟".

" إنها أفريقيا. من يعلم ماذا حدث؟ نحن هنا ننام تحت ناموسية. أما هناك فكان هو يعيش في كوخ. لم يستعمل أية أدوية. لعلها مالاريا. لعلها الكوليرا أو التيفوئيد أو الطاعون أو حمى ما. من الممكن أن يكونوا قد سمموه. لقد مات. ذلك هو كل ما عرفناه. أخذ الأمر مني ثلاثة أسابيع كي أخبر زوجتي. رغم أنني أدرك أنها كانت تعرف. لم تكن تكلمني، وحين أخبرتها، في النهاية، بالأمر، صفعتني. أنحت علي باللوم في كل ما حدث. بعد ذلك ببضعة أسابيع عادت إلى الوطن. قالت إنها ارتكبت خطأ بالزواج مني. لا يمكنني العودة إلى الوطن الآن، هل تدرك ذلك؟ طفل واحد في الصين. الملكية الوحيدة ذات القيمة. لقد قالوا لي بألا أحضره هنا. حتى لو عدت، فلن يسامحوني.".

تطورت صداقتي مع (وو) بحذر. كنت عامل إغاثة في

[المنظمة] العالمية لمياه الشرب، وأعيش في قرية تِغويلا الواقعة على عمق اثني عشر ميلا في أحد الأدغال. في بعض العطلات الأسبوعية التي ذهبت فيها إلى سغويلا للتخلص من أعبائي، كنت دائما أهرع إلى (وو) في منتدى الأصدقاء، وهو حانة تلاصق بقايا كنيسة كاثولوكية أحرقت في أحداث الشغب الأخيرة. كان (ون) قد مات قريبا من الوقت الذي وصلت فيه ساحل العاج، ولكنني لم أعلم ذلك حينها. فلم أكن أعرف عن (وو) سوى أنه شخص أستطيع أن أشرب معه: الطبيب الصيني الغريب الذي انتهى، بكيفية ما، إلى هذه الناحية القصية، والدائم التدخين الذي لا يتركني أدفع ثمن الشراب. لم يعقد أي أحد آخر من عمال الإغاثة صداقة معه، لأن فرنسيته كانت عسيرة جدا على الفهم، ولأنهم كانوا يأتون من قراهم إلى سغويلا لينعموا بالسكر في سلام. هذا ما كنت أسعى إليه أنا أيضا، ولكن (وو) سعى خلفي. ولما اعتدت فرنسيته صرت أسعى لرؤيته. كان متعلما وعارفا بالدنيا. كانت لنا نقاشات سكر مطولة حول السياسة ومستقبل العلاقات بين بلدينا، وعادة ما كنا نعود معنا ببضع علب الجعة إلى مقر إقامته ذي الثلاث حجرات، الواقع على حدود السوق، ونتفرج على أفلام (جاكي شان) في جهاز الـ DVD المحمول، لأجد نفسي، حين أستيقظ

في اليوم التالي، على حصير مجدول من الأغصان وعليَّ شرشف رقيق.

عند الصباح أجد نفسي دائما محرجا لإمعاني في السكر إلى هذا الحد، ولكن (وو) كان يطمئنني. كنت أجلس على قفص [1] في مطبخه الفقير أراقبه وهو يقف قرب موقد الكيروسين في ملابسه التحتية يطهو المعجنات والقريدس، يدخن سيغارة وينفض الرماد على الأرضية. كنا نأكل من أوان من الفولاذ ترتكز على ركبنا، مطقطقين عيداننا الصينية ومحدثين صوتا عاليا عند الابتلاع، وكان يخبرني أثناء ذلك عمن أصيب من مدرسي المعهد العالي بالناحية بالسيلان. قال بأنني يجب أن أزور يوما ما أخته المقيمة في كوينز، بنيويورك، لأنقل إليها سلاماته. لقد ذهبت إلى أمريكا في حاوية بضائع، وتمتلك الآن محلا لبيع الوجبات الخفيفة. أكد لي بأنها سوف تعاملني كملك.

" هيا بنا لنتناول شرابا في المنتدى، يا عزيزي". يقول، رافعا حاجبيه. لكن الوقت ما يزال صباحا، فأعتذر. كنت في أفريقيا لأساعد قريتي، لذلك علي أن أعود إليها. سأتدبر الذهاب إلى الدغل في شاحنة، ولن أفكر في (وو) إطلاقا، لما يقارب

(1) قفص على شكل صندوق.

ستة أسابيع مقبلة.

أحب (وو) لأنه لطيف معي، ولأننا نتقاسم عزلتنا. نمت صداقتنا ودعوته ليحتفل معي بعيد ميلادي السادس والعشرين في منتدى الأصدقاء. في وقت متأخر من تلك الليلة، حين عدنا إلى بيته، حكى لي (وو) عما حدث بعد موت (ون).

أخذ (وو) زوجته، قبيل أن تهجره، إلى مانكونو على دراجته النارية. جلست (بييتشنغ) خلفه ورجلاها إلى جهة واحدة، مثلما هي عادتها. كان الطريق مثلوما ومكسرا وفي بعض الأمكنة مجروفا بفعل المطر، وغالبا ما كانا يضطران إلى الترجل فيدفع هو الدراجة وتظل هي تمشي إلى جانبه. مضيا خلال الغابة، ثم عبر نباتات السافانا الكثيفة الطويلة، وبين أشجار الباأوباب الواقفة كالعسس. كانت زوجته، التي لم يسبق لها أن غادرت سغويلا، مصدومة بمدى البدائية التي بدت عليها القرى. لوح لهما الناس محيين، ولكنها لكزت (وو) طالبة منه عدم التوقف. كانت تكرر مرارا: " كيف استطاع ابننا أن يعيش مثل هذه العيشة؟".

كانت قرية الفتاة مكانا عدما وسط لامكان: تجمعا من أكواخ وأناس مهزولين يعيشون فيها. خرج زعيم القرية –

مصحوبا بما يبدو أنه مجموع سكانها - لملاقاتهما. الآن، ولسبب غير معروف، لم يعد (وو) ساخطا، وكانت زوجته مستكينة تحت مظلتها. عرفهما الزعيم على الفتاة التي كان حملها واضحا. تساءل (وو) عما كان ابنه يراه في هذه الفتاة الأفريقية. كل ما كان يعرفه عنها أنها كانت تبيع الفلفل المجفف في السوق. يوجد العشرات من الفتيات مثلها. " أين كان ابني ينام؟"، أرادت زوجته أن تعرف. ترجم (وو) سؤالها للزعيم، ثم للفتاة وأسرتها، وعلى أثر ذلك قادهما الزعيم بين أكواخ القرية المتماثلة المسقوفة بالقش إلى كوخ منها واقع في الطرف. تطلع (وو) وزوجته داخل ظلام الهيكل البسيط. فوق الأرضية المتسخة كانت توجد حصيرة بالية مصنوعة من الرافية، ولا شيء عدا ذلك. " هنا كان ينام زوجي."، قالت لهما الفتاة. أرتهما حوض ماء من السيراميك وقدحا صغيرا من القرع لاغتراف الماء. " هذا هو الماء الذي جلبته له ليشرب. وهذا هو المقعد الذي كان يجلس عليه في الأماسي.". بدت الفتاة خائفة. كان (وو) واثقا من أنها لولا وجود الزعيم لركضت لتختفي في الدغل.

واضح أن ممتلكات (ون) القليلة قد تم الاستيلاء عليها من قبل الأحياء. قام الأهالي بجلبها ووضعت تحت قدمي

(وو). كانت تتكون من منجل وجلبـــاب أخـــضر بـــال. زأر الزعيم في شاب يقف بجانبه، فخلع هذا نعليه. وضعهما الزعيم أمام (وو) قائلا: " هاتان كانتا فردتي نعله.".

اقترب منهما، مصحوبا بمعاونيه، طبيب شعبي مغـــضن الجسد. نظر بين قدميه، ثم قال لـــ(وو) في صوت رصـــين: " مرض الفتى لمدة ثلاثة أيام. استدعاه الجدود. لقد كان قويـــا، قويا في قلبه. لكن الجدود استدعوه في حرقة. مات في كـــوخي وأنا أصلي عليه. لقد كان قويا حتى النهاية.". أشـــار الطبيـــب الشعبي إلى كوخ آخر، الكوخ الذي مات فيه (ون). كان يبدو مثل الأكواخ الأخرى.

قادهما الزعيم، خارجا بهما من القريـــة، وســـط نباتـــات السفانا الطويلة. تبعوا مسربا يقود إلى أرض خالية من العـــشب تعلوها مجموعة شجرات أكاشيا مزهرة تلمع حمراء وصـــفراء. كان ثمة قبور قديمة، أكداس من تربة صـــخرية حيـــث شـــقت الأرض وقلبت، وخلفها كان هناك كدس آخر تربتـــه طازجـــة وحمراء، تبدو هشة، غير شديدة الصلابة. قال الـــزعيم: " هنـــا يرقد."، ثم نثر الأرز على الأرض تيمنا.

كان كدسا من تراب، تتناثر الحصى فوقه كجواهر خشنة،

دون علامة من أي نوع، يتحدر توا نحو المجهولية. " لماذا لم تحضروه إلى البلدة، عندما كان مريضا؟"، سأل (وو) الزعيم.

تكلمت الفتاة. قالت: " لم يكن زوجي يريد الذهاب إلى البلدة.".

" لماذا لم تحضروا لنا جثمانه؟".

قال الزعيم:" لقد صلى معنا. مات كمسلم. دفناه هنا على الطريقة الإسلامية.".

أعطى (وو) نقودا للفتاة وطلب منها المجيء إليه في سغويلا. وعد بالاهتمام بها، ومساعدتها في كل ما تحتاجه. أخذت زوجة (وو) الجلباب الأخضر والنعلين. هرعت أم الفتاة بمئزر أزرق ولفت فيه الجلباب والنعلين بعناية. عاد (وو) إلى سغويلا هو وزوجته التي ظلت محتضنة الصرة الزرقاء. لقد أدرك أن حياته مع (بييتشنغ) قد ولت. وهما يتركان القرية حاول (وو) النظر إليها وإلى الأرض من خلال عيني ابنه. كانت السحب البيضاء تتناثر عبر سماء رحبة، وللمرة الأولى – وفقط لفترة وجيزة – سمح (وو) لنفسه بالاعتراف بأن أفريقيا جميلة.

شاعت حكاية (وو) في القرى كافة بما في ذلك قريتي. لم يروِها لي أحد أبدا، لأنني لم أكن من النوع الذي يسأل. ذات ليلة قلت لجيراني ونحن نجلس حول نار المساء: " الجميع يعرف حكاية الطبيب الصيني، أليس كذلك؟".

هز أحد الشباب رأسه قائلا: " آ. أجل. لقد كانت أحداثها تجري وأنت هنا.". أشرع يده قرب وجهه في مواجهة الليل كما لو أنه يرد المتاعب. قال: " حكاية مفجعة. من يعلم أي نوع من الجن كانوا وراءها. الطبيب الآن يريد الابن الصغير. الفتاة لن تسلم في ابنها. من الذي سيربح؟ مشكلة من هذا النوع مشكلة مستعصية. مشكلة من هذا النوع ينبغي تجنبها.". غمغم جميع من كانوا حول النار بالموافقة.

مر بعض الوقت قبل أن تتعامل الفتاة مع (وو) على أساس وعوده. ولكنها انتقلت، بعد أن ولد الطفل، للعيش مع خالتها في سغويلا وصارت تحضر الطفل إلى (وو) يوميا. كان مازال مع (وو) نقود حينها، أنفقها على حفيده بسخاء. أحضر له لعبا من أبيدجان: كرات زاهية الألوان وشاحنة بلاستيكية، واشترى مآزر هولندية مشمعة وحذاء يغطي المشط للفتاة. أسمت الولد موسى، وهو اسم إسلامي، ولكن (وو) كان

يدعوه (ديدي). لست متأكدا تماما مما يعنيه ذلك الاسم، ولكن لدي إحساس بأنه يعني " صغير".

كان (وو) قد كف عن الشراب في تلك الفترة، ولم أره لعدة أشهر، إلا أنني حافظت على متابعة حكايته من خلال سؤال من هم حولي. ذات مرة مررت ببيته لأستطلع حاله. لاحظت وجود اللعب في المدخل، ففهمت أن (وو) سعيد، وأن حفيده صار جزءا من حياته الآن، وأن حياة (وو) افترقت عن حياتي، إلى ما هو أفضل.

تلك السنة حل الجفاف، فأخرج القرويون أقنعة الحصاد ورقصوا مستغيثين بالجدود. أمامنا جميعا بضعة أسابيع للراحة، قبل أن يحل علينا رمضان. أبادر عند سماع دعوة الإمام إلى تناول حساء البامية مع الجيران، على ضوء نار الفجر في الظلام، وأمتنع عن تناول الطعام والشراب خلال النهار، رغم أنني لا أصلي. كان ثمة فترات هدوء مطولة ينعدم فيها العنف الذي ميز تلك السنوات، وكان الجميع يتساءلون عما إذا كان ذلك سيدوم. ثم، بعد أن بدا أن الأمة قد أصلحت ذاتها، اندلع القتال في كل مكان.

حين استعادت الحكومة السيطرة على مدينة سغويلا ذهبت

إلى هناك لأستطلع ما حل بها. كان المشهد هو نفس المشهد الذي كنت قد عاينته بضع مرات: بيوت الجنود والمسيحيين أحرقت، مكاتب مدراء الشرطة نهبت وخربت. كان منتدى الأصدقاء ما يزال قائما وحياني المالك وأخواته بحرارة. كان ابن عم المالك نائب آمر الحامية العسكرية بالمنطقة، وما زال رشاش الأغراض العامة الذي أحضره لحماية الحانة منصوبا على الأكياس الرملية ـ كشاهد على مدى الخطورة التي بلغتها الأمور - كان (وو) في الركن يشرب. كنت منفعلا لرؤيته، ولكنه لم يبد كما كان أبدا. عندما اقتربت منه لاحظت أن منفضته كانت ممتلئة بأعقاب السغائر، وأنه قد صف إلى جانبه على الأرض صفا طويلا من قناني الجعة التي أفرغها. كان وجهه مسودا بفعل الشعر النامي. كان يكح ويبدو مريضا. سألته:

" هل استطعت تفادي المتاعب هنا، يا (وو)؟".

هز رأسه، ولوح بيده. قال: " لقد نهبوا بيتي. ضاع كل شيء.".

" ما الذي حل بـ(ديدي)؟".

" حفيدي؟ أخذته الفتاة معها منذ بضعة أسابيع. لم تكن تريد سوى المال. قالت لي بأنه عليَّ أن أدفع خمسين ألف فرنك

أفريقي متى ما أردت رؤيته. رفضت تركه معي لأنها كانت تخشى من أن آخذه إلى الصين. أبلغت الشرطة بما كانت تفعل. سمعت بذلك فاختنقت. أسرتها هي التي نهبت بيتي. لولا ذلك ما كنت لأواجه المتاعب هنا.".

شربنا معا بضع قناني جعة كبيرة، ولكن الشراب لم يحسن مزاجه. كان يدخن وفي حالة انهيار. حل علينا المغرب وتحول إلى ليل، وأراد (وو)، الذي كان رأسه ينزل مرتخيا، أن يعود إلى البيت وهو يقود دراجته. لكنني وضعته على مقعد الدراجة الخلفي وقدتها بنفسي، مغمضا إحدى عيني من أجل تدقيق الرؤية. كانت كافة نوافذ بيته محطمة وشظايا الزجاج متناثرة في كل الحجرات. كانوا قد أخذوا تلفزيونه وسريره وموقده. فوق الركام المتكدس على الأرضية كانت هناك رسائل موحلة ومجعدة، لابنه، عليها أحرف صينية.

جلسنا على قفصين في حجرة نومه، وأشعلنا سيغارتين. كان (وو) قد استعاد تماسكه خلال رحلة العودة." جاك"، قال مشيرا بيده إلى الفوضى" هذه هي الحياة التي جررتها على نفسي، أليس كذلك؟ جئت إلى هنا بدافع الطمع، وهذا ما جنيته.". ما الذي يمكن قوله؟ تناول (وو) إحدى الصور، سوى

تجعداتها على فخذه، وظل يتفحصها مليا. قال: " أنت تناديني (وو). الجميع هنا ينادونني (وو). هذا ليس اسمي. اسمي (تشانغ). (تشانغ غوتشيانغ)."

"(تشانغ غوتشيانغ). ومن أين جاء (وو)؟".

" انتحال. اسم شخص آخر. (تشانغ غوتشيانغ) يصعب عليهم نطقه، فنصحني ابن عمي بأن أقول لهم بأن اسمي (وو). إنه نفس الاسم الذي يستخدمه هو. صينيون عديدون هنا يستخدمونه. يسهل عليهم نطقه. لكن اسمي هو (تشانغ غوتشيانغ)."

ساعدته في التنظيف واشتريت له حصيرة رخيصة من بائع ليلي لينام عليها. كنت أخشى عليه أن يقتل نفسه، ولكن ما الذي يمكنني عمله؟ حين غادرت، كان مايزال نائما على الحصيرة في ملابسه الداخلية، وصور حياته تتكوم بجانب رأسه كمخدة.

بقي (وو) في سغويلا بعد أحداث الشغب تلك، وأصبح يبدو معتوها بدرجة ما. كان بالنسبة لأهل البلد رجلا غريبا من الصين ذا ماض مأساوي: ابن ميت، زوجة هاجرة، وحفيد هجين في قرية قصية ما. بالنسبة للعاملين في الحانات هو: سكير، محطم، أجنبي جاء إلى مكان، لم يكن ينبغي له المجيء

إليه، من أجل الاستفادة، فخسر كل شيء، بسبب الطمـــع. إلـــى جانب أنه يعرف كثيرا من خفاياهم المشينة.

اشترى (وو) سريرا آخر، وجهاز تلفزيون آخر لمشاهدة أخبار ساحل العاج. كان يحييني أمام منزله تحية مجاملة، كما لو أن صداقتنا تتعلق بفترة من حياته لا يرغب في تذكرها. لم يكن يدعوني إلى الدخول. عندما أجده في الحانة كنت عادة مـــا أراه يطلب الجعة لمنضدة يزدحم عليها جنود معربدون، أو جالسا مع قضاة من مستويات مختلفة ببدلهم الأنيقة يضع أمامهم كـــؤوس الــ(جوني ووكر). لغته الفرنسية تدهورت. كان، وسط حـــث الجنود السكارى له، يخوض مباريات لي الأذرع مـــع الفتيـــان ملمعي الأحذية، الحمقى المتسخين، وحين يخسر يأتي بتكشيرات ليضحك بها من حوله. بين الحين والآخر كان يرمقنـــي وأنـــا أشهد، عن بعد، ما يتعرض لــــه من إذلال، فيـــستعيد وجهـــه، لفترة وجيزة، هيئته المعتادة، كما لو أنه يقول لي: " تعلم أننـــي لست هكذا.".

كان رأي أهالي قريتي ينقسم إلى قسمين. البعض يـــرى: " إنه لمن المفجع أن يفتقد المرء ابنه. والفتاة لا تحب أن تفقـــد ابنها هي الأخرى. أليس من الطبيعي أن يكون الابن مع أمـــه؟

هذا الصيني يريد الطفل ليمنحه السلوان. ولكن أليس للفتاة حق في ابنها؟".

آخرون يقولون: " لماذا تضخم تلك الفتاة المشكلة؟ الطفل المعني هنا ليس طفلا اعتياديا. ستكون حياته هنا مهزلة. الصيني غني، ويمكن للفتاة إنجاب أطفال آخرين. الأفضل التخلي عن هذا الطفل المشكلة، والاحتفاظ بالآخرين الذين سيكونون تامي السواد.".

لم يكن سرا أن (وو) كان يوزع الرشاوى يمينا ويسارا في هذه الأثناء. راجت شائعات بأنه منح خمسمئة ألف فرنك أفريقي لمدير الشرطة ومبلغا مماثلا لقاضي الناحية، وأنه يرسل، في كل ليلة، شرابا وسغائر إلى جنود بوابات المدينة. من الصعب إخفاء طفل هجين. ذهب جنود بملابس مدنية إلى قرية الفتاة، فتشوها، ثم فتشوا قرى جميع أقاربها. أُحضر أبوها وأخوتها، واحدا واحدا، إلى سجن سغويلا، وتم تغريمهم بمبالغ ضخمة بحجة أن أوراق هوياتهم لم تكن سليمة. لم تكن أوراق أي شخص سليمة في الشمال الإسلامي. عذب أقارب الفتاة، ثم أطلق سراحهم. لو كانوا يعلمون أين ذهبت الفتاة لما أفشوا ذلك.

دارت الشائعات. البعض قال إنها عند ابنة عم [1] لها في قرية (سنوفو) خارج (كورهوغو). آخرون جعلوها في (بوزو) وهي قرية واقعة شمال (بيومي) يسكنها صيادو أسماك. أكثر الروايات رومانطقية قالت بأنها قد أغرقت نفسها هي وطفلها في (ماراهوي)، أو أن رجلا فرنسيا رفيع المقام قد وقع في غرامها في أبيدجان وانطلق بها هي والطفل إلى باريس.

طمأن الجنود (وو) بأنهم يقتربون من هدفهم. سرت الروايات في القرى. أحدهم رأى طفلا صغيرا ببشرة لها لون الشاي وعينين مثل عيون الصينيين تائها في أحد أسواق (بونديالي) يبكي طالبا أمه. شخص آخر رأى الفتاة تحاول عبور حدود بوركينا، والطفل مشدود إلى ظهرها، عند (فِركسِّدوغو). اندلع العنف هنا وهناك: عمال (دَيولا) يضربون في أبيدجان، إغلاق مزارع النخيل في وجه العاملين بها في (موسِّي). الانقسامات الدينية في البلد تتصاعد كالرطوبة التي تُترع الهواء. وسرعان ما سيؤول فصل الجفاف

(1) الكلمة الإنجليزية لا تحدد ما إذا كان المقصود ابنة، أو ابن، عم أو عمة، أو خال أو خالة.

إلى عواصف رعدية كبرى.

أحاول أحيانا تصور الفتاة. كل ما كنت أعرفه هو أنها كانت تبيع الفلفل في سوق سغويلا، وأنها كبرت في قرية معزولة وبدائية كالتي أعيش فيها. تتدبر أحيانا المجيء إلى البلدة، حيث لابد وأن أضواء الشوارع وسيارات الأجرة القليلة الصدئة قد أبهرتها، وحيث وقعت في غرام ابن (وو).

حالات من مثل هذه المغازلات تقع يوميا في السوق: فتيات ضجرات يغايظن شبانا عاطلين بشأن أسمالهم أو عضلاتهم النامية حديثا، شبان يغايظون فتيات بسبب استكانتهن وأميتهن، ومآزرهن البالية. يصف الشبان الفتيات بأنهن هزيلات كالدجاج المنتوف، وتقول الفتيات للشبان بأن لهم أسنان حمير. يحدث ذلك طوال النهار. وفي الليل، بعد تناول العشاء وغسل الصحون، يقوم الشباب من الجنسين بالتجوال تحت أضواء الشوارع البرتقالية في مجموعات متماثلة الجنس، ويحدث، في أحيان نادرة، أن تستطلع فتاة جريئة أو يستطلع شاب جريء فيما حولها أو حوله بحثا عن وجود أقارب، ثم تقطع، أو يقطع، الشارع من أجل لمس ذراع، الإمساك بكف، قضاء بضع لحظات في العتمة قرب المحبوب، يمنعهم الخجل الشديد، في

البداية، من قول أي شيء على الإطلاق.

لابد , أنه كان ثمة نجوم في السماء ليلة التقيا. قد تكون قالت له: " حدثني عن بلادك."، وقد يكون قال لها: " هل تعرفين شيئا عن بلادي؟". وكفتاة غير متزوجة لابد وأنها كانت تحت رقابة خالتها أو عمتها وخادمتها، طوال الوقت. وبما أن أم (ون) كانت دائما متواجدة بالبيت فمن غير المحتمل أن يكون قد أخذها إلى هناك. لعله كان هناك مكان معشب في الدغل يمكن لهما أن يجلسا فيه وينظرا إلى أضواء البلدة. لعل لدى (ون) صديقا أعارهما غرفته. على نحو ما، في مكان ما، تمكنا من التعرف إلى بعضهما ووقعا في الغرام. نادت الفتاة (ون) " يا زوجي" فراقه ذلك. هل تصورت أنهما سيعيشان معا في قريتها إلى الأبد؟ أم هل أنها كانت تأمل في السفر معه إلى الصين يوما ما؟ هل توقف أحدهما ليفكر في التعقيدات التي سوف يواجهها طفلهما؟ أم أن كل شيء بدا ذهبيا ومتألقا في نوبات حبهما وعنفوان شبابهما؟

ما كنت، أخيرا، أتعجب منه هو: هل تحطم قلبها؟ هل تفتقد (ون) بنفس القدر الذي يفتقده به (وو).

جاء (وو) إلى قريتي ظهر أحد أيام الجمعة، حين كان

جميع الراشدين في المسجد يصلون. كنت أجلس خارج كوخي آكل جوافة آخر الموسم، عندما أوصله أحد الصغار إليَّ راكضا أمـام الدراجة النارية. كان الصغار عراة، منتفخي البطون، تستقر تحت أنوفهم طبقات مخاط جاف، وقد وقفوا على مسافة قصيرة منا، كما لو كانوا مرتبكين بسبب سوء التغذيـة والإنهـاك. أوقـف (وو) دراجته، تمعنني وأنا في ملابس الحقل، أسـتطلع داخـل كـوخي المعتم، ثم قال مقطبا: " إنها لمعجزة أنك لم تمت أنت أيضا.".

بدا (وو) أنيقا. كان وجهه حليقا حلاقـة مدققـة وشـعره مقصوصا. الرجل المحطم الذليل الذي شهدته في الشهور الماضية وهو يتمسكن في الحانات عاد، على نحو ما، إلى الطبيـب الـذي عرفته مرة." أحتاج منك إلى معروف، يا جاك."، قال." لم يسبق أن طلبت منك شيئا. الآن أنا محتاج إلى مساعدتك. لقد وضعوا الفتـاة في سجن مانكونو. نقودي نفدت. أريد أن أستلف مئة ألف فرنـك أفريقي، رسوم أحد المستندات. لكنني أحتاج أيـضا إلـى شـاهد. شخص ما ينبغي أن يوقِّع على أنني الوصي الشرعي على ديدي. لا أحد في سغويلا سيفعل هذا من أجلي. إذا لم تفعل أنـت ذلـك فسوف يطلقون سراحها ولن أحصل على حفيدي.".

لم أكن أفضل، بالطبع، أن أضطر إلى اتخاذ هذا القـرار.

وبما أن جميع الراشدين كانوا في المسجد، فلم يكن هناك من ينصحني أو يقدم تعلة لعدم استطاعتي الذهاب معه. كل من كان موجودا هو رجل كهل نحيل من الصين كان مرة صديقي، وبعض الأطفال العراة يحدقون بنا في بلادة، دون حتى أن تطرف جفونهم.

لفترة طويلة، لم أقل أي شيء. أشاح (وو) ببصره، وتطلع الأطفال نحوي كما لو كانوا مجلسا قضائيا. كانت السماء زرقاء، والنهار مشرقا. وضعت الجوافة على الأرض، ودخلت إلى كوخي. نزعت ملابس الحقل وارتديت جلبابي الأخضر. وضعت أوراق هويتي في جيبي. حين خرجت داس (وو) مشغلا دراجته، فركبت خلفه. " قولوا للزعيم بأنني ذهبت إلى مانكونو. سأعود غدا، إن شاء الله.". أومأ الأطفال برؤوسهم متجهمين. قالت أكبر البنات بصوتها العذب: " اللهي قِسي، تونتون. " (بارك الله طريقك، يا عم).

ظل (وو) ينتظر خارج المصرف في سغويلا ومحرك دراجته دائر. حين خرجت سلمته النقود، فاجتاز بنا الشوارع نحو مبنى المحكمة، وأخبرنا جندي البوابة بأن القاضي في الحانة. أدركناه هناك بحلته الأرجوانية يحتسي الوسكي، على

منضدة يتجمع حولها عدد من الجنود. كانت الموسيقى عالية وكانوا كلهم يتضاحكون. ضحكوا من جديد علي وأنا في الجلباب: رجل أبيض يلبس لباسا إسلاميا. بعد دقيقة مسح القاضي فمه بمنديل المائدة، اتخذ هيئة جدية وهو يقول: " حسنا. هل النقود معك ، يا (وو)؟".

ناوله (وو) الرزمة. تورقها القاضي بسرعة، رمى منها ورقتين متسختين على المنضدة، ووضع الباقي في جيب سترته الداخلي. وضع نظارتيه الشمسيتين العاكستين وقال شيئا ما بلغة (بَؤولي) للجنود، ثم خرجنا إلى حيث كان سائقه ينتظر في مرسيدس سوداء.

كانت الرحلة من مانكونو إلى سغويلا طويلة وصامتة. وحتى مع وجود مكيف كانت السيارة ساخنة، وكان بإمكاني أن أشم رائحة الليلك العذبة التي كان يضعها القاضي. كان الطريق أحمر ومتربا، وعلى جانبيه تمتد مساحات واسعة من السافانا الجافة مشكلة سهلا أصفر منبسطا. لم تبد على مرمى النظر مركبات أخرى، وفي القرى القليلة التي عبرناها كان الناس يقفون تاركين أعمالهم ليتطلعوا نحونا.

" ستشهد لصالحه؟". قال لي القاضي ونحن نجلس

بالسيارة في عبارة (ماراهوي)، والنوتي العجوز يقودنا عبر نهر ملوث على طوافة لنقل براميل النفط.

" نعم."، قلت له.

" لم يسبق أن تخيلت ذلك ولا مرة في حياتي: رجل أبيض ورجل صيني في سيارتي في نفس الوقت. حسنا فعلت أن أحضرت ابنك إلى أفريقيا، يا (وو). لقد جلب لنا جميعا هذا القرار كثيرا من الأشياء غير المتوقعة.".

فتح جندي بوابة السجن في مانكونو ونزلنا وسط سحابة من الغبار. كان الدجاج يطبع آثاره على الفناء الجاف، وكانت حجرة المكتب عارية وساخنة، بها منضدة معدنية تحت مروحة معدنية. أملى القاضي على شرطي بملابسه الرسمية يجلس إلى آلة كاتبة، وكان هذا يقوم بعمله في عناية وتمهل. فوقه، على الحائط، صورة الجنرال رئيس الجمهورية الحالي الذي كان يبدو في بزته وإطار صورته سعيدا كما في صورته التي على طوابع البريد. خلف الباب كان يوجد صف من الزنازين. بين الحين والآخر تسمع صرخة.

التقط مصور، جاء من البلدة على دراجة، صورة لـ(وو) قرب الجدار العاري. (وو) لم يبتسم. ختم القاضي

المستندات ووقعها، دعا (وو) إلى التوقيع، ثم دعـــاني أنـــا. كانت المستندات مزخرفة، مزدهية بحبر الختم الدائري الأزرق. لم أهتم بقراءة محتواها. استأذن المصور، (دَيولاني) يرتـــدي بنطلونا فضفاضا ناسلا، القاضي في الانصراف، لكن القاضــــي طلب منه التقاط صورة أخرى. جعلني أقف إلى أحـــد جانبيـــه و(وو) إلى الجانب الآخر. " أبيض، أصفر، وأســـود."، قـــال القاضي، ثم التقطت الصورة.

" هل يمكنني الانصراف الآن، أيها السيد؟"، سأل المصور وهو يتقدم تجاه الباب. أعطاه (وو) قطعا نقدية معدنية قائلا: " واحدة لي أنا وصديقي.". أمسك بيدي أثناء ما كـــان المـــصور يلتقط الصورة. مرة أخرى، لم نبتسم.

صاح الشرطي على العسكري بالخارج أن يأتي ومدَّ لـــه رزمة مفاتيح ثقيلة. مضى الجندي إلى الزنازين وسمعت قعقعة انفتاح باب معدني. بعدها عاد الجندي دافعا فتاة صـــغيرة مـــن قبيلة الورودوغو من كتفيها. كانت قدماها حـــافيتين وأســـمالها متسخة. لم تنظر إلى أي أحد منـــا. شـــيء مـــا فـــي عينيهـــا المخفوضتين كان يقول بأنها قد شبعت تعبا. كانت ترفـــع بـــين يديها ولدا صغيرا كان يرمش بسبب ضوء النهار المتدفق خلال

النافذة. كانت بشرته بلون الشاي، وعيناه صينيتين، وكان شعره سبطا وأسود. كان ولدا وسيما، هشا وخائفا، ومرتديا سروال كاكي نصفيا وقميصا مقببا، كما لو أنه ألبس لحضور مناسبة.

" لم تعد هناك مشكلة الآن، يا مُوسو."، قال القاضي وهو يشير إليها بأصبعه الغليظة، " وستكونين مطلقة السراح. هل تفهمين؟". أومأت برأسها. رفع الشرطي الطفل من فوق ذراعيها، فتمسك الطفل بثوبها منخرطا في البكاء. أجلس الطفل فوق المنضدة، ودفع الفتاة نحو الفناء بعقب بندقيته. وكنت أراه، عبر النافذة، يدفعها إلى الخارج باتجاه البوابة، ومنها إلى الشارع.

خاطب (وو) حفيده في صوت حنون مشرعا يديه، كما لو كان يلاطف حيوانا داجنا مترددا. اعتقدت أن (ديدي) سيصرخ، ولكنه لم يفعل. لعله قد شبع بكاء هو الآخر. مد الشرطي (ديدي) إلى (وو) فاحتضن (وو) الطفل بقوة ممسدا شعره ومقبلا رأسه. خاطب الطفل بالصينية في نعومة، فطوق (ديدي) عنق جده كما لو أنه كان تعبا.

ونحن نغادر شاهدت، من نافذة السيارة، الفتاة تقف على ناصية الطريق وحيدة تتابعنا ونحن منصرفون. بدت كغيرها من النساء المسكينات هناك، ولكنها كانت أجمل، كيانا صغيرا في

الزحام. توقعت أنها ستطاردنا صارخة. إلا أنها شدت وشاحها حول رقبتها، وعندما مرت مجموعة من النسوة في ملابسهن الزاهية الألوان حاملات على رؤوسهن أواني الماء، اختفت الفتاة وحجبتها عجاجة الغبار التي خلفتها السيارة.

تشكى (ديدي) وأخذ يرفس، لفترة قصيرة، ثم استسلم للنعاس. أغمض (وو) عينيه واحتضنه، غير شاعر بمطبات الطريق والمشاهد الأفريقية عبر النافذة، التي صارت بالنسبة إليه ذكرى الآن.

بعد ذلك ببضعة أسابيع جاء المصور من مانكونو إلى قريتي راكبا دراجة ليعطيني الصورة التي تجمعني مع (وو) في سجن مانكونو. سألته عما إذا كان يعلم شيئا عن الفتاة، فهز رأسه علامة النفي. بعدها وضع النقود التي أعطيتها له في جيب قميصه، اعتلى دراجته، وعاد أدراجه من حيث أتى. في الصورة بدونا، (وو) وأنا، أكثر صرامة مما نحن عليه في الواقع، وأطول. يدانا المتماسكتان لم تظهرا في الصورة.

حين ذهبت بعد ذلك إلى سغويلا كان في انتظاري مظروف مرسل من أبيدجان بالبريد المسجل في بريد سغويلا. أجلت فتحه إلى حين عودتي إلى كوخي. أرفق (وو) بالنقود

رسالة قصيرة، طبعها لـــه أحدهم بالفرنسية. منحـــت الـــسفارة الصينية تأشيرة لـــ(ديدي) وسيغادران قريبا إلـــى شـــنغهاي. كتب: " صارت الأمور حسنة. الشيء الصغير الذي تمكنت من إنقاذه وسط هذا الكابوس، هو معي الآن.". شكرني على ما فعلته من أجله متمنيا لي كل خير. سألني أن أزور أخته، إذا ما ذهبت إلى كوين، وأن آتي لرؤيته، إذا ما زرت شنغهاي.

مضى الزمن، وكانت الأخبار التي استمع إليها جيراني عبر أجهزة المذياع تتحدث عن وقوع مزيد من الاضطرابات. كل واحد كان يفكر فيما عساه يحدث للبلد، فيما عساه يحدث للقرية، وما هو سبيل النجاة من الحرب الوشيكة. أنا أيضا كنت أفكر في ذلك. وفي مكان ما، في دغل خلف مانكونو، تحدق فتاة في هذه النجوم نفسها، متسائلة عن مصير ابنها. وفي مكان ما، في شقة فـــي شـــنغهاي، يزداد طفل كل يوم طولا، يتعلم في لغة جديدة كيف يعرب لجـــده عن حاجته إلى الأرز، أو الحلوى، أو العصير، أو الألعاب، وقريبا جدا، عن حاجته إلى أبيه وكذلك إلى أمه.

* * * *

اللجوء إلى استخدام القوة

وليام كارلوس وليامز (*)

كانا مسجلين عندي حديثا، كل ما كان لديَّ هو اسمهما العائلي، أولسون. من فضلك احضر إلى هنا بأسرع ما تستطيع، ابنتي مريضة مرضا شديدا.

حين وصلت قابلتني الأم، امرأة ضخمة غير مريحة الهيئة، بالغة النظافة وكثيرة الاعتذار قالت ببساطة، هل أنت هو الطبيب؟ ودعتني إلى الداخل. أضافت، وهي تسير خلفي، ينبغي أن تعذرنا، يا دكتور، لقد وضعناها في المطبخ لأنه دافيء. هنا تكون الرطوبة شديدة أحيانا.

كانت الطفلة بكامل ملابسها وجالسة في حجر أبيها بالقرب من منضدة الأكل. حاول الأب النهوض، ولكنني أشرت إليه بألا يزعج نفسه، ثم نزعت معطفي وشرعت في العمل. كان يمكنني تبين أنهم كانوا جميعا بالغي التوتر وأنهم كانوا

(*) William Carlos Williams (1883_1963) أديب أمريكي يعتبر من أهم شعراء أمريكا في القرن العشرين، كتب القصة القصيرة. كان طبيبا متخصصا في طب الأطفال.

يتفحصونني بعدم ارتياح. وكما هي العـادة، في مثل هذه الحالات، لم يكن الأبوان ليخبراني بأكثر مما ينبغي لهما، إنه من مسؤوليتي أنا أن أخبرهم، لهذا السبب يدفعان لي ثلاثة دولارات.

كان واضحا على الطفلة أنها تلتهمني بعينيها الواثقتين الهادئتين، بدون أن يظهر على وجهها تعبير من أي نوع. لم تتحرك، وبدت ممتلئة بهدوء داخلي، كائنا صغيرا فائق الجاذبية، وذات مظهر قوي كالعِجلة. ولكن وجهها كان محمرا وكانت تتنفس بسرعة، وأدركت أنها مصابة بحمى شديدة. كان لها شعر أشقر رائع أثيث. كانت واحدة من طفلات الصور التي تنشر عادة في كراسات الإعلانات الدعائية وركن الصور في جرائد الأحد.

منذ ثلاثة أيام وهي محمومة، قال الأب، ولا نعلم ما مصدر هذه الحمى. أعطتها زوجتي بعض الأشياء، تعلم، مثلما يفعل الناس، ولكن ذلك لم يفدها. توجد حالات مرضية عديدة حولنا. لذا ارتأينا أنه من الأفضل أن تفحصها وتعلمنا بالسبب.

وكما يفعل الأطباء عادة حاولت أن أسلك أقصر الطرق. هل سبق لها وأن أصيبت بالتهاب في الحلق؟

رد الأب والأم في وقت واحد، لا ... لا، تقول بأن حلقها لا يؤلمها.

هل حلقك يؤلمك؟ قالت الأم سائلة الطفلة. لكن ملامح الطفلة لم تتغير ولم تحول عينيها عن وجهي.

هل نظرتما في حلقها؟

حاولت، قالت الأم، ولكنني لم أتبين شيئا.

كانت هناك في واقع الأمر عدة حالات من الإصابات بالدفتيريا ذلك الشهر في المدرسة التي تذهب إليها الطفلة، وكان جليا أننا كنا جميعنا نفكر في ذلك، رغم أنه ولا واحد منا تحدث عن الأمر حتى الآن.

حسنا، قلت، أعتقد أنه ينبغي أن نفحص الحلق أولا. ابتسمت بأفضل ما تمكنني منه آداب المهنة وقلت للطفلة مخاطبا إياها باسمها، هيا، ماتيلدا، افتحي فمك ودعينا نلق نظرة على حلقك.

لم تستجب.

أوه، هيا، لاطفتها، فقط افتحي فمك على سعته ودعيني ألقي نظرة. انظري، قلت فاتحا يديَّ على سعتهما، لا شيء في

يديَّ. فقط افتحي فمك ودعيني أنظر.

ياله من رجل لطيف، قالت الأم. انظري كم هو رقيق معك. هيا، افعلي ما يطلبه منك. لن يؤلمك.

عند ذلك شددت على أسناني في امتعاض. لو أنهم فقط لم يستخدموا لفظة" يؤلم" لكان من الممكن أن أحرز تقدما ما. ولكن لم أسمح لنفسي بأن أتعجل أو أضطرب، وإنما عدت إلى التعامل مع الطفلة وأنا أخاطبها بهدوء وبطء.

بمجرد أن قدمت كرسيَّ مقتربا منها أكثر، امتدت يداها فجأة، مثلما تفعل القطة، واتجهت أصابعها غريزيا في وضع مخلبي نحو عينيَّ، وكادت أن تصل إليهما. في الواقع، أطارت نظارتي التي سقطت، دون أن تتكسر، على بعد بضعة أقدام على أرضية المطبخ.

كاد لأب والأم أن يتواريا داخلهما [1] بسبب الحرج والاعتذار. أيتها البنت السيئة، قالت الأم، وهي تقبض عليها وتهزها من ذراعها. انظري ماذا فعلت. الرجل اللطيف...

(1) الجملة الإنغليزية المستخدمة: almost turned themselves inside out...
وهي تعني: كادا أن يقلبا باطنهما ظاهرا. وقد فضلنا الترجمة أعلاه.

بالله عليك، انفجرتُ، لا تصفيني لها بالرجل اللطيف. أنا هنا من أجل أن أفحص حلقها لاحتمال أن تكون مصابة بالدفتيريا وقد يؤدي ذلك إلى وفاتها. ولكن هذا لم يعن لها شيئا. انظري إليَّ، قلت للطفلة، سننظر في حلقك. أنت من الكبر بحيث تفهمين ما أقول. هل ستفتحين الآن فمك بنفسك، أو نفتحه نحن لك.

ولا حركة. حتى ملامحها لم تتغير. لكن تنفسها أخذ يتسارع. ثم بدأت المعركة. كان علي أن أفعل ذلك. من الضروري أخذ عينة من حلقها من أجل حمايتها. ولكنني بدأت بإخبار الأبوين بأن هذا يعود إليهما وحدهما. أوضحت لهما الخطر، ولكنني قلت بأنني لن ألح على فحص الحلق إذا ما كانا سيتحملان مسؤولية ذلك.

إذا لم تفعلي ما يقوله الطبيب فستذهبين إلى المستشفى، وبختها الأم بحدة.

آهه؟، وجدتني أبتسم لنفسي. فلقد أحببت، رغم كل شيء، العفريتة الشرسة، بينما كان الأبوان يثيران امتعاضي. وفي ما تلا من صراع ازدادا، شيئا فشيئا، اتضاعا وخورا وإنهاكا، في حين تسنمت هي، بالتأكيد، ذرى الاهتياج الجنوني لتلك الطاقة المتولدة عن رعبها مني.

بذل الأب جهده، وكان رجلا جسيما، ولكن لكونها ابنته، وبسبب اختزائه من سلوكها وتجنبه إيذاءها، رفع عنها، في اللحظات الحرجة، يديه، في الوقت الذي كدت فيه أن أحرز نجاحا، الأمر الذي جعلني أرغب في قتله. لكن خشيته من أن تكون مصابة بالدفتيريا جعلته يطلب مني أن أستمر، أستمر رغم أنه هو نفسه يكاد أن يغمى عليه، في حين أخذت الأم تتحرك وراءنا أماما وخلفا، ترفع يديها وتخفضهما بذلك الكرب الذي يسببه الوجل.

ضعها في حجرك، أمرت، وامسكها من معصميها.

وبمجرد أن فعل ذلك أطلقت الطفلة صرخة. لا تفعل هذا، إنك تؤلمني. أطلق يديَّ. أطلق يديَّ أقول لك. ثم صرخت في هلع، في جنون. توقف! توقف! إنك تقتلني!

هل تعتقد أنها تستطيع تحمل ذلك، يا دكتور! قالت الأم.

اخرجي، قال الزوج لزوجته. هل تريدينها أن تموت من الدفتيريا ؟

هيا، أمسكها، قلت.

وأمسكت برأس الطفلة بيدي اليسرى محاولا إدخال اللسان

الخشبي بين أسنانها. قاومت، بالضغط على أسنانها، مقاومة المستميت! ولكنني أصبحت، أنا الآخر، حانقا عليها. حاولت أن أحافظ على توازني، إلا أنني لم أفلح. أعرف كيف أفتح الحلق للكشف. ولم أدخر جهدا. عندما دفعت، في النهاية، اللسان الخشبي خلف الأسنان وصارت مقدمته في تجويف الفم، استجابت للحظة، وقبل أن أتمكن من رؤية أي شيء، أغلقت فمها مجددا ممسكة باللسان الخشبي بين طواحينها محولة إياه إلى شظايا، قبل أن أتمكن من إخراجه ثانية.

ألا تخجلين، صرخت فيها الأم. ألا تخجلين من التصرف بهذا الشكل مع الطبيب؟

أعطيني أية ملعقة ملساء، قلت للأم. سنمضي في الأمر إلى نهايته. كان فم الطفلة ينزف. لسانها جرح وكانت تصيح في صرخات جنونية ضارية. ربما كان عليَّ أن أتوقف وأعود بعد ساعة أو أكثر. سيكون ذلك أفضل من غير شك. لكنني كنت قد رأيت طفلين، على الأقل، ممددين ميتين بسبب إهمال حالات مثل هذه، ولشعوري بأنه عليَّ أن أتوصل إلى التحليل الآن قبل انتفاء الحاجة إليه، استأنفت الأمر. ولكن أسوأ ما في المسألة أنني جاوزت، أنا الآخر، حدود العقل. كان يمكنني، وأنا في تلك

الحالة من الهوج، أن أمزق الطفلة وأستمتع بذلك. لقد وجدت في مهاجمتها متعة، كان يتوقد لها وجهي.

لا بد وأنه كان لدى العفريتة الصغيرة ما يحميها من بلاهتها، يقول المرء لنفسه في مثل هذه الحالات. الآخرون ينبغي أن يكون لديهم ما يحميهم منها هي. هذه ضرورة اجتماعية. وكل ذلك حقيقي. إلا أن هوجا أعمى وشعورا لديَّ، كرجل ناضج، بالخزي، متولدين عن رغبة ملحة في تفريغ توتر عضلي، كانا يوجهانني. على المرء أن يمضي إلى النهاية.

وفي هجمة شعواء فاصلة سيطرت على عنق الطفلة وفكها. أقحمت الملعقة الفضية الثقيلة خلف أسنانها وأنزلتها في حلقها حتى غُصت. وعندها تبين أن لوزتيها الاثنتين مغطاتان بغشاء. لقد صارعت في استماتة للحيلولة دوني ودون اكتشاف سرها. كانت تخفي ذلك الحلق الملتهب طيلة ثلاثة أيام على الأقل، وتكذب على والديها لتفادي موقف كهذا.

أصبحت الآن مهتاجة حقيقة. كانت قبلا في حالة دفاع، ولكنها تحولت إلى الهجوم الآن. حاولت انتزاع نفسها من حجر أبيها، لتنقض عليَّ ودموع الهزيمة تعمي عينيها.

* * * *

السلطان إبراهيم

إل. إ. ادجي. سترونغ (*)

فتش السلطان إبراهيم في الرمل مرتابا وهو يشق طريقه ببطء بزعنفتيه الواقعتين تحت خيشوميه. ضوء الشمس، المرتعش على عمق عشرين قدما تحت الماء ارتعاشات خضراء مرحة، أضاءه بوضوح، فبدا في أزهى صوره. كان محتاجا إلى ذلك، لأنه كان معروفا بكونه من أكثر أسماك البحر بشاعة. كان رأسه مسخا. أضخم منه عدة مرات، بخطمه المخروطي الطويل، وجبهته المنخفضة، وعينيه المتكونتين كي تنظرا إلى أعلى، وكان بشعا بما يكفي، حتى قبل أن يفتح فمه الواسع. بهذا استدق جسده بسرعة فصار مجرد ذيل سوطي، إلا أن ألوانه وزعنفتيه الطويلتين العريضتين هبت معا إلى تجميله. فقد كان أبيض البطن، منقطا، في توزيع رائع، على كامل ظهره وجانبيه بالبني والأخضر. ومن خيشوميه إلى ذيله، امتد، في الوسط تماما، خيط فضي، تتتابع فوقه نقط حمراء فاتحة، وكان نفس

(*) L. A. G. Strong (1896 – 1958) أديب و صحفي آيرلندي.

اللون يكسو زعنفتي ظهره طويلتي الأشواك، المنصوبتين في دقة شديدة لحفظ توازن بنيته التي تبتدىء بهذه الغرابة. شفته العليا المضحكة توحي، وهو يستشعر طريقه مائلا فمه بالرمل ليبصقه، بصورة ساخرة للإنسانية، مانحة إياه هيئة الذاهل، الأمر الذي يتنافى مع غرضه تنافيا شديدا.

فهو، في الواقع، كان يحاول اصطياد السرطانات الصغيرة التي تحفر في القاع رأسيا لتنطمر مخفية نفسها في الرمل. كانت هذه السرطانات الصغيرة تحب مرافقة بعضها، لذا إذا ما وجد واحدا منها فمن المرجح أنه سيجد جماعة، ولكنه ضرب في بقعة خالية. لم تكن هذه هي طريقته الوحيدة في العيش بأية وسيلة، فهو كان واحدا من أكثر الاسماك المقاتلة عزما وضراوة، ولكن هذا كان كل ما يمكنه التفكير فيه لحظتئذ.

عبر من فوقه ظل متهاديا بحجمه الضخم تحت الأشعة الخضراء المتقافزة. جثم منكمشا بفعل نوع من الفعل المنعكس، لأنه كان يدرك، غريزيا، بأن هذا لا يمكن أن يطاله. ابتعد الظل سريعا، فنسيه. غَرفة أخرى، وأخرى، وأخرى. كلها فارغة. عندها التقطت عيناه الموجودتان بأعلى رأسه، فجأة، منظر شيء، بدا أنه يستحق قدرا كبيرا من الاهتمام، لمعة فضية، بعيدة

فوق السطح. وبضربة قوية واحدة من ذيلـــه، نـــشرت ســـحابة صغيرة من الرمل المثار، وجد نفسه مسرعا خلفه.

أعلى، أعلى عند الخضرة المتلألئة الباهرة. سبح الـــشيء الوامض بسرعة، ولكن هو يمكنه أن يمضي أسرع. برز مـــن تحته، خلفه تماما و، دارسا هجومه بدقة، انقـــض إلـــى الأمـــام وقبض عليه بفكيه.

عندها نشب داخل فمه شيء ما جارًّا إياه دون أن يتمكن من مقاومته. حاول يائسا، وقد شلته المفاجأة عن الصراع، أن يفتح فمه ليتيح لهذا الشيء الخروج، ولكنه كان يقبض عليه من كلا الفكين. إلا أن الجذب الرتيب الثابت، أخلى المكان، فجأة، لنوع آخر مـــن الجذب ميز، بكل عضلة فيه، شدا عنفوانيا من قبل عدو.

بعدها انتبه السلطان إبراهيم وجذب، كالمقاتـــل، بأقـــصى قوته. كان كفؤا لقوة غاشمة، فأذهلها وهو يخضها ويميلها جاذبا إياها بكامل جهده ليزحزح هذا الشيء اللعين القابض على فكيه. تراخى الشد للحظة أو اثنتين، ولم يدر بأنه كان يهدد بإمـــساك خيط آخر من القارب لو لم يتم سحبه من أمامه بسرعة. لم ير، وهو يدير عينيه، سوى الجسد البراق لفريسته المفترضة يومض في سخرية قرب أنفه. ثم ابتدأ الشد مجددا، والظل الذي مر من

فوق رأسه، انزلق مترنحا ليواجهه، وقد ازداد تضخما وسوادا، إلى أن ملأ سماءه. وبآخر ما تبقى له من عزم غاص إلى القاع الرملي الذي جاء منه.

ـ اللعنة على كل شيء. لقد اختفى تحت القارب.

ـ كان ينبغي أن تحافظ على الشد طوال الوقت.

ـ كنت سأفعل لو أنك أبقيت خيطك بعيدا عن الضوء.

جاء صوت ثالث مصالحا:

ـ ما هو. السلطان إبراهيم؟

ـ لا أستطيع رؤيته. ها هو، اصعد، أيها المتوحش. أي والله، وبالغ الضخامة أيضا.

صعد السلطان إبراهيم إلى السطح ناثرا المياه وموجهـا ضربة مباشرة للقارب. وهو يضرب قاعدة القارب الخشبية، قام برفع ظهره مقوسا جسده في نصف دائرة متين. اقتربت، في تحوط وبسرعة البرق، يد من الموضع الذي كان ملتفا فيه على نفسه، بحذاء بطنه، وأسرعت مبتعدة في التواءة محسوبة ومتبجحة. كانت تلك الحركة تبدو له، بسبب وضعه العمودي، محاولة للسباحة أكثر منها ضربات سمكة أخرى.

- انتبه، سيشابك الخيط. دعني أدفعه بحذائي. احذر أشواكه.

- حادة، أهْ

- وسامة. أَمِلْه إلى ناحية.

تجدد الشد في فكه، مهزهزا إياه ليميله إلى أحد جانبيه، وألصقه حذاء ثقيل إلى الخشب.

- أجل، هكذا أفضل. هل تسمعه يتكلم؟

صدر عن السلطان إبراهيم صوت نقيق غريب شديد الهدوء والجفاف إلى درجة لا يمكن معها أن يكون تعبيرا عن ألم. ومع ذلك فقد كان هذا ألما، أول احتجاج لخيشوميه على شدة ضغط الهواء.

- يا إلهي. لقد علق تماما. لا خشية من أن يفر هذا الصنديد.

ثم تلت فترة من شق فمه وتمزيقه. أجبر السلطان إبراهيم على أن يظل ساكنا، تتخذ نهاية ذيله قوسا صلبا، تفرقع شفتاه الطويلتان في مقاومة باسلة. في النهاية انزاح المثقاب، وارتفع الحذاء الذي كان يثبته، فنق في صوت أجش، مستأنفا الزحف على زعنفتيه.

ما من شك في أن عنقه قد كسر. إنه شديد القوة

والخطورة، ولكن آسريه بذلوا ما في وسعهم لتجنيبه الألم. فالضربة التي حلت بمؤخر رأسه لم تقتله، ولكنها عطلت حركته، وتضافرت مع وضعه العمودي لتضفي على نهايته مسحة مهيبة من الكرامة. الحركات التي استطاع القيام بها بعد ذلك بدت واهنة ومستسلمة. وبدلا من القتال المهلك الذي كان سيخوضه، لو أتيح له، ملأ سكونُه وكربه ووجهه نصف البشري واحدا، على الأقل، من آسريه بعواطف غريبة. فمن بين الاسماك الأخرى في القارب، المنطرحة على جوانبها جامدة، أو ترتعش بسكرات الموت الأخيرة، ظل السلطان إبراهيم مرتكزا على زعنفتيه، رافعا رأسه الضخم إلى الخلف كالجرف. وخلال الحلم الخانق الغائم الذي انتهت فيه حياته لم يقم بأي شيء يلطخ به القتال المجيد الذي خاضه، أو الحركات المقصودة التي تعارضت على نحو غريب مع ضربات الآخرين التي كانت ردة فعل للرعب. لم تعتره حالة اهتياج. ومع انعدام حركته، فيما خلا شهيقا بطيئا من خيشوميه، أحيانا، ظلت أشواكه منتصبة في شمم، وزعنفتاه الجانبيتان منشورتين، لم تكن هيئته تخلو من أنفة - أرستقراطيا، هكذا بدا، حتى بين أسماك الإسقمري وكلاب البحر الرمادية.

لكنه لم يبق على هذه الحال طويلا. غمقت ألوانه ورانت

غلالة معتمة على جانبيه المتلألئين. أخـذت أشـواك ظهـره ترتخي. انفتح خيشوماه على سعتهما ببطء، اختنقا، سكنا لثوان، ثم تقلصا، وبدا رأسه، مع تلك الحركة، كما لـو أنـه انكمـش ونحل، وصار وضيعا وبائسا. دقيقة أخرى وانطرحت أشواكه. ثم، وفي آخر رسالة لدماغه المتهامد، في آخر محاولة واهنـة للفرار، اتضع إلى مستوى سمكة خرقاء فظـة تقـوم بإيمـاءة ضعيفة وفاتنة يمكن لأي كائن القيام بها. زعنفتاه الممدودتان إلى جانبيه انفتحتا في بهاء كمراوح نسوية، أنجزتا توقيعتهما البطيئة المرفرفة وعادتا لترتاحا إلى جانبيه. ظل منتصبا لمـدة دقيقـة أخرى تقريبا. ثم حول صيد جديد الانتباه عنه، ولما نظر إليـه آسروه، فيما بعد، انقلب السلطان إبراهيم على جنبه، مهزوما.

* * * *

الأبَــرَجْـنـيـــون [1]

هِلِن لوكَيَر

شرطة النجدة الأبرجنية

شرطي النجدة رقم 13. مكانة اجتماعية. وضع أستطيع فيه الشعور بالفخر بكينونتي. عمل. عمل مرتفع الأجر. لقد ابتعدت كثيرا عن أيام مزرعة المواشي. مكانة يمكنني من خلالها رؤية أسرتي في السراء والضراء. وضع يشعرني بالاعتزاز بنفسي. ويشعرني، أيضا، بالمعرة من دوري. وضع متناقض. وضع بين الأسود والأبيض. وضع لا يرغب أحد أن يكون فيه. جوزة هند. بنية من الخارج ولكنها بيضاء من الداخل. يطلق هذا النعت من قبل جانبي الحاجز. ألم يدركوا بأنني قد وضعت هنا من أجل تقديم العون؟ لأعالج وأحل مشاكل ناسي. المشاكل المتعلقة بالتلاؤم مع عالم الناس البيض. لا ينظر إلى مكانتي كمكانة جيدة من قبل الجميع. ليس بإمكاني سوى المحاولة وتأدية وظيفتي.

(1) aborigines أو aboriginals (وهو الأكثر استعمالا) سكان قارة أستراليا الأصليون، ويتميزون بسواد البشرة. العنوان الأصلي لمجموعة النصوص: defiant متحدٍ.

ما خطب الاسم ؟

كان زمنا صعبا. كان أصحاب مزرعة المواشـــي قـساة بأكثر من طريقة، حين يتعلق الأمر بالأبرجنيين. كان العمـال الأبرجنيون تحت السيطرة التامة. كانت تسمية الأطفال مـسألة يتولاها أصحاب المزرعة، ليضفوا على الأبرجنيين مسحة مـن الهوية الأوروبية. سايدر! شِري! آدامز! جوني ووكر!

هوية ذات صلة بالكحول. طريقة قاسية لتسمية الكائنات- البشرية.

ضحية سياسة الحكومة

كانت روحا مستوحدة. امرأة حرمت من أطفالها الخمسة. ليس لهؤلاء الناس أي حق لعين في إبعاد أطفالها. هل كان خطأ منها أنها أنجبت أطفالا ببشرة وضاءة؟ هم من لحمهـا ودمهـا. فكيف لهؤلاء أن يأخذوهم بعيـدا؟ دون أي اعتبـار لهـا. دون اعتبار لما ستكابده. أية مشيئة أعطتهم حق التدخل في حياتهـا؟ كان يمكنها أن تتدبر أمرها بمفردها. هناك أسرة على اسـتعداد لمساعدتها. كيف سيرضى هؤلاء الناس إذا ما سرق أطفالهم وتم الفرار بهم بعيدا وهم منشغلون بالداخل؟ سيتقافزون فوقا وتحتـا

صارخين من فوق أعالي السطوح من الظلم. الأبرجنيون لا يمكنهم فعل ذلك. لا صوت لهم كي يصرخوا مستغيثين. لقد كانوا ضحايا المجتمع الأبيض الذي فرض نفسه عليهم. ضحايا سياسة الحكومة. أناس الحكومة الذين يعتقدون بأنهم يدركون ما هي احتياجات الأبرجنيين. هل بإمكانهم أن يدركوا ما سينشأ عن ذلك من أسى بالغ؟ الأبرجنيون كافة في البلاد بكاملها لا يعرفون من هم. الأمهات الأبرجنيات في البلاد بكاملها لا يعرفن أين أطفالهن. البعض منهم عاد وبحث عن جذوره. آخرون لم يكونوا على هذا القدر من الحظ. لقد تركت لتأسى على فقدها أطفالها. ماتت قبل ان تتم إعادتهم.

أم أبرجنية شابة

لم تكن تتجاوز الرابعة والعشرين حين جاءت لتقيم معنا. امرأة شابة وصلت، فجأة، متعثرة مع خمسة ربائب صغار. لم تكن تعرف كيف تتعامل معنا. طفلها الوحيد مات في حادث غريب. تدحرج شريكها فوق الرضيع سهوا وهما نائمان، فأخمد أنفاسه. لا يمكن توجيه اللوم إلى أحد بسبب ذلك. فهو مجرد حادث آخر. لم يعد جسدها مستعدا للحمل من جديد. ربما لأنه صار يدرك جيدا خطورة الأمومة. بسبب كثرة متاعبها لم يمكنا

تقديم الكثير. كان الأمر مختلفا مع صغار آخرين لعلها كانت تعرفهم. صغار البلدة يختلفون عن الصغار الطارئين. تلك ضرورة حياتية تتنامى في بلدة ريفية صغيرة. ورغم أننا أبرجنيين نحن أيضا، إلا أنها كانت مختلفة عنا. فنقاء دمها كان يميزها عنا، يميزنا عنها أيضا. لم نكن في مستوى مواصفات [الإنسان] الأبرجني. كنا غرباء عن المشهد. لسنا سودا تماما ولا بيضا تماما. لم نكن متناغمين.

نشاز مقبول [1]

كان مختلفا. دم نقي مع قطرة[دم] أفغاني. [الدم] الأفغاني جاء من جده الذي كان جمالا في مناطق الغابات. كان جانبه الأفغاني ناشزا. إنها مجرد واقعة حياتية أخرى. فلقد قبل من أترابه كأبرجني. لذا، فهو أبرجني.

مسؤولية

هي معقل الأسرة. وبما أنها أصغر الخمسة فقد بدا من الظلم وضع هذا القدر من العبء على كاهليها الغضين. فهي أيضا لها حياة ينبغي أن تعيشها. أسرة تتلاءم مع متطلباتها.

(1) بدون عنوان في الأصل.

القيام بالأعمال البيتية اليومية كاف، بالنسبة لسن أربع سنوات. يرن الهاتف. تنظر نحوه بعصبية، غير راغبة في لمسه. لعل ذلك قد حدث. ربما كانت هذه هي المكالمة الهاتفية التي ستقلب باطن حياتها ظاهرا. تسير نحو الهاتف وهي تشعل سيغارة. ارتياح. لم يكونوا هم.

الرجل الوحيد

هو وحيد. كان دائما كذلك، وكذلك دائما سيظل. شخصا فردا. لا يرغب في التواصل كثيرا على الإطلاق. وفي الواقع كان رقمه بلا [بِدون]. لا يرغب في أن يعرف الناس عن تحركاته الشيء الكثير. السبب الرئيسي لعيشه في الريف البعيد هو تجنب حملقة الناس. بعيدا عن عجيج المدينة. ذات يوم أصبحت الأشياء كثيرة عليه، فحزم أمتعته وغادر. لم يُطلع كثيرين على خططه. فقط نهض وغادر في غضون ساعات. إنه ابن آدم من نوع غريب. تعود على قضاء معظم وقته يمسد لحيته وهو يتخطاك بنظره. إذا ما حاولت افتعال محادثة فيسظل جامدا وصامتا. رجال عديدون يهزون رؤوسهم ويمضون. كانوا يضيعون وقتهم. أظنه كان يشعر بأنهم يضيعون وقته هو الآخر. حياته ووقته شأنه هو. خصوصيان. شديدا الخصوصية بحيث

تنتفي فيهما الشراكة ويمنع الحديث بشأنهما.

متحدٍ

كان شخصا يحب مخالفة المعتاد. دائما يفعل أو يقول شيئا خطأ. يغضب أصدقاءه بعدم تسديد ما هو مدين به لهم. يغضب الغرباء، فتتورم عيناه. يغضب أفراد الشرطة بتجروئه على النظر إليهم في عيونهم مباشرة! روح حرة حقيقية. له من العمر ما يجعل منه صاحب خبرة. له من المهارات ما يستثير تفكير كل أحد. يحب اللعب مع عقلك. أحيانا يأخذ الحديث انعطافات عديدة حتى تصبح مشوشا إزاء كلماتك أنت نفسك. يستمد بهجة خاصة من مقدرته على فعل ذلك. عيناه بركتان سودوان. تخترقانك، وتستفزانك لتتحداه.

الحياة في بلدة ريفية صغيرة، في أي مكان من أستراليا

آه ! يوم المعاش التقاعدي. أفضل أيام الأسبوع. اليوم الذي يمكنك فيه الذهاب إلى وسط البلدة. تختلط بأناس المدينة الآخرين. قد تغنم بضعة كؤوس من شخص ما تحصل على صكه. أنا، لا أتحصل على ذلك. قطيع الضمان الاجتماعي أسقطوا اسمي لأنني كنت أخدعهم. نوع ما من خداع النظام.

كيف يمكن للسود أن يدركوا أنهم يخدعون النظام؟ لهم نظامهم، ولنا نظامنا. ماذا عن النظام الذي كان لنا لعدة سنوات؟ لم يعد ذا قيمة ؟ أحيانا تأتي أسرتي إلى هنا. لن أدع العالم اللعين يعلم ما يجري داخل أسرتي. شؤوني تعنيني وحدي. خصوصية. ما الذي يريدون مني معرفته. أنا لا أهتم بما يفعلونه بحياتهم. ما لديهم ببيوتهم هو شأنهم. فلماذا لا يدعونني وشأني؟ على أية حال، هذه الكلمات البسيطة لن تغير أي شيء. لقد أسقطوا اسمي وعليَّ الآن أن أعيش على أفضل نحو أستطيعه. سأبحث عن قريب ليقرضني. دائما يأتي أحد بشيء لي. سأتجاوزه!

صديق

أنا خائف. وحيد. لا أعرف ما سيأتي به الظلام. سمعت قصصا عن أناس لم يحتملوا الليل. ثوان، دقائق، ساعات تنقضي. افتقدت الإحساس بالوقت. فليأت إليَّ أحد، رجاء. سبب فعلي هذا هو: " الأصدقاء ". هم جعلوني أفعل هذا. الآن أنا هو الذي هنا. أنا هو من سيتصدى لهم جميعا. أولئك الذين لم يقفوا إلى جانبي حين كان ذلك ممكنا. إنهم جبناء. هم أصدقائي. لو فقط أستطيع إعادة ساعات هذه الليلة إلى الوراء. ما كنت لأكون أنا هو الذي هنا. سيكون واحدا منهم. واحد منهم سيؤدي عقوبة

السجن نيابة عن أصدقائي.

ضحية العنصرية

استيقظت في المستشفى. أنا محظوظ لكوني قد استيقظت أساسا. شخص آخر أسود مثلي لم يقيض له أن يستيقظ. لويس جونسون. كان يتنزه بمناسبة عيد ميلاده. أنا كنت أستوقف السيارات كي أذهب إلى البلدة المجاورة لحضور عيد ميلاد ابنتي. لم أتمكن من حضور الاحتفال. أعترف أنني كنت سكرانَ حينها. قنينة JD بيدي. على كل، ذلك ليس مهما. القصد من هذه القصة هو جعلكم تعرفون إحدى قصصنا، نحن الأبرجنيين، المسكوت عنها. لأن أحدهم لم يعجبه لون بشرتي اعتقدوا أنه يمكنهم معاملتي على هواهم. قرروا الانحراف إلى جانب الطريق حيث كنت أجلس. استيقظت في المستشفى وقيل لي بأنني أُرسلت إلى بيرث. أنا موجود هنا في المدينة منذ وقت. هذا المكان يسمى شنتون بارك. إعادة تأهيل، مثلما يسمونه. لا أعرف متى يمكنني العودة إلى موطني نهائيا. آمل أن يكون ذلك قريبا. صرت مصابا بمرض الحنين إلى الموطن. ضجرت من الاستلقاء هنا. أريد العودة إلى عملي. [البحث عن] طريقة أشكر بها شخصا لاهتمامه بي تلك الليلة. أحدهم من الجانب

الآخر كان يراقب. كنت أفضل حظا من لويس. أخذوا حياته. أنا، أخذوا فقط رجلي.

يوشك على الانتهاء

" مرحبا، ماذا تفعلين هنا؟" سأل بصوت قلق.

كانت متوترة، لعلمها بأنه سيسبب لها شيئا من الإرباك.

" جئت إلى هنا من أجل الاطمئنان عليك فقط." أجابت.

" لِمَ، هل فكرت بأن الرجل يحتضر حتى تأتي كل هذه المسافة؟" سأل.

كانت تعلم بأنه سيشعر بهذا إزاء مجيئها. كان عليها التفكير في رد سريع. " لا. ليس من أجلك فقط. جئت كل هذه المسافة للذهاب إلى صيد السمك. وبمناسبة وجودي هنا فكرت بأن أستطلع حالتك."

نظر إلى وجه ابنته الأخرى. سرعان ما أعلنت له براءتها من هذه الخطة.

" لا تنظر إليَّ. قلت لها بأنك بحالة جيدة، ولكنها أصرت على القدوم."

عادت عيناه للتركيز على المرأة التي بقرب سريره.

" أين الصغار إذن؟"

أجابت :

" اضطررت إلى عدم إحضارهم بسبب المدرسة. سأحضرهم في فترة أعياد الميلاد ليروك."

" حسنا. هذا حسن. سأراهم حينها إذن."

أغمض عينيه. لن تتحصلا منه على المزيد من الكلام اليوم. صوت جهاز مراقبة القلب ذكرهما بخطورة حالته. ليس ثمة ما تفعلانه سوى انتظار ما سيتكشف عنه الوضع. الأمر متروك له إذا ما أراد أن يعيش. نظرتا إلى بعضهما وأدركتا تلقائيا أنهما ينبغي أن تذهبا. حسبهما بأنه يرغب في أن يستريح الآن. في الممر كانت الممرضة المسؤولة عن القسم تتفحص بعض التخطيطات. ابتسمت ابتسامة تعاطف حين مرتا بها. عندما وصلتا إلى السيارة كانتا صامتتين. أرادت إحداهما البكاء، ولكنها أدركت أنه لا ينبغي لها ذلك. قرأت الصغرى صمت أختها.

" لا بأس. كل ما علينا هو انتظار ما سيأتي به الصباح."

قالت مطمئنة،" أنا متأكدة بأنه سينجو"

" اممم" كان كل ما تحصلت عليه من إجابة.

" تعرفين طبعه. كان ذلك مجرد واجهة. تلك هي طريقته. أنا متأكدة من أنه كان سعيدا برؤيتك، يا أختي. سنعود لنراه غدا."

كلتاهما فكرتا في الغد. هل سيكون هناك حين تعودان؟

* * * *

رؤى وإيقاعات [1]

سنِهال فادهِر (*)

حورية الشعر

كانت العربة تسرع على المسرب الضيق ساحقة الأوراق الجافة الهشة، الواقعة في مسارها.

كان مارك يعتمر قبعة مستديرة سوداء، وكان يحمل، كما هي العادة، قطعة زجاجية مربعة بالغة الشفافية، ذات حواف سميكة رسم عليها خط ذهبي بمثابة إطار. داوم على النظر، عبر هذه القطعة، إلى الطريق والخضرة التي تتقارب وراءه خفيضة بعد أن تجتازها العربة، وكان يستقبل كل ما يقع عليه نظره من خلال قطعة الزجاج هذه. كان مارك يخربش بيسراه شيئا حول كل ما يراه عبر ذلك الزجاج الذي كان يقبض عليه بيمناه بقوة. كان أحيانا يكتب، مسبقا ومن أجل الحفاظ على الإيقاع، سطرا ما يلبث، للحظة، أن يجد نفسه مضطرا للنظر

---

(1) العنوان من وضع المترجم، والقصص في الأصل منشورة متفرقة.

(*) Snehal Vadher أديب هندي.

إليه عبر الزجاج. على سبيل المثال:

الأخضر

الفوار، الأحمر القاني اليانع،

والأصفر

المتهلل. كيف يأتون ويذهبون:

كمنازل

القمر،

كصديق

حقيقي، عدو حقيقي.

غنى الحوذي، بلغته، ألحانا بدت لمارك شديدة التداخل مع خواطره الشعرية التي لم يكن لديه شك في أن قوة ما شريرة، أو ساحرة بالأحرى، تكمن خلفها. لم يكن ممكنا لمارك، طوال الرحلة، رؤية وجه الحوذي. أدرك مارك أنه شبح. ليس شبحا بالمعنى الحرفي، ولكنه شبح بالنسبة إلى الدنيا، بالنسبة إلى الجياد، بالنسبة إلى مارك نفسه، وبالنسبة لكل شيء يمكن أن يرتبط به الناس مثلما يفعل البشر البسطاء العاديون. وهكذا تَفَاجأ مارك من أن للحوذي لغة خاصة، تخصه هو فقط. لغة تترجع

فيها أصداء اللغات البشرية كافة، تناغم جملة مـن التهويـدات، توافق مكابح القطارات مع صافراتها، سلاسة الميـاه، وكسل طائر عديم القدرة على الطيران. كان الحوذي يتبدى، من خلال الزجاج، تمثلا لما حوله: شعره عشب قـصير، ظهـره لحـاء مخملي، وفرعان سميكان، بديا كما لو أنهما مثبتان على وجـه الطريق، يمثلان ساقيه المنتهيتين بفردتي حذاء تمثلان الأوراق الجافة المتحركة. نسي مارك، نسيانا تاما، المكان الذي يقـصده والمكان الذي غادره. في الواقع نسي كل شيء عن نفسه. شعر كما لو أنه يغرق ويريد التشبث بشيء صـلب وقـاس وبـالغ التحديد، إزاء عجزه التام في هذه الدنيا دائمة التحـول. صـار غناء الحوذي الآن يشبه تصويت الحيتان. مـد يـسراه تجـاه الحوذي كما لو أن تلك الحركة إيماءة شخص يغرق ويناشد أن ينتشل.

استدار الحوذي ونظر إلى مارك في وجهه مباشرة. لـم يتمكن مارك من تبين أي شكل أو هيئة، ولا أي لون أو ظل. إلا أنه كان ثمة وجه وكان كالماء. كماء بارد ينحدر عبـر حلـق رجل يعاني جفافا. تناول الحوذي قطعة الزجاج من يد مـارك وجذبه خارج العربة.

كفت الدنيا عن الدوران تدريجيا. كانت الجياد ترعى بهدوء. اكتسى وجه مارك بالعرق، لكن الريح جففته وبردته. أخذ الحوذي الآن يخاطب، بلغته العذبة، مارك مباشرة بشيء ما، إلا أنه بدا على مارك كما لو أنه يستمع إلى شخص ما في الحلم. طافت سحابات وردية. جلس مارك تحت شجرة - شجرة لا تشبه أية شجرة رآها من قبل - وحاول تذكر ماضيه. كف عقله عن الامتثال لمفهوم الزمن. ما من خواطر تتبجس بذهنه. كان ذهنه كما لو أنه منظومة تصريف مياه هائلة فرغت مياهها. لم تكن مسدودة، ولكنها فارغة. فقط إيقاع خفيض يتردد في ذهنه خافتا، وكان يدرك أنه إيقاع الغناء الذي كان الحوذي يغنيه طوال الوقت، لكنه لا يتمكن من إيجاد كلماته.

نافذة

(1)

يمكن القول بأنه نما قرب النافذة كنبتة: معتمدا على ضوء الشمس الذهبي العفي المنعكس الآن على وجهه جاعلا إياه يبدو كالبرونز. وكحياة نبتة ضئيلة عديمة الأهمية متجاهلة من الجميع، كذلك كانت حياته. الغرفة التي كانت الشمس تغني فيها أغنيتها الذهبية كانت مطلية بلون أصفر كامد، لذا كانت محتاجة إلى لون

ذهبي وهاج كان متعودا عليه كما يتعود المرء على عادات أخيه. كان يمكنه أن يرى، في وقت متأخر من الليل، ظلال كائنات خفية مجهولة وأشباحٍ تتصافح أو، فقط، يعبر أحدها الآخر. تظل الكلاب منغمرة في ممارساتها الجماعية. ولكن الآن، اليوم، وبمجرد أن نهض، مبكرا إلى حد ما، وفتح أجفانه وأخذ نفسا عميقا مدد رئتيه، بحيث اتخذتا حجم ملعب تنس، اكتشف أنه في هذا الملعب تتواجد جميع الأشياء الحية والجامدة التي تُجَمِّل الوجه المادي لهذا الملعب: الأزهار في الأسفل بكامل تفتحها، عبق رحيقها، الرائحة الخافتة للأرض المخضلة، رائحة المخلفات العضوية للمدينة قادمة من بعيد منشحنة في سحب من دخان وضباب. بعدها ينغلق منخاراه بعد أن يكونا قد أوقعا، دون إحداث أذى، روض الكائنات الحية والجامدة في شركيهما. ولكن الآن، اليوم، وهو يقف إلى جانب النافذة، كانت عيناه تترددان في التقاط الصورة، ولم تتردد النافذة، التي ستكون، بعد ساعات قليلة، منفغرة على سماء صاحية، كما لو أنها تجمدت في صرخة جراء رعب تشهده. ولكن فيما بعد، غدا، أو بعد غد، ومع سيل الأيام التي لا تحصى، سوف تكون هذه الغرفة مفروشة بالريش والأوراق والأحجار المقذوفة من قبل لصوص قصد معرفة ما إذا كان ثمة أحد يشغل البيت، إضافة إلى طن من الغبار يعلو كل هذا.

(2)

لهذه النبتة، على خلاف سواها من جنسها، أزهار تتفتح في الشتاء. وكان دائم التعجب من ذلك. أجل، يتعجب من ذلك ومن لا مبالاة الأشجار. كانت النوافذ تظل ثابتة دائما في وجه أعتى الرياح. إنها تعكس مزاجه. كان يستمتع، من خلال المنظر الثابت الذي تتيحه النافذة والذي يبدو كما لو كان منظورا إليه من جهة المنظار غير المخصصة للنظر، بهذا المشهد المصغر للحياة في تنوعها. لم يعلم أحد بأنه كان كفيفا. لقد حدث ذلك في وقت مبكر جدا من حياته، حتى هذا الوقت الذي أخذت فيه عينه الثالثة وضعها. ودائما كانت هناك النافذة. عينه الفعلية الوحيدة. ولكن هل سيكون أمرا مهما، له أو لأي إنسان سواه، عندما يهوي، فيما بعد، من قصيدته الصامتة ذات الطوابق الستة دون أن يلتمع أمامه شيء من حياته. يبدو أن كل الذكريات قد محيت تلقائيا. وحدها تلك الأشياء الضئيلة النفيسة في ملعب التنس: الأزهار، الفراشات، عبق الرحيق، عبير الأرض الرطبة، ورائحة المدينة، كلها تحررت متوزعة في كافة الأنحاء مثلما تفعل الطيور المصادة حين تحرر من أشراكها. كيف بصق، فعلا، على الأرض الباردة. كيف أنه لم يحتضن المشهد الذي كانت نافذته المتكرسة له تهبه له يوميا؟ تلك الحياة العبثية التي

كانت في انتظار أن يحياها، كم بدت له نائية، ولا مبالية. أجل، لا مبالية كما الأشجار.

بشرة فضية، عليها قمر

ثمة وافر من الوقت في هذه الدنيا لأن تجلس على كراس مجدولة من أغصان الشجر في قيلولة لا طير فيها، مليئة بالضجر وساكنة، وأن تستمع إلى عزف كئيب لبيانو في ذهنك، وتتململ وتتغير وضعك، وتنظر. النوافذ إثم مغو، تشي بالضوء وهسهسات الجسد الناعمة، تفيض بأغنيات السوائل. وهكذا تجلس امرأة منتظرة: وثيرة كالسرير، وأكثر بياضا من الشراشف. أتفحص، من خلال نافذتها المضلعة، ألقها السري. تفغر، عبر نوافذها العديدة، فاها في وجه الألق. الوقت أكثر الرخويات استعصاء على التصنيف. إيقاع يدها يتوافق مع إيقاع يدي. الهواء الساكن يُرجِّع وشوشة البشرة. الهواء الساكن يضج بصخب أوردتها. همساتي، همساتي الخافتة لها تُخفق في اختراق نشوتي. غمغماتي، غمغماتي الخفيضة تفشل في إثارة أدنى حركة لديها. تتألق في شبكيتي متوهجة بقوة كأنها نجم الشِّعْرى اليمانية. شبكيتي تَعْشى بسبب هذا الفيض من الصور. في قيلولة لا طير فيها وساكنة، كهذه، تحدق في النسيان.

وأحدق، أنا بدوري، في هاويتها الحميمة، محاولا تبين وفصل نعيمي عن نعيمها. ثم أكتشف ما كانت تنظر إليه. وهي تحدق بالوهج الضاري في عينيها، كانت عيناها حرية خلابة: عيناها مدخل فاتن إلى غرفتي. ثمة مرآة أمامها، مائلة ونقية، وأنا في المرآة عار كالبلاط، يدي تضبط إيقاعها مع إيقاع يدها. يدي تضبط إيقاعها مع إيقاع صورة اليد في المرآة، والصورة أكثر تألقا من البلاط. وهكذا يصل الإيقاع ذروته سريعا، تصعيد، وإذا بنا قد تم تجاوزنا. نتنفس في غمغمات يُرخيها النبيذ، نتنفس في همسات من نبيذ. وإذن فثمة، حقا، وقت يستقر ساكنا فوق كرسي مجدول من الأغصان يتكيء على كآبة القيلولة. تتراجع يديَّ ببطء عن جسدها الشهي الواقع فيما وراء النسيان. تستعيد، بحزن، يدها من الصورة الزاهية في مرآتها. ثم نُوَقِّع خطوة أو اثنتين في أعقاب القيلولة المتلكئة، بكرز مبارك في معدتينا وخشخاش في فمينا.

* * * *

بــــرد

بيشان لي (*)

اسمي ريلى Raleigh وليست لي معه مشكلة. الناس يعتقدون أنه قد تكون لي معه مشكلة. يسألونني لماذا سميت على اسم نوع من الدراجات، ولماذا لم أسمَّ اسما عاديا كالآخرين. فأرد عليهم بأن بابا يقول بأن ريلى يعطي إيقاع اسم صيني وأنه يبدو طريفا حين ينطق على نحو ساخر. اسمي الصيني يعني متألق وشجاع وهو ما يضحكني أحيانا ولكنني أظن أنه اسم ملائم حتى لفتاة. لا أخوة أو أخوات لي، أنا الابنة الوحيدة ولذا فإن أبويَّ يتوقعان مني الكثير. لدى الصينيين اعتقاد بأنه يمكنهم تغيير الدنيا من خلال الاسماء، إنهم يعتقدون أن الأمور ستكون مختلفة فيما لو أن لاسمك معنى خاصا. أفضل اسمي الأمريكي لأن بابا أخبرني أنه من نورث كارولاينا حيث يوجد الآن. قال بأن ريلي مدينة ذات أهمية بها جامعة محترمة. سماني باسمي الأمريكي عندما كنت أنا وأمي مازلنا في تايوان وكان هو في أمريكا. قال، اهتمي بدروسك في اللغة

(*) Yishane Lee (؟) والعنوان الأصلي للقصة: Raleigh.

الإنغليزية، تعلمي ممارستها. لذا اجتهدت في دراستي وأخذت أدعو ماما مَمْ (mom) وبابا داد (dad). ولكننا حاليا في شيكاغو مع العمة بتي والعم وِن وأعتقد أن شيكاغو ترضع. تلك أول كلمة نابية تعلمتها في أمريكا.

ندعو العمة بتي العمة بتي لأن هذا هو ما اعتاده الصينيون، فالمعارِف ينادوْن عمة وعم حتى لو لم يكونوا من نفس العائلة، وحتى مجيئي هنا كنت أعتقد أن هذا هو ما يفعله الجميع. لابنة خالة مم زميلة من أيام الدراسة صديقة للعمة بتي وتسكن معها في نفس الشارع في نانتو، ولهذا السبب نحن في شيكاغو. قالت العمة بتي لمم، تستطيع ريلى الذهاب إلى المدرسة التي تذهب إليها إيمي. إيمي هي ابنتها، هي أكبر مني بسنة ولها العديد من الأصدقاء من الجنسين، ليس من بينهم صينيون. لإيمي شعر قصير وتضع عدسات لاصقة سوداء ولا تتحدث بالصينية أو تتكلم معي مطلقا. كانت لها غرفتها الخاصة وحمامها الخاص ببيت العمة بتي والعم ون الكبير. نعيش أنا ومم في غرفة واحدة بالطابق العلوي. حجم هذه الغرفة هو نفس حجم تلك التي كنا نعيش فيها أنا وبابا ومم وخالتي وابنها معا في تايوان. تداوم مم على القول لي دائما بالصينية، انتبهي، لا تنسي أنه لن يكون لنا بيت كبير في كارولاينا. ثم تضيف،

بالصينية، لأن بابا مازال يبحث عن وظيفة جيدة. على الرغم من أن إنغليزيتها لم تكن شديدة السوء فإنها كانت دائما تخاطبني بالصينية حين تريد مني أن أصغي إليها. وكنت أقول بالإنغليزية، مم إنها نورث كارولاينا، لماذا تنسين ذلك. أحيانا أتكلم بسرعة فلا تتمكن من الفهم جيدا وهو ما يثير حنقها، ولكنني أقول لها الآن ببطء، تذكري أن بابا قال في آخر رسالة كتبها لنا أننا سوف نعيش في بيت حتى ولو أنه الآن يعيش في غرفة كغرفتنا. تقول مم، أنت دائما تصدقين ما يقوله بابا. أعتقد: أجل، إنه بابا، لم لا. لكن الرسائل توقفت ومم تتهيب من استعمال هاتف العمة بتي للاتصال بنورث كارولاينا، ولا تتركني أستخدمه لأنها تخشى من أن أكون ثرثارة مثل إيمي.

مدرسة إيمي كبيرة، ودائما أتوه فيها بقدر ما حتى الآن. كثير من الاسماء تبدو لي متماثلة مثل جِني Jenny وجاني Janie وجوني Johnny. في المدرسة إيمي لا تكلمني مطلقا. أراها بين أصدقائها ولا تراني كما لو أنني لست هناك. لعلها غاضبة من كوننا في بيتها وأنني لست من عائلتها وأنني لست أمريكية كالآخرين. لذا أتظاهر أنا الأخرى بأنني لا أعرفها. بعد المدرسة لا تذهب إيمي إلى البيت. وإنما تذهب في سيارة إلى جهة ما وأستقل أنا الحافلة دائما وأتمشى. أحيانا يراني الصبية اللاعبون

في الخارج فيأتون ويسيرون إلى جانبي محاولين التحدث إلـــيَّ. رالي Rally رالي تستطيعين التحدث بالإنكليزية، أليس كذلك، لا تستطيعين التحدث بالإنغليزية ولا تعرفين سوى الـــصينية، ثـــم يرددون في صوت ساخر تشنغ تشنغ دونغ دونغ. وطبعا أقــول في نفسي بأنني قادرة على التكلم بالإنغليزية ولكنني لا أرغـــب في الحديث معهم. يضع أحدهم وجهه أمام وجهي تماما، أظن أن اسمه بلي، يظل يحدق فيَّ حائلا بيني وبين مواصلة المسير في حين يأخذ بقية الصبية في الصياح رالي رالي رالي تشنغ تشنغ دونغ دونغ كما لو أنهم كانوا يؤدون أغنية. ثم يقول بلي صائحا وضاحكا، أنت غريبة كيف تستطيعين الرؤية، ليس لديك بياض في عينيك، ثم يدفعني ويهرب فيضحك الجميع. عنـــدها أتـــذكر عيني إيمي وكيف أن لها عينين أمريكيتين أكثر اســـتدارة مـــن العيون الصينية وكم هي محظوظة وتستطيع التزين وأن تظهر جميلة. أسير إلى البيت. حين أفتح الباب تكون مم هناك وتقول لي ما المشكلة يا رِيو Rayue ، وأقول لهـــا لا تنـــاديني هكـــذا. اسمي ريلى فلماذا تستخدمين دائما اسمي الصيني، لا عجب من أن بابا لا يأتي لأخذنا. فترد بهدوء، اذهبي إلى غرفتك، فأركض صاعدة السلالم إلى غرفتنا وهي ليست غرفتي مثلما هي الحال بالنسبة لإيمي وأتصفح مجلات الملابس التي تشتريها العمة بتي

لإيمي وأفكر في إلى أي حد ملابسي التي أحضرتها من تايوان رديئة وكيف أنني كلما رغبت في شراء شيء ما تقول لي مـم علينا الادخار، ما عيب الملابس التي لديك الآن، أفكر في كيف أن بابا لم يكتب إلينا ولم يتصل بنا بالهاتف، لقد مضت سـبعة أشهر على وجودنا في أمريكا ولا تجيب مم بأي شيء عنـدما أسأل عنه، لا أنزل للغداء، أقول بأنني مريضة وأتذكر كيف كنا كلنا سعداء حين تحصل بابا على تأشيرة المجيء إلى هنا، رغم أننا لم نحصل على تأشيرتنا معه. سيظل بابا وليس داد، إلى أن نكون معا، ذلك ما كنت أفكر فيه بيني وبين نفسي.

لإيمي غرفة نوم كبيرة بها صور معلقـة علـى الجـدران ومسجل عالي الصوت وخزانة ملأى بالملابس. كنت أحب الذهاب إلى هناك بعد العودة من المدرسة، عندما لا يكون بالبيت أحد، مـم والعمة بتي بالسوق حيث تعملان والعم ون بمكتبه. لا تغلق إيمـي باب الخزانة كما تطلب منها العمة بتي طوال الوقـت، لـذا فمـن السهل معاينة ملابسها. أحب النظر إليها وأحيانا ألمـسها أيـضا. عندها قميص نصف كم وردي يعجبني، رأيت شيئا يـشبهه فـي المجلات. رأيت إلى أي حد تمتلك إيمي ثيابا صالحة للبس، فقررت الصعود بها معي لأقيسها، فقط لأرى إن كانت تلائمنـي. فكـرت أنني سأرتديها لفترة قصيرة. وجدتها تلائمني. يمكنني أن أرى في

مرآتي الصغيرة أنني أبدو عادية كالأمريكيات، لذا خلعتها وطويتها وفكرت بإعادتها لكنني عدلت. وضعتها تحت مخدتي وشعرت بالحرارة في وجهي وحاولت أن أقرأ في إحدى المجلات ولكنني ظللت أفكر في إيمي عندما تعود إلى البيت، وسرعان ما عادت لكنها لم تذهب إلى غرفتها إلا في وقت متأخر، بعد العشاء والتلفزيون والواجبات المدرسية. ثم حان وقت النوم ومازلت متوترة، ولكن لم يحدث شيء. وأخيرا ذهبت إلى النوم أنا الأخرى.

لم يكن هناك أحد بالبيت بعد المدرسة في هذه المرة أيضا، فذهبت إلى غرفة إيمي ولم أتمالك نفسي من أخذ ثياب أخرى. قميص آخر أصفر. ثم صرت أفعل ذلك يوميا. بدأت آخذ سراويل داخلية وصديريات وتنانير وأدسها في حقيبة صغيرة أحضرناها أنا ومم من تايوان وكانت تقبع في ركن من الغرفة فارغة. ارتديت ذات يوم أحد القمصان تحت كنزتي عند ذهابي إلى المدرسة. أثناء العودة في الحافلة قال لي داني Danny أو دِني Denny الساكن في نهاية الشارع سوزي العيدان الصينية [1] وأخذ يضحك بعنف كما لو أنه يبكي. فقلت له: داني رأس القضيب [2] كما سمعت إيمي تدعوه، فابتعد راكضا.

(1) العيدان المستخدمة في تناول الأرز.
(2) تعبير يعني الغبي.

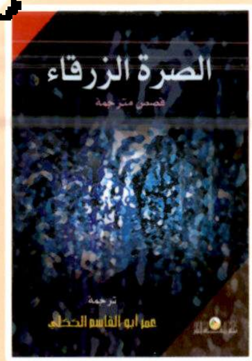
ثم لم يعد مهما أننا في شيكاغو التي ترضع ومم لا تتحدث كثيرا مع العمة بتي والعم ون، كما لو أنها كانت تريد الاختباء، مثلي عندما أكون بالمدرسة، لا نريد أن يرانا أحد.

حين أتت إيمي بصديقة معها إلى البيت كنت أشاهد التلفزيون ومرت الاثنتان بي وسمعت إيمي تقول، أمْ تلك هي، من يعلم متى سترحل، يبدو أن أباها قد هجرهما تعلمين، إنهما لا تدركان ذلك تعلمين؟ ذهبتا إلى غرفة إيمي فعلت الموسيقى، فرفعت صوت التلفزيون، فرفعتا صوت الموسيقى ثانية. حين عادت العمة بتي ومم من السوق صاحت إيمي باتجاه الطابق السفلي، مم هل رأيت تنورتي البيضاء، تلك المُزَهَّرة. ورغم استمراري في مشاهدة التلفزيون أحمَرُّ وأرغب في المسارعة بالذهاب إلى غرفتي، ولكن مم تسألني بالصينية، لماذا لم تغسلي الصحون التي بالحوض، لماذا لا تساعدين كما أطلب منك، وتقول للعمة بتي، آسفة جدا إنها شديدة الكسل أحيانا، وأكون أحاول أن أسمع إيمي أيضا. بعدها أتت إيمي إلى الطابق السفلي مع صديقتها لتقول، مم لقد افتقدت مجموعة من الملابس، هل تعلمين أين هي، وقالت العمة بتي، بالطبع لا يا إيمي أنا متأكدة من أنها في خزانتك، لو أنك تواظبين على ترتيبها لكان بإمكانك العثور على أي شيء. فنظرت إلي إيمي وأنا أجلس على الكنبة أحاول أن أشاهد التلفزيون. أحس بعينيها. تقول لصديقتها،

هيا، لنصعد ثانية، وبدلا من أن تذهبا إلى غرفتها تذهبان إلى الطابق العلوي إلى غرفتي أنا ومم. وعندها أدركت انها ستعرف، وسمعت مم التي كانت تغسل الصحون تقول ريلى إلى أين تذهبين، وأنا أفتح الباب الخارجي وأبدأ في الهروب إلى حيث لا أدري. كانت الدنيا باردة في الخارج ولم يكن معي معطف أو حتى حذاء، مجرد نعل من النوع الذي ترتديه العائلات الصينية دائما حتى في أمريكا، فيماعدا إيمي. أفكر الآن في كيف أن العمة بتي والعم ون لن يتركانا أنا ومم نقيم في بيتهما، وذلك بسبب خطئي، وإلى أين سنلجأ، حيث بابا، أريد أن أذهب إلى مكان آخر غير هذا. أجري وأجري وبعدها أحتاج إلى الراحة ولا أقدر على مواصلة الجري وأحتاج إلى التفكير والدنيا باردة وهكذا أجلس في محطة الحافلة. ثم أسمع عن بعد رااالييبي، إنها أمي تناديني، إنها تناديني ولكنني لا أتحرك وأقول لنفسي بأنني ينبغي أن أهرب ولكنني لا أفعل. وتراني ويكون معطفي معها فتعطيه لي وتقول، تعالي إلى البيت الآن، سأقول للعمة بتي بأنك ستعيدين ملابس إيمي، لا بأس. فآخذ في البكاء وتنهمر في البكاء هي الأخرى فأقول، متى نستطيع الذهاب إلى نورث كارولاينا حيث بابا، متى نستطيع الذهاب، فتقول، لا أدري، لا أعلم شيئا عن بابا، ثم تدعوني باسمي الصيني رِيو وتقول ثانية لا أدري.

* * * *

الفهـــرس



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام